سلسلة « الحقيقة الصعبة » (٣)

Series "The Truth Hard" (3)

عَالَمُ المُعجزات

بَحثٌ في تاريخ القُرآن

THE WORLD OF MIRACLES

STUDY ON THE HISTORY OF QUR'AN

أبو موسى الحريري

ABÛ MÛSÂ AL-HARÎRÎ

www.muhammadanism.org
September 1, 2010
Fonts: Arabic Transparent and Simplified Arabic

أبو موسى الحريري

عَالمُ المُعجزات

بَحثٌ في تاريخ القُرآن

بيروت

١٩٨٢م / ١٤٠٢ هـ

فهرس

		صفحة
مقدّمة	:	٥
الفصل الأوّل	: معجزة الـوحيّ والتنزيل	٣٠
مقدمة	:	٣١
أوّلاً	: استمراريّة الـوحي	٣٣
ثانياً	: معنى الوحـي	٣٦
ثالثاً	: طرق الوحـي	٣٨
رابعاً	: بدء الوحـي	٤١
خامساً	: الوحي والإلهام والنبوّة	٤٦
سادساً	: بين النبيّ محمّد والأنبياء السابقين	٤٩
خاتمة	:	٥٩
الفصل الثاني	: معجـزة « أمّيّـة » محمـّد	٦١
مقدمة	:	٦٢
أوّلاً	: القلم العربي	٦٤
ثانياً	: القـراءة والكتـابة في مكّة	٦٧
ثالثاً	: وسائل الكتـابة	٧٢
رابعاً	: « أمّيّة » الرسول	٧٦
خاتمة	:	٧٩
الفصل الثالث	: معجزة حفظ محمّد للقرآن	٨٠
مقدّمة	:	٨١
أوّلاً	: النسيان النبوي	٨٤
ثانياً	: النسخ في القرآن	٨٧
ثالثاً	: اجازة التبديل في القرآن	٩١
رابعاً	: دسّ الشيطان في الوحي	٩٤
خاتمة	:	٩٧
الفصل الرابع	: معجزة حفظ الصحابة للقرآن	٩٩
مقدّمة	:	١٠٠
أوّلاً	: تخلّف الصحابة عن كلّ القرآن	١٠٢
ثانياً	: حديث « الأحرف السبعة »	١٠٥
ثالثاً	: حفـّاظ القـرآن	١١٢
خاتمة	:	١١٥
الفصل الخامس	: معجزة تدوين القرآن وجمعه	١١٦

مقدّمة : ١١٧
أوّلاً : جمع الرسول للقرآن ١١٩
: مصادر القرآن ١٢١
ثانياً : جمع أبي بكر الصدّيق للقرآن ١٢٥
ثالثاً : مصحف عثمان بن عفّان ١٣٠
خاتمة : ١٣٥

الفصل السادس : معجزة ضبط القرآن واتلاف المصاحف ١٣٦

مقدّمة : ١٣٧
أوّلاً : الوضع السياسي ١٣٩
ثانياً : وضع المصاحف العثمانيّة ١٤١
ثالثاً : ضبط المصحف العثماني ١٤٤
رابعاً : رخصة القراءات ١٤٧
: المتشابه ١٤٨
: الاقحام ١٥٠
خاتمة : ١٥٢

الفصل السابع : معجزة الاعجاز البياني في القرآن ١٥٥

مقدّمة : ١٥٦
أوّلاً : اعجاز لغة القرآن العربيّة ١٥٨
ثانياً : اعجاز أسلوب القرآن ١٦٢
ثالثاً : الحكم للغة أم للقرآن ؟ ١٦٨

الخاتمة ١٧٦

المصادر والمراجع ١٨٠

مُقَدِّمَة

١ ــ كتَابُ المُسْلمينَ المُقَدَّس :

مع القرآن أنتَ في قدْس أقداسِ الإسلام والمسلمين : انّه كتابُ اللهِ المجيد[١] الكريم[٢] الحكيم[٣] العظيم[٤] المُنير[٥] المُبين[٦]. نزّله اللهُ على محمّد تنزيلاً[٧] ، وأنزله قرآناً عربيّاً[٨] غيرَ ذي عِوَج[٩]، لا ريبَ فيه[١٠] ولا اختلاف[١١] ، ولا ينطقُ عن الهوى[١٢]. أنّه هُدى للمتّقين[١٣] وبُشرَى للمؤمنين[١٤] ورحمةٌ للعالمين[١٥]. أنّه نورٌ من الله[١٦] وذكرٌ للعالمين[١٧]. انّه « الحقُّ اليقين »[١٨] والقول الفَصْلُ[١٩]، لا يَمَسُّهُ الاَّ المُطَهَّرون[٢٠]. وما هو بالنتيجةِ « الاّ وحيٌ يُوحَى »[٢١]، والذين « يُتلَى عليهم يَخرّون للأذقانِ سُجَّدًا »[٢٢].

القرآن « هو الكتابُ المقدَّس للمسلمين ... فيه أصولُ دينهم، وشرائعٌ حياتهم، ونبعُ إلهامِهم، ونبراسُ أخلاقهم، ونورْ هدايتهم في مُختَلَف شؤونِهم الدينيةِ والدنيويّةِ، الروحيّةِ والماديّةِ، العامّةِ والخاصّةِ، السياسةِ والقضائيةِ والاجتماعيةِ والشخصيةِ والإنسانيّةِ ... وَصَفَهُ

---

[١] القرآن، سورة ٥٠ آية ١ ، ٨٥ / ٢١.
[٢] ٥٦ / ٧٧ ، ٢٧ / ٢٩ .
[٣] ٣٦ / ٢ ، ٣ / ٥٨ ، ١٠ / ١ ، ٣١ /٢.
[٤] ١٥ / ٨٧ ، ٣٨ / ٦٧ ، ٧٨ /٢.
[٥] ٣ / ١٨٤ ، ٣٥ / ٢٥ .
[٦] ١٥ / ١ ، ٢٧ / ١ ، ٣٦ / ٦٩ ، ٥ / ١٥.
[٧] ٧٦ / ٢٣ ، ٣ / ٣ ، ٤ / ١٣٦ ، ٢٥ / ١ ، ٢ / ٢٣ و٤٧ ، ١٥ / ٩ ، ١٦ / ٨٩ ، ١٧ / ١٠٦ ، ٢ / ٩٧ ، ١٦ / ٤٤ ، ٥٧ / ٩ ، ٤٧ / ٢.
[٨] ١٢ / ٢ ، ٢٠ / ١١٣ ، ٣٩ / ٢٨ ، ٤١ / ٤٤ ، ٤٢ / ٧ ، ٤٣ / ٣.
[٩] ٣٩ / ٢٨ ، ١٨ / ١.
[١٠] ٣٢ / ٢.
[١١] ٤ ، ٨٢.
[١٢] ٥٣ / ٣.
[١٣] ٢ / ٢ و ١٨٥ ، ٤١ / ٤٤ ، ١٦ / ١٠٣.
[١٤] ٢ / ٩٧ ، ٤٦ / ١٢ ، ١٦ / ١٠٣.
[١٥] ١٠ / ٥٧ ، ٦ / ١٥٧ ، ٤١ / ٤٤.
[١٦] ٦٤ / ٨ ، ٤ / ١٧٤ ، ٥ / ١٥ ، ٧ / ١٥٧ ، ٤٢ / ٥٢ ، ٦٤ / ٨.
[١٧] ١٢ / ١٠٤ ، ٣٨ / ٨٦ .
[١٨] ٦٩ / ٥١.
[١٩] ٨٦ / ١٣ .
[٢٠] ٥٦ / ٧٩.
[٢١] ٥٣ / ٤.
[٢٢] ١٧ / ١٠٨.

نبيُّهم بهذا الوصفِ الشاملِ الرائعِ المأثورِ عن طريق عليٍّ بن أبي طالب ... : « فيهِ نَبَأُ مَا قَبْلكم، وخَبَرُ ما بَعدكم، وحُكْمُ ما بَينَكم »[1].

و « القرآن الكريم هو الكتابُ السماويُ الوحيدُ الذي ليسَ محلَّ شكٍّ وريبٍ من بين الكتبِ السماويةِ المتداولةِ في كونهِ مُتّصِلاً بالنبي، وفي صدورهِ عنه بِحُروفهِ وألفاظهِ وسُوَرِهِ بوحيٍ من الله »[2]. وهو « أعظمُ مظهَرٍ لنبوّةِ النبيِّ وأقوى آياتِها ودلائلها »[3]. « وقد تكرّر فيه فيه توكيدُ اتّصالِه بوحي الله, وصدورهِ عنه، وعجز الناس عن الاتيانِ بمِثلِهِ، مُعلِنًا ذلك على ملأٍ من خصومهِ الألدّاءِ وجاحديه الأشدّاء »[4]. « وبالإضافةِ إلى هذا فقد احتوى آياتٍ كثيرةً، فيها إعلانٌ بإشهادِ الله على صحةِ هذه التوكيدات والتقريرات وتعظيمٌ لجرمِ الافتراء على الله »[5] ، منها قوله : « ومَنْ أظلم مِمَّنِ افتَرى على اللهِ كذِباً، أو قالَ أُوحِيَ إليَّ ولم يُوحَ يُوحَ إليهِ بِشَيء »[6].

في إيمان المسلمين أيضاً : « جاء القرآن خاتِماً لرسالاتِ السماء، ومكمِّلا للكتبِ المنزلةِ من قَبلِه، ومُهيمِناً علَيها. وقد تميَّز إلى ذلك بميزةٍ كبرى هي أنَّ الله سبحانَه وتعالى تعهَّدَ بحِفْظِه، بينَما وُكِلَتِ الكتبُ الأخرى إلى مَن أُنزلتْ إليهم للاحتفاظِ بها.

« ومِن هنا فإنَّ القرآنَ هو الكتابُ الوحيدُ في العالَم كلِّه الذي حُفِظَ من التحريف... ولقد كان نزولُ القرآنِ على محمّد صلعم، في تقديرِ الباحثين والمؤرّخِين، « أعظمَ حادِثٍ في تاريخِ البشريّة » .

« فلأوّلِ مرَّةٍ ــ مِن بين الكتبِ السماويةِ الأخرى ــ يَظهَرُ على الأرض كتابٌ ذو كلماتٍ وحروفٍ إلهيّةٍ، لم يَكْتبْ سَطراً من سطورهِ بَشَرٌ، ولم يَخُطّ حَرفاً من حروفهِ إنسانٌ. وقد أعلنَ الكتابُ الإلهيُ إعلاناً لا مَحيصَ عنه أنّه آخِرٌ وحيٍ من السماء، وانَّ رسالةَ السماءِ اكتملتْ بهِ اكتمالَها الأخير، وإن الدائرةَ الإلهيّةَ التي هبطتْ منها الألواحُ والصُحُفُ والكتبُ الإلهيّةُ الأخرى قد أُقفِلتْ نهائياً »[7].

---

[1] محمّد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٥ ـ ٦.
[2] نفس المرجع، ص ٧ ، انظر الآيات التي يدعم بها حجّته، وهي : ٦ / ١٩ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ١٤ / ١ ، ١٨ / ١١٠.
[3] نفس المرجع، ص ٨ ، الآيات : ٦ / ١٥٥ ـ ١٥٧ ، ٧ / ٥٢ ، ١٥ / ٨٧ ، ٢٩ / ٥٠ ـ ٥١.
[4] نفس المرجع، ص ٨ ، الآيات : ٢ / ٢٣ ـ ٢٤ ، ٤ / ٨٢ و ١٦ ، ١٧ / ٨٨ ، ٢٦ / ١٩٢ ـ ١٩٥.
[5] نفس المرجع، ص ٩.
[6] ٦ / ٩٢ ـ ٩٣، انظر : ١٦ / ١٠١ ـ ١٠٥، ٤٢ / ٢٤، ٤٦ / ٨، ٦٩ / ٤٣ ـ ٤٨.
[7] أنور الجندي، الإسلام والعالم المعاصر، ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

هذا القرآن هو معجزةُ المعجزاتِ الإلهيّة، بل هو، على حدِّ قول ابن خلدون « أعظمُ المعجزاتِ وأشرفُها وأوضحُها دلالةً »[١]. إنّه معجزةٌ في كلِ شيء : في ألفاظِه، وحروفِه، وآياتِه، وأسلوبِه، ولغتِه، ومعانيهِ، وتعاليمِه، وعلومِه، وشريعتِه، وتدوينِه، وحفظِه ... « ولَئِنِ اجتمعتِ الانسُ والجِنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن لا يَأتونَ بمثلِهِ ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظَهِيراً »[٢]. وبرهانُ معجزتِه أنّه كلُّه مِن عندِ الله، « ولو كانَ مِن عندِ غيرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اختلافاً كبيراً »[٣].

هذا الكتابُ هو « معجزةُ التاريخِ العربي خاصّةً، ثم هو بآثارِه النامية معجزةٌ أصليةٌ في تاريخِ العالَمِ كلِّه على بَسِيطِ هذهِ الأرض، مِن لَدُن ظَهَرَ الإسلامُ إلى ما شاء الله ... »[٤]. و « القرآن ... انّما هو البابُ الذي خرَجَ منه العقلُ الإنسانيُ المُستَرحِلُ، بعدَ أن قَطَعَ الدهرُ في طفولةٍ وشباب ... (و) القرآنُ إنّما هو الدرجةُ الأبديةُ التي أجازَ عليها العالَمُ في انتقالِه من جهةٍ إلى جهة »[٥].

القرآن « هو كتابُ السماء إلى الأرضِ مُستقرّاً ومُستودعاً، وقد جاء بالإعجازِ الأبدي الذي يَشهَدُ على الدهرِ، ويشهدُ الدهرُ عليه. فما مِن جهةٍ من الكلامِ وفنونهِ الاّ وأنتَ واجدٌ إليها مُتوجَّهاً فيهِ، وما من عصرٍ الاّ وهو مَقلِبُ صفحةٍ منه حتى لتنتهي الدنيا عندَ خاتِمته فإذا هي خَلاء « من الجَنّةِ والناسِ »[٦]. وعند الدكتور الرافعي أيضا « إن القرآنَ كتابُ الدهرِ كلِّه، وكم وكم للدهرِ من أدلّةٍ على هذه الحقيقةِ ما تَبرحُ قائمةً »[٧]. وأيضاً : « القرآنُ كتابُ كلِ عصرٍ، وله في كلِ دهرٍ دليلٌ من الدهرِ على الإعجازِ »[٨]. وأخيراً : « لا يعلمُ الناسُ من ذلكَ إلاّ أنّه (القرآن) معجزَةٌ من معجزاتِ التاريخِ العِلمي في الأرضِ لم يَتّفِقْ له في ذلك شبيهٌ مِن أوّلِ الدنيا إلى اليومِ، ولن يَتّفقَ »[٩]. ومن ذلك أيضاً : « هذا الكتابُ الكريم سَبَقَ العقلَ الإنسانيَ ومخترعاتِه بأربعةَ عشَرَ قرناً إلى زمننا، وما ذاك الاّ فَضلٌ من الدهرِ، وسَتعقبُه فصولٌ بعدَ فصولٍ »[١٠].

---

[١] ابن خلدون، المقدمة، طبعة دار الكتاب اللبناني، ص ١٦٥.
[٢] ١٧ / ٨٨.
[٣] ٤ / ٨٢.
[٤] الدكتور مصطفى الرافعي، إعجاز القرآن، ص ١١٤.
[٥] نفس المرجع، ص ١١٥ ـ ١١٦.
[٦] هذه الجملة هي آخر المصحف، نفس المرجع، ص ٣٢.
[٧] نفس المرجع، ص ١١٩.
[٨] نفس المرجع، ص ١٥٤.
[٩] نفس المرجع، ص ١٢٧.
[١٠] نفس المرجع، ص ١٣٠.

لقد « عُنِيَ المسلمون بالقرآنِ من كلِ جانبٍ من جوانبِه، حتى كانَ هو الـذي قامـتْ حولَه ومن أجلِه كلُ العلومِ الدينيةِ والعربيةِ والكونيّةِ، وغيرِها ... فكان حقًا باعِـثَ النهضـةِ العلميةِ بمفهومِهـا الواسعِ لأتباعِه »[1]. بالقرآنِ ظهـرَ فضلُ المسلمين على العـالَمِ أجمـع: فـ« الحمـدُ للهِ الذي فَضَّلَنَا بالقرآنِ على الأممِ أجمعين، وآتَانَا بهِ مـا لم يُؤتِ أحـدًا مـن العالّمين »[2].

ولئن تحدَّى النبيّ بالقرآنِ كفّارَ قريش ومشركِي مكّةَ وجميعَ الجنّ والإنسِ بأن يـأتوا بسورةٍ من مثلِه، فإنَ القرآنَ نفسَه أعطى المسلمينَ لأن يَتَحَدّوا العالَمَ أجمع بجميعِ ما عنـدَهم من علومٍ وشرائعَ. هكذا « نَقَلَ جميعُ المسلمين هذا التحدّي إلى جميع الأممِ، فظَهَـرَ عجزُهـا أيضا »[3]. وذلك لأنّنا نقعُ فيه « على ذخائرَ واسعةٍ من المعرفةِ تُعْجِزُ أكثـرَ النـاسِ ذكـاءً، وأعظمَ الفلاسفةِ، وأقدرَ رجالِ السياسةِ »[4].

ويكفي المسلمين فخرٌ أن يَنعَموا بكلامِ اللهِ يَتَجَسَّدُ فيما بينهم، يحـلُّ فـيهم، ويُعطـيهم السكينةَ والطمأنينةَ والسلامَ. ويكفي قارئَ القرآنِ أن يكونَ من الوحي والنبوّةِ على قيدِ شَعْرةٍ. والحقيقةُ تقال : « مَنْ قَرَأَهُ فَقَدِ استَدْرَجَ النبوّةَ بينَ جنبَيهِ غيرَ أنّه لا يُوحَى إليهِ »[5].

٢ ــ صِلَةُ النبيّ بالقرآن :

لا يدَ لمحمدٍ في القرآن. ليسَ له أن يُبَدِّلَ فيه شيئاً : « قُلْ مَا يكونُ لي أنْ أُبَدِّلَهُ مِـن تَلْقَاءِ نفسِي، أَنْ أَتَّبِعُ إلاّ ما يُوحى إليّ »[6]، بل ليسَ له أيضاً أن يتسرَّعَ في تَقبّلِ الوحي، اللهُ هو هو الذي يصنَعُ له كلَ ما يشاء : « لا تُحرّكْ به لسانَكَ لِتعجلَ به، انَّ علينَا جمعَه وقرآنَه. فإذا قرأناه فاتّبعْ قرآنَه. ثم إنّ علينا بيانَه »[7]. لا يملك محمّدٌ، إزاء القرآن، أيَ أمـرٍ مـن أمـور السماءِ: « لا أملكُ لنفسي نفعاً ولا ضرّا الاّ ما شاء الله »[8]، و « قل : لا أقـولُ لكـم عنـدي خزائنُ الله، ولا أعلمُ الغيبَ، ولا أقولُ لكم أنّي مَلَكٌ، أنْ أَتَّبِعُ إلاّ ما يُوحَى إليّ »[9].

---

[1] الدكتور عبد المنعم النمر، علوم القرآن الكريم، ص ٣٣.
[2] محمد بن عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ٩.
[3] محمد رشيد رضا في مقدمة على « إعجاز القرآن » للرافعي، ص ١٧.
[4] لورا فيشيا فاغليرى، دفاع عن الإسلام، ص ٥٨.
[5] عن إعجاز القرآن للدكتور الرافعي، ص ٩٩.
[6] ١٠ / ١٥ ـ ١٦.
[7] ٧٥ / ١٦ ـ ١٩.
[8] ٧ / ١١٨.
[9] ٦ / ٥٠.

فمحمدٌ إذن « لا دخلَ له في الوحيِ، فلا يَصوغُه بلفظِه، ولا يُلقِيهِ بكلامِه، وإنّما يُلقى إليه الخطابُ القاءً. فهو مخاطَبٌ لا متكلِّمٌ، حَاكٍ ما يَسْمَعُه، لا معبِّرٌ عن شيءٍ يجولُ في نفسِه... (ثم) إنّ النبيّ لا يملِكُ حتى حقَّ استخدامِ ذاكرتِه في حفظِ القرآنِ، بل اللهُ يتكَفَّلُ إيّاه... وهو يرى بنفسِه أنه لا يملِكُ من أمرِ نفسِه شيئًا... إنّه الوحيُ يَنزِلُ على محمّدٍ حين يشاءُ ربُّ محمّدٍ، ويَفتَرُ إذا شاء له ربُّ محمّدٍ الانقطاعَ، فما تنفعُ التعاويذُ والأسجاعُ، ولا تقدِّمُ عواطفُ محمدٍ ولا تُؤخِّرُ في أمرِ السماء »[1].

« القرآنُ إذاً صريحٌ في أنّه لا صنعةَ فيهِ لمحمد ... ولا لأحدٍ مِنَ الخَلق، وإنما هو مُنَزّلٌ من عندِ اللهِ بلفظِهِ ومعناه »[2] والتعريفُ المتَّفَقُ عليه هو أنّ « القرآنَ هو كلامُ الله تعالى، تعالى، المنزَلُ على محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم، المتعبَّدُ بتلاوته »[3].

وممّا يدلّ على أنّ القرآن كلَه من عندِ الله واقعُ محمّدٍ الأمّيِّ الذي يجهَلُ الكتابةَ والقراءةَ. وأمّيّةُ محمّدٍ من مُسلَّماتِ الإسلام والمسلمين. لهذا « كيفَ يمكنُ أن يكونَ هذا الكتابُ المعجزُ من عملِ محمّدٍ، وهو العربيُ الأمّيّ!؟ ... وعلى الرغم من أنّ أصحاب البَلاغةِ والبيانِ الساحر كانوا غيرَ قلائلَ في بلادِ العربِ فانّ أحدًا لم يتمكّنْ من أن يأتي بأيٍّ أثَرَ يُضاهِي القرآنَ ... انّه ممتنعٌ على التقليدِ والمُحاكاةِ حتى في مادّتِه ... »[4]. ومن هذا القبيل أيضًا : « من أينَ لأمّيٍّ كالنبي عليه السلام، أو متعلِّمٍ مَهما أُوتِيَ من العلمِ أن يُؤلِّفَ ستةَ آلافِ آية بهذه الفصاحةِ والاتّساق ؟ انّ في ذلك لآيةً على أنه من عندِ الله ... وقد ظهَر القرآنُ على لسان أمّيٍ لم يَتَعَلَّمِ القراءةَ والكتابةَ، فكيف يمرّ عليه أربعةَ عشَر قرنًا تتغيّرُ فيه العقليّةُ البشريةُ ولا يظهَرُ فيه اختلافَ ؟ بل نَرى الأصولَ التي أتى بها القرآنُ ... تُناسِبُ مع كل زمانٍ ومكان »[5].

٣ ــ اللّغةُ العربيةُ في حِمى القرآن :

[1] الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠ و ٣٣ و ٣٨.
[2] محمد دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص ٢١.
[3] نفس المرجع، ص ١٤. انظر تفسير ذلك في الصفحات التالية.
[4] لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، ص ٥٦ ـ ٥٨.
[5] عفيف عبد الفتاح طبّاره، روح الدين الإسلامي، ص ٤٢ و ٤٣.

القرآنُ هو مصدرُ اللغةِ العربيةِ وحافِظُها، وهو الذي حَماها « لغة مِن أنَ تذوبَ في لغاتٍ. وما نعرفُ شيئًا حَمى اللغةَ العربيةَ من الضياع ... غيرَ هذا الكتابِ الكريم. أُبعِدَتْ ما أُبعِدَتِ الشعوبُ العربيةُ عن الكلامِ بلغتِها العربيّة وكانَ هو مردَّها إليها، كلما أوشكتْ أن تنفصم صلتُها بها رَبَطتَها هو بها. وهكذا عاشتِ الأمّةُ العربيةُ بعيدةً بكل ما في يَدَيها عن لغتِها قريبةً بهذا الكتابِ وحدَه إلى لغتِها. وحينَ حمَى هذا الكتابُ اللغةَ لأهلها حمَى هؤلاء مِن أنْ يتفرَّقوا أيدي سبأ ... »[1].

ثمّ انّ القرآنَ هو قاعدةُ اللغةِ العربيةِ وأصلُها والحَكَمُ عليها. وهي تَنتسِبُ إليه، وتحتمي بهِ، وتُصَان. وفي رأي الشيخِ صبحي الصالح : « انّنا نجعلُ القرآنَ حَكَماً على قواعدِ اللغةِ والنحْوِ، ولا نجعلُ تلك القواعدَ حَكَماً على القرآن »[2]. وفي رأيِ الدكتور الرافعي، أن القرآنَ « هو يدفعُ عن هذه اللغةِ العربيةِ النسيانَ الذي لا يُدْفَعُ عن شيء. وهذا وحدَه اعجاز... تُذْكَرُ بهِ اللغةُ، ولا يُذْكَرُ هو بِهَا. وبذلك يَحْفَظُها »[3].

ويبدو واضحًا للعيانِ وللتاريخِ أَنَّ القرآن « هو الكتابُ الوحيدُ الذي احتفظَ بلغتهِ الأصليةِ، وحفظَها على قيدِ الحياة، وسيحفظُها على مرِّ الدهورِ. وستموتُ اللغاتُ الحيّةُ المنتشرةُ اليومَ في العالَمِ، كما ماتتْ قَبْلَها لغاتٌ حيّةٌ كثيرةٌ في سالفِ العصور، الاّ العربيةُ، فستبقى بمنجاةٍ من هذا الموت، وستبقَى حيّةً في كل زمان، مخالِفةً لنواميسِ الطبيعةِ التي تَسري على سائرِ لغاتِ البشر، ولا غروَ فانّها متّصلةٌ بالمعجزةِ القرآنيّةِ الأبديّة »[4].

وبعد كل هذا ليس على اللغةِ العربية، بعدَ القرآن، أنْ تَخافَ على نفسِها من الموتِ والفناء، حتى ولو فارقتِ الشفاهَ واللسانَ، لأنّ المتكلّمَ بها هو اللهُ، والكلامُ فيها هو كلامُ الله والملائكةِ وأهلِ الجنّة الناجين. ولو لم يكنِ القرآنُ حافِظًا قواعِدَها، ورابِطًا مراسيها، وحامِي ألسنةِ الناطقين بها، لأصابَها ما أصاب سواها من لغاتِ أهلِ الأرض. كلّ لغاتِ العالَمِ يجري عليها قانونُ الموتِ والحياةِ، ما عداها، لأنها تَعْلو على سنّةِ الموتِ بعدَ أنْ أفسحتْ لها الحياةُ مجالَ الدهور. ومهما قرّر علمُ اللغةِ من تطوّرِ اللغاتِ في أَلْسِنَةِ البشر، فانّ اللغةَ العربيةَ متنعّمةٌ بالسؤددِ والمجدِ في كلامِ اللهِ السرمديّ. فلا اللَّهَجَاتُ ولا اللَّكَنَاتُ ولا التلحينُ والتصحيفُ والتحريفُ بجائزٍ على لغةِ اللهِ العليّ. وعلى الاستعمارِ ورجالهِ أن يعرفوا حدودَهم

[1] ابراهيم الابيارى، تاريخ القرآن، ص ٥٤.
[2] الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٥٨.
[3] الدكتور مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٤.
[4] أنور الجندى، الإسلام والدعوات الهدامة، ص ٢٦٩.

وحدودَ علمِهم عندما يواجهون لغةَ اللهِ وأهلِ الجنّة، لأنّنـــا أمام « معجزةٍ ثانيةٍ خالدةٍ بخلودِ » القرآن[١]. وهكـــذا يكـــونُ القـــرآن « معجزًا في نفسه من حيثُ هو كلامٌ عربي »[٢].

٤ ــ العِلْمُ في القرآنِ ومِنَ القرآنِ :

كلُ ما في الأرضِ من علومٍ مصدرُها ومرجعُها القرآن : « انّ ما يداولُه العالَمُ اليومَ من فلسفاتٍ وعلومٍ انّما هو من نتاج الفكرِ الإسلاميّ أصلاً، وان القرآنَ كان بالحق هو مصدرُ المصادر « في مناهجِ العلومِ التجريبيّة والاجتماعيةِ جميعاً »[٣]. بل « ان القرآنَ (هو) بمثابةِ ندوةٍ علميّةٍ للعلماء، ومعجَمِ لغةٍ للغويين، وأجروميّةِ نَحْوٍ لِمَـــنْ أرادَ تقـــويمَ لِسَـــانَه، وكتـــاب عروضٍ لمحبِ الشعرِ, وانسكلوبيديةٍ عامّةٍ للشرائعِ والقوانين »[٤].

هذا القرآن العظيم نجدُ فيه كلّ « ما يؤيّدُ ويدعَمُ مواضيعَ العلمِ الحديث : من تجزئـــةِ الذرة، وثنائيةِ المادة، والأشعةِ الكونية، وطبقاتِ الجوِّ، والضـــغطِ الجـــوي، وتركيـــبِ المـــاء والهواء، ولغةِ الحشرات، وبصمات الأصابع، والكائنات المجهرية، وعدمِ فناء المادة، وغـــزوِ الفضاء، والذبذبات الصوتية، والنَقْلِ البعيد، والرؤيةِ عن بُعْد (التلفزة)، إلى غير ذلـــك مـــن حقائق العلم الحديث »[٥].

لقد تناولَ القرآن بالبحثِ كلّ المعارفِ والعلومِ الممكنةِ « تناولاً شاملاً جامِعًا مانِعًا. لم يبقَ فيه للأجيالِ التي تلتْ نزولَه ما تزيدُه، ولم يُتْرَكْ للعلمِ وآلاتِه أن يُضيفَا شيئًا إلى بيّناتهِ ... فسبقَ العلمَ ولم يَتْرُكْ زيادةً لمستزيد »[٦]. لهذا « نحنُ نقدِرُ أن نقولَ، بكل ثقـــةٍ واعتـــزاز، أنّ جميعَ الأمثالِ القرآنيةِ مؤيّدةٌ من العلمِ الحديثِ دون استثناء »[٧].

بل قد نعجزُ عن احصاءِ علومِ القرآن أو أن نَستقصيَها جميعَها، « وقد ذكَر الألوســـي في تفسيره عن بعض السلف : أُنزِلَ في هذا القرآن كلُ علمٍ، وبُيِّنَ لنا فيه كلُّ شـــيء. ولكـــنْ علمُنا يقصر عمّا يُبيّن لنا في القرآن. ونَقَلَ عن ابن عباس قولَه : « لَوْ ضَاعَ لِي عقالُ بَعِيـــرٍ

---

[١] ابراهيم الابيارى، تاريخ القرآن، ص ٤٤. انظر أيضًا ٤٥.
[٢] الدكتور مصطفى الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٥٧.
[٣] أنور الجندى، الإسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ٢٥٠.
[٤] أنور الجندى، العالم الإسلامي والاستعمار ...، ص ٣٢٦.
[٥] يوسف مروّة، كتاب العلوم الطبيعية في القرآن، ص ٦٩.
[٦] أحمد سليمان، القرآن والطب، ص ١٢٠ ـ ١٢١.
[٧] الامام موسى الصدر، في مقدمة كتاب يوسف مروّة، « العلوم الطبيعية » ، ص ٣٨.

لَوَجَدْتُهُ في كتاب الله تعالى » . وذَكَرَ أيضا : ان بعضَ العلماءِ استخرجَ من « الفاتِحَةِ أسماءَ سلاطين آلِ عثمان وأحوالَهم ومدّةَ سلطانِهم إلى ما شاء الله »[1].

وهكذا « ما مِن علمٍ الاّ وقد نظَر أهلُه في القرآن، وأخذوا منه مادّةَ علمِهم، أو مادّةَ الحياةِ له »[2]. وفي علمِ الرافعي « قد ألّفَ بعضُ علماءِ القومِ كتابًا سمّاه « تنبيهَ الأغنياء على قَطرةٍ من بحرِ علومِ الأولياء » . كانت هذه القَطَرةُ فيه زهاءَ ثلاثةِ آلافِ علمٍ. فترى ما عسى أن يكونَ البحرُ ؟ اللهمَ ان السلامَة في الساحل ».[3] وعند الرافعي أيضًا أن في القرآن « اشاراتٍ وآياتٍ بيّناتٍ في مسائلَ ما برحتِ العلومُ الطبيعيّةُ تحاولُ الكشفَ عن كنهها منذ عصور »[4]. كما يخلص إلى القول : « ان هذه المخترعَاتِ والمستحدَثَاتِ وما أدّتْ إليه من أدلّةٍ ونظرياتٍ قد جاءَتْنا ببرهانٍ جديدٍ على إعجازِ القرآنِ الذي نَدينُ اللهَ عليه، فقرّتْ أعينُ المؤمنين، وذلك من فضلِ الله علينا وعلى الناس »[5].

« ولعلّ أهمَّ الأسبابِ الداخليّةِ لانحطاطِ المسلمين وتأخرِهم في الوقتِ الحاضرِ هو انصرافُهم ... عن تدارسِ ما في القرآنِ من كنوزِ العلمِ والمعرفةِ، والتي ما زالتْ بِكرًا حتى الآن »[6]. ونحن على يقينٍ أنّ العالَمَ الإسلامي، إذا ما عادَ إلى كلامِ اللهِ يستشفُ منه العلمَ والمعرفةَ، سيلتحقُ بِرَكْبِ العلمِ وأهلِ العلم، لأنّ مصدرَ العلمِ في كتابِ الله الذي بين أيديهم. وبهذا لن تعودَ أوروبّا تتحكّمُ برأسمالِ المسلمين، لئلا يلحَقَ بكتابِ الله من هذا التحكّمِ شيءٌ. وحاشا الله من المفسدين.

٥ ــ في القرآنِ شريعةُ الخلود :

في اعتقاد المسلمين ان الشريعةَ الإسلاميةَ هي آخِرُ صورةٍ لكِل شريعةٍ، وقد لا تلحقُ البشريةُ في نُضجِها ونموِّها الأخيرِ مستوَى شريعةِ الإسلام « التي أرادَها اللهُ لمستقبلِ البشريةِ كلِّها، والتي وضعَها اللهُ على مستوى النضجِ للبشريةِ كلّها، وصاغَها بحيثُ تشمَلُ كلّ دقائقِ حياتِهم، وتسيرُ مع كل نموّهِم وتطوّرِهم حتى يَرِثَ اللهُ الأرضَ وما عليها ... وعالجَ الإسلامُ

---

[1] أحمد سليمان، القرآن والعلم، ص ١٦٩ ، نقلا عن « روح المعاني » .
[2] الدكتور مصطفى الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٢٢.
[3] الرافعي، اعجاز القرآن، ص ١٢٦، حاشية (١).
[4] نفس المرجع، ص ١٣١.
[5] نفس المرجع، ص ١٣٣.
[6] الدكتور داوود العطّار، موجز علوم القرآن، ص ٧.

(هذه الشريعة) بحيثُ لا تخرجُ الحياةُ البشريّةُ في أيّةِ لحظةٍ من تطوّرِها عن مفاهيم الإسلامِ وتشريعاته »[1].

ان الإسلامَ، بنظرِ المسلمين المؤمنين، يناسِب كلّ عصرٍ، فيما سائر الأديانِ تناسبُ عصرَها الذي وُجِدَتْ فيه. و « الأديانُ تختلفُ في تشريعاتِها لاختلافِ أحوالِ الأممِ الاجتماعيةِ ودرجةِ استعدادِها العقلي. ولقد اختتمَ اللهُ الأديانَ بالدينِ الإسلامي، وأعطى محمّدًا شريعةً تَنْسخُ ما قَبْلَها من الشرائعِ مظهِرًا فيها كنهَ الدينِ الحقّ. وهذه الشريعةُ توافقُ ما اقتضاه التطوّرُ العقلي للإنسانِ وتصلحُ لكل زمانٍ ومكانٍ، وانّها الشريعةُ المقبولةُ عند الله ، ولا يُقْبَلُ غيرُها »[2].

ثم ان « الشريعةَ الإسلامية هي شريعةُ الخلودِ والبقاء، لانّها جمعتْ بين حلقاتِ الزمنِ من دابرٍ وحاضرٍ، فوضعتْ لكلِ عصرٍ وجيلٍ أحكامَه وطرائقَه، فكانتْ شريعةُ الإسلامِ خيرَ الشرائعِ وأمثلَ القوانين »[3]. وهكذا « لما كان الإسلامُ خاتمَ الأديانِ كان من الضروري أن يأتي بشريعةٍ تختمُ كل الشرائع، ومن هنا كانتْ شريعةُ الإسلامِ صالحةً لكل زمانٍ لأنّها شريعتُه، ولكلِ مجتمعٍ لأنّها حياتُه الفاضلة المهذبة. وليس في الأرضِ شريعةٌ صالحةٌ كشريعةِ الإسلام، وما من مزيةٍ صالحةٍ في أيّ شرعٍ كان الاّ والإسلامُ يَحويهِ على أكملِ وجه، لأن شريعةَ الإسلامِ هي شريعةُ الله ، وما شَرْعٌ أكملُ من شَرْعِ الله ، ولا خيرٌ منه للإنسانيةِ كلّها »[4].

والسبب في ذلك هو ما « في شريعةِ الإسلام من المُسَايَرَةِ والمطاوَعةِ واليُسْرِ والسَعَةِ والمُرونةِ والكفايةِ لكلِ ما يشمَلُ تطوراتِ الحياةِ، ويحقّقُ للناسِ سعادَتهم أفرادًا وجماعاتٍ في كل زمنٍ وبيئة »[5].

و « كذلك المبادئُ والأصولُ الرئيسيةُ للفقهِ والتشريعِ الإسلاميّ، فيها صفة الشمولِ والعمومِ لحياةِ الإنسانِ في كل البيئاتِ والعصورِ. وفي الوقت نفسهِ تتصفُ بالثباتِ والدوام، ولكن لا بمعنى الجمودِ والتحجّر ... وعليه يكونُ معنى صلاحِ الشريعةِ الإسلامية لكلِ زمانٍ ومكان : ان مبادئَها وأصولَها الأساسية تصلحُ لأن يتفرّع عنها ويُستَخرجَ منها أحكامٌ تنسجِمُ

---

[1] محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص ٢١ ـ ٢٢.
[2] عفيف عبد الفتّاح طبّارة، روح الدين الإسلامي، ص ١٧.
[3] عباس طه، السلطتان الدينيّة والدنيوية كما يراها الإسلام، في كتاب « الإسلام والأنظمة السياسيةُ » ، دار الكاتب العربي، ص ٨١.
[4] أحمد عبد الغفور عطّار، هل يفي الفقه الإسلامي بحاجات كل عصر ؟ في كتاب « الإسلام والتحدي الحضاري » ، دار الكاتب العربي، ص ١١٢.
[5] محمود الشرقاوي، التطور روح الشريعة الإسلامية، ص ٧٠ و ٩١.

وتتلاءَم مع كل بيئةٍ وعصر، وانَ الخيرَ والصلاحَ لا يمكن وجودُه والبحثُ عنه خارجَ إطارِ مبادئِ الشريعةِ الإسلامية وأصولِها »[١].

والعجيبُ الغريبُ حقّا أن تَرى بعض « الدولِ الإسلامية أو أكثَرها تنقلُ قوانينَها عن الغَرْبِ، وتهملُ الشريعةَ الإسلامية، مع العلمِ أن أكثرَ القوانين الغربيةِ منقولةٌ ــ بطريقٍ أو بآخر ــ عن الفقه الإسلامي. وعلى فرْض استقلالِها عنه، فان التشريعَ الإسلامي لا يُدانيهِ أيُّ دستورٍ أو قانون »[٢].

ان الشريعَة الإسلامية، أخيراً، بلغتِ الكمالَ والتمامَ في كل شيء : « لقد بلغتْ (مثلاً) في تكريمِ المرأةِ وتأكيدِ حقوقِها واستقلالِ شخصيتها ما لم يبلغْهُ تشريعٌ اجتماعيٌ أو قانونيٌ في القديمِ ولا في الحديث »[٣]. و « ان الحضارةَ الإسلاميةَ سبقتِ الإعلانَ العالمي لحقوقِ الإنسان، حتى جاء هذا الإعلانُ وكأنّه مشتَقّ من مبادئِ الإسلام »[٤]. كما أنّه « ولا شكّ أيضًا في أن الإسلامَ قد سبقَ الأنظمةَ كلَها إلى تحريرِ الرقيق »[٥]. وبالعموم « ان التشريعَ الإسلاميّ لا يُدانيه أي دستورٍ » في العالم[٦].

٦ ــ في القرآنِ حُلولٌ لكلِ مشاكلِ الكونِ والإنسان :

في اعتقادِ المسلمين أن القرآنَ قدّمَ الحلولَ المناسِبَةَ والنهائيّةَ والجذريّةَ لكلّ مشاكلِ الإنسانِ والعصرِ والمجتمع. بل ان « الإسلامَ هو نهايةُ الفكرِ الإنساني. والإنسانيةُ، بعد طُولِ حَيرَتِها حولَ المذاهبِ والدعواتِ والأفكارِ، لن تجدَ حلاً لمشاكلِها الاجتماعيّةِ والسياسيةِ والاقتصاديةِ إلا في الإسلام »[٧].

وفي القرآنِ أيضا « المنهجُ الذي يُعطي الجوابَ الصحيحَ عن كل مسألةٍ، ويَحكُمُ بالحقِ في كلِ مشكلة ... المنهجُ الذي لا مُنقِذَ غيرُه للناس ممّا هم فيه من شقوةٍ وعذابٍ وحَيرةٍ

---

[١] محمد جواد مغنية، الإسلام بنظرة عصرية، ص ٣٨ ـ ٣٩.
[٢] نفس المرجع، ص ٤٣.
[٣] الشيخ صبحي الصالح، الإسلام والمجتمع العصري، ص ١٨٨ و ١٨٩.
[٤] أنور الجندي، الإسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ٢٥٧.
[٥] الشيخ صبحي الصالح، الإسلام والمجتمع العصري، ص ١٦١.
[٦] محمد جواد مغنية، الإسلام بنظرة عصرية، ص ٤٣.
[٧] محمد فريد وجدى، المستقبل للإسلام، ص ١٢٦.

واضطراب »[1]. وفي كل أمرٍ من أمور الدنيا والناس تجدُ الحلَّ لمعضلتهِ في القرآن والإسلام: « لا حلَّ الاّ بالإسلامِ الذي يُعَبِّدُ الطريق في كلِ شيء. ويكونُ بوسعهِ أن يوفّرَ لنا المخرجَ إلى حدٍّ بعيد »[2].

وفي القرآن أيضًا « دينٌ جارَى التطوّرَ في كل زمانٍ ومكان ... ولم تقفْ أمامَه مشكلةٌ من المشكلات ... دينٌ لا زالتْ أصولُه ودعواتُه حلمَ البشريةِ بعدَما وصلتْ إليه من تطوّرٍ وتقدّمٍ وحضارة ... دينٌ وضَع أصولاً خالدةً لإصلاحِ جميعِ مجالاتِ الحياةِ ... لم يقفِ الإسلامُ ... حائلاً أمامَ أيّةِ مشكلةٍ من مشكلاتِ الحياة، في كل عصرٍ وكل بيئة. بل وَجَدَ الحلولَ العادلةَ لكلِ ما جدَّ وما يَجِدّ على سطحِ الأرض من جديد ... حلّ جميعَ العصبياتِ وأبطَلَها، وكلَ المشكلاتِ وأزالَها، وجميعَ العِقَدِ النفسيّةِ والروحيّةِ عند جميعِ الناس ... قابلَ الإسلامُ آلافَ الدعواتِ والمبادئِ والأفكارِ الجديدةِ، ومع ذلك لم تستطعْ أحداها أن تجاريَهُ في حيويتهِ، وبساطتهِ، ومثاليتهِ، وعِظَمِ مبادئهِ وأصولهِ ... »[3].

كلُ إنسان، مهما كانتْ درجةُ وعيهِ ونضجهِ، وإلى أيّ معتقدٍ أو مذهبٍ أو إيمانٍ يَنتمي، يجدُ في الإسلام « نِظامًا من القيمِ الأخلاقيّةِ والشرائعِ المدنيةِ التي تعطيهِ أجوبَةً مفصّلَةً لما يعترضُه من مشكلاتِ الحياةِ اليوميّة »[4]. و « لا ريبَ أن الدينَ الإسلامي خاتم أديانِ العالم العالم كفيلٌ بكلِ ما يحدثُ إلى يوم القيامة »[5]. بل « منذ بزغَ فجرُ الإسلام إلى اليوم ... وإلى ما بعدِ اليوم لم يُقْضَ أمرٌ من أمورِ هذا الكوكب دون أن يكونَ للإسلامِ فيه أثرٌ... »[6].

ونستطيعُ القولَ أن « أيَّ استكشافٍ يصلُ إليه العقلُ البشري فهو انتصارٌ لدينِ محمد والقرآن. وأيَّ عملٍ ينفَعُ الناسَ بجهةٍ من الجهاتِ فهو من هذا الدينِ في الصميم ... وأيَّ إنسانٍ يَتْرُكُ أَثَرًا مفيدًا لأخيهِ الإنسانِ فانه يلتقي بعَمَلِهِ هذا مع دينِ الله ... »[7].

وبالنتيجةِ، وبفضلِ القرآن، كانَ الإسلامُ « ثورةً لم تشهدْها الإنسانيةُ من قَبل ولا من بَعد، وإصلاحًا لم يكن يحلَمُ بهِ بشرٌ، ولا زلنَا حتى اليوم لا نستطيعُ أن نصِلَ إلى مداهُ الكبير... ثم استمرَ في مَدّهِ العظيمِ وانضوَى تحتَ لوائهِ الملايين... مستبشرين بعهدِ الحريةِ

---

[1] محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ص ٣٢١.
[2] الدكتور قهر الدين يونس، النظام الاقتصادي في الإسلام، في كتاب « الإسلام والمعضلات الاجتماعية الحديثة » ، ص ١٢٨.
[3] الدكتور محمد خفاجي، الإسلام ونظريته الاقتصادية، ص ١١.
[4] نعيم عطيّة، عن أنور الجندي، الإسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ١٩٦.
[5] محمد يوسف البنوري، موقف التشريع الإسلامي من الاجتهاد ومنصب العقل في الدين، في « الإسلام والتحدي الحضاري » ، ص ٧٣.
[6] أنور الجندي، الإسلام على مشارف القرن الخامس عشر، ص ٣.
[7] محمد جواد مغنية، الإسلام بنظرة عصرية، ص ١٣ ـ ١٤.

والإخاءِ والتعاونِ والعدالةِ والمساواةِ والرفاهيةِ لبني البشرِ جميعًا، وعاملين على تأثيلِ حضارةٍ ومدنيةٍ جديدة لم تشهدْها البشريةُ من قبل »[١].

وفي رأي الدكتور الشيخ صبحي الصالح « ان الإسلامَ ... أقوى عامل ثوري يُخْرِجْ المجتمعَ العصري من الرتابة والجمود، بما يستطيعُ تقديمَه من الحلولِ في سبيلِ الإصلاحِ العالمي المنشود ... وقد انطوتْ تعاليمُه الصريحة على مبادئَ واضحةٍ كفيلةٍ، إذا ما طُبِّقتْ، بإحداثِ ثورةٍ شاملةٍ في ميادينِ الاجتماعِ والاقتصادِ ... »[٢]. وكل ما في العالم من مذاهب معاصرة، « لقد سبقَ الإسلامُ هاتيك المذاهبَ في هذا المجالِ، بعدّة قرونٍ وأجيال »[٣].

بل « ان كلَ الدلائلِ تشيرُ إشارةً حاسِمةً إلى قدرةِ الشريعةِ الإسلاميةِ على وضع ما سمّيتُه بالصياغةِ المرنةِ والحلولِ الذكيّة لكل ما يحتاجُ البشرُ إليه في يومنا هذا »[٤]. وبالعموم ان الإسلامَ هو « طريقُ حقيقةٍ وعقيدةٍ وشريعةٍ وحضارةٍ وعلمٍ وفلسفة »[٥].

٧ ــ كلُ الاطمئنانِ في القرآن :

« في الإسلام ــ وطبعا في القرآن ــ تجدُ الإنسانيةُ القلِقَةُ طمأنينَتَها وهدايَتها »[٦]. هذه الطمأنينةُ هي نفسُها التي أنعمَ اللهُ بها على رسولهِ. وهذا القرآن « ما جعلَه اللهُ إلاّ بُشرى لكم ولتطمئنّ قلوبُكم به »[٧]. ونحن بالقرآنِ، ومع الرسولِ، على سَكِينَةٍ من عندِ الرب العلي: لقد « أنزلَ اللهُ سكينَتَه على رسولهِ وعلى المؤمنين »[٨].

و « الطمأنينةُ خُلُقَ من أخلاق القرآن الكريم، تحدّث عنها في أكثر من موطِنٍ، فقالَ في سورةِ البقرة : « قال : أولمْ تؤمن ؟ قال : بلى. ولكن ليطمئنَّ قلبي »[٩]. وقال في سورةِ

---

[١] الدكتور محمد خفاجي، الإسلام ونظريته الاقتصادية، ٩ ـ ١٠.
[٢] الدكتور الشيخ صبحي الصالح، الإسلام والمجتمع العصري، ص ٩ و ١٢.
[٣] نفس المرجع، ص ٢١.
[٤] نفس المرجع، ص ٢٤.
[٥] حسن صعب، الإسلام تجاه تحديات الحياة العصرية، ص ٤١.
[٦] أحمد عبد الجواد الدومي، الإسلام منهاج وسلوك، ص ٨.
[٧] القرآن : ٣ / ١٢٦، انظر ٨ / ١٠.
[٨] ٩ / ٢٦، ٤٨ / ٢٦، انظر : ٩ / ٤٠، ٤٨ / ٤ و ١٨.
[٩] ٢ / ٢٦٠.

الرعد : « الذينَ آمنوا وتطمئنُّ قلوبهُم بذكرِ الله، ألا بذكرِ اللهِ تطمئنُّ القلوب »[1]. وقال في سورة الفجرِ :« يا أيّتها النفسُ المطمئِنّةُ ارجِعي إلى ربكِ راضيةً مرضية »[2].. الخ »[3].

ثم إن « القرآن الكريم هو أصدقُ رائد إلى هذا الإيمان، وهو أقوى قاطع لذيل الشكِ والريبِ، ومن هنا جاء قولُ الله تبارك وتعالى : « الذين آمنوا وتطمئِنُّ قلوبُهم ... » ، لأنَ هؤلاءِ إذا ذَكَروا ربَّهم، وقرأوا كلامَه وتدبّروا مغزَاه، خشعتْ قلوبُهم واطمأنّت »[4].

وقد عبّرَ المسلمون المؤمنون عن هاتين الفضيلتين : الطمأنينة والسكينة خيرَ تعبير في جميعِ ما وضعوا من كتبٍ ومقالات، وفي جميعِ حياتهم الإيمانية المستنيرةِ بالقرآنِ وسيرةِ النبي؛ لقد وجدُوا، في كتابِ الله، حلاً لكلِ مشكلة. ومنهجًا لكلِ علم، وشرْعًا لكلِ شريعة، ومرجعًا لكلِ معرفة، وأساسًا لكل خيرٍ وصلاح، ونهجًا مستقيما لكلِ رأي، وقاعدةً متينةً لكل عقيدة، واستقامةً لكل صراط، وهدىً لكل شريد، وموئِلاً لكلِ تائه، ومحجةً بيضاءَ لكلِ ضالّ، وخلاصًا للعالمين.

فـ« في الإسلام فقد يَجِدُ العقلُ ما يوسعُ أفقَه ويرشدُه » إلى طريقِه السويّة ... وفي الإسلام يَجدُ الفكرُ المشلولُ النورَ الباعث ... وفي الإسلام تجدُ العواطفُ المسعورةُ بالشهوةِ ما يهذِّبُ غرائزَها ويسمو بها إلى المثاليةِ الممكنة ... ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ... »[5].

ليس بعد هذه الطمأنينة في قلب المسلم أو عقله أيُّ قلق أو تمزّق. فهو مطمئِنُّ البالِ والنفسِ والعاطفةِ والفكر. انّه على يقينٍ من ربّه وإيمانِه بربّه، لأن كتابَه هو « الحقّ اليقين »[6]. ولئن كان في قلبِ المسلم من قلقٍ فبسببِ بُعْدِه عن كتابِ الله : « إن أزمةَ القلق التي يعانيها المثقفُ المسلمُ اليومَ انّما تعودُ إلى أصلٍ واحدٍ ومصدرٍ واحدٍ، وهو أنّه تركَ مقوّماته الأساسية وقيمَه ... ولو أنّه التقَى بالفكرِ الإسلامي ... لما وقعَ في مثل هذا التمزّق أو هذه الأزمة »[7].

وعندما يكون « الإسلامُ كلهُ حقائق »[8]، وعندما يؤمنُ المسلم « انّ الإسلامَ صُنْعُ الله الذي أتقنَ كل شيء »[1]، لا بدّ ان يطمئنَ المسلمُ ويرتاحَ من البحثِ والتفتيشِ والمعاناةِ والتعبِ

---

[1] ١٣ / ٢٨.
[2] ٨٩ / ٢٧.
[3] الدكتور أحمد الشرباصي، موسوعة أخلاق القرآن، فصل « الطمأنينة » الجزء الأول، ص ٧٩.
[4] نفس المرجع، ص ٨٠.
[5] أحمد عبد الجواد الدومي، الإسلام منهاج وسلوك، ص ٨.
[6] القرآن : ٦٩ / ٥١.
[7] أنور الجندي، الإسلام والدعوات الهدّامة، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.
[8] محمد الخضر حسين، المدينة الفاضلة في الإسلام، في كتاب « الإسلام والتحدّي الحضاري » ، ص ٢٩.

والتفكيرِ المضني والحياة الصاخبةِ والقلق على اللهِ والخوفِ من مصيرهِ وسعادتهِ ان كان من الصالحين. « فالمستقبلُ للإسلام وإنْ جهلَ ذلك الجاهلون، أو تجاهَله المتعصّبون »[٢]. ولنفترضِ القرآنَ مجرَّدًا من كل قداسةٍ دينية، ثم لننظرْ إليه كمصدرٍ تاريخي بحت. فماذا نجد ؟ نجد أنّنا لا نملكُ كتابا آخر، ولا أثرا تاريخياً آخر في تاريخِ البشرية كلّها، توافرتْ له أسبابُ التحقيقَ العلمي البحتة، كما توافرت لهذا الكتاب »[٣]. ومجرّد افتراضِ القرآن كلاً ما بشريًا يوقِعُ البشرَ في حيرةٍ واضطراب ما بعدَه حيرة ولا اضطراب. من هنا إيمانُ المسلمينِ بطمأنينةِ النفسِ والقلبِ والعقل. وفي هذا يكمن سرُّ اعجازِ القرآن وسرُّ معجزته.

٨ ــ القرآنُ معجِزَةُ المعجزَات :

لا شكَّ أنّنا مع القرآنِ أمامَ معجزة، بل أمامَ معجزةِ المعجزات. ونحن في القرآنِ نمسكُ بالحقيقةِ كلِ الحقيقة، ونعرف الله بأسمائهِ التسعة والتسعين. ونحصلُ على العلمِ والمعرفةِ كلِ العلم وكلِ المعرفةِ. وهل نعجبُ بعدُ من « معجزةِ المعجزات » انِ احتوتْ على علومِ الدنيا والآخرة، واحتوتْ على أسرار علومِ الأرضِ والسماء، وحملت في دفّتيها نُظُمَ علاقاتِ البشر مع بعضِهم بعضا ؟

أليسَ من حقّ يوسف مروّة أن يجدَ « العلومَ الطبيعية في القرآن »[٤] ؟ ومن حق أحمد محمود سليمان أن يرى بين « القرآن والعلم »[٥] تلازمًا، وفي « القرآن والطبّ » علاجًا[٦]. أليسَ من حق مصطفى محمود أن يجد في « القرآنِ محاولةً لفهم عصرى »[٧]، ولمحمد فريد وجدي أن يرى « الإسلامَ في عصر العلم »[٨] والدكتور صابر طعيمة « الشريعة الإسلاميّة في عصر العلم »[٩]؟ لم يتأخّر القرآن لحظة عن التطوّر العلمي الحاصل والذي سيحصل في مستقبل البشرية، بل هو الذي وضع أسسَ العلم والمعرفة.

---

[١] نفس المرجع، ص ٢٨.
[٢] محمد فريد وجدي، المستقبل للإسلام، ص ٣٧.
[٣] سيّد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ٢٠٥.
[٤] بيروت، سنة ١٩٦٨، ٢٨٢ صفحة.
[٥] دار العودة بيروت سنة ١٩٨٧ ، ١٧٤ ص.
[٦] دار العودة بيروت (بدون تاريخ) ، ١٤٨ ص.
[٧] دار الشروق بيروت سنة ١٩٧٠، ٣٠٤ ص.
[٨] بيروت سنة ١٩٦٧، ٨١٦ ص.
[٩] دار الجيل، بيروت ١٩٧٩، ٢٣٢ ص.

وهل من عَجَبٍ بعد إذا رأينا مع الدكتور الشيخ صبحي الصالح وفَاقـاً وارتباطًا بين « الإسلامِ والمجتمع العصري »[١] ؟ ومع الدكتور رفعت الشرقاوي تحـدّى « الفكـر الـديني (الإسلامي) في مواجهة العصـر »[٢]، ومع الـدكتور مصطفى الرافعي حلـولاً مشتركة بين « الإسلام ومشكلات العصـر »[٣] ، ومع أنـور الجندي اتّفاقـاً بـين « الإسـلام والعـالم المعاصر »[٤]، ومع عشرة من علماء الإسلام قضاءً جذريًا بين الإسلام والمعضلات الاجتماعية الاجتماعية الحديثة »[٥]، ومع الدكتور حسن صعب « الإسلام تجاه تحدّيات الحياة العصرية »[٦] »[٦] ، ومع أبي الأعلى المـودودي « الإسلام في مواجـهة التحديـات المعاصرة »[٧] ، ومـع وحيد الدين خان « الإسلام يتحدّى »[٨]، ومع عبد الكريم الخطيـب الـذي يجـد « التعريـفَ بالإسلام في مواجهة العصر الحديث وتحدّياته »[٩] أحسنَ ما يمكن أن يكون لفهم الإسلام، ومع عشرة علماء من المسلمين يوازون بين « الإسلام والتحدّي الحضاري »[١٠] ، فـإذا بالإسـلام، عندهم، يَعلو ولا يُعلى عليه ؟ !!!

وكم هي الذين رأوا الإسلامَ يُعنَى بكلِ شيء في المجتمع العالمي المعاصـر ؟ فـإذا الدكتور صابر طعيمة يوازِن بين « الإسلام ومشكلات السياسة »[١١] ، وعشرة علماء يـرون بين « الإسلام والأنظمة السياسية »[١٢] تفـوّق النظـامِ الإسلامي، بل تفوّقَ « النظم الإسلامية »[١٣] التي يراها الدكتور صبحي الصالح شاملة لنظريات العالم السياسية. ولهذا يحـقّ لنـا أن نقول مع طه عبد الباقي سرور بـ « دولة القرآن »[١٤] ، ومع الدكتور محمد أحمد خلف الله أن نرى بين « القرآن والدولة »[١٥] صيغةَ الدولةِ الحقيقية التي جاء بها القرآن الكريم.

وإذا أردتَ الموازنةَ بين « القانونِ الروماني والشريعة الإسلاميّة »[١٦] كما جـاء بهـا زهدي يكن، فلا بدّ لك أن تقول مع الدكتور خليل الجرّ بأنّ الوحيَ الإلهي هو وحدَه مصـدرُ

---

[١] دار الآداب بيروت، ١٩٧٧، ٢٧٢ ص.
[٢] بيروت سنة ١٩٧٩، ٤٦٤ ص.
[٣] دار الكتاب بيروت سنة ١٩٧٢، ٣١٤ ص.
[٤] دار الكتاب بيروت سنة ١٩٧٣، ٤٧٠ ص.
[٥] دار الكاتب العربي، بيروت (بدون تاريخ)، ١٤٤ ص.
[٦] دار الآداب بيروت سنة ١٩٦٥، ٢٠٠ ص.
[٧] تراه في سلسلة كتب أبي الأعلى المودودي.
[٨] نفس المرجع.
[٩] دار المعرفة، بيروت سنة ١٩٧٥، ٣٢٨ ص.
[١٠] دار الكاتب العربي، بيروت (بدون تاريخ)، ١٤٤ ص.
[١١] دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤، ٤٤٠ ص.
[١٢] دار الكاتب العربي، بيروت، (بدون تاريخ)، ١٢٨ ص.
[١٣] دار العلم للملايين، ط ٤، سنة ١٩٧٨، ٥٧٦ ص.
[١٤] القاهرة، سنة ١٩٦١، ٢١٢ ص.
[١٥] المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، سنة ١٩٨١ ، ١٦٤ ص.
[١٦] دار يكن للنشر، بيروت ١٩٧٥ ، ١٨٤ ص.

الفقهِ الإسلامي[١]. وقد رأى خمسةٌ من العلماء المختصين الجوابَ على سؤال « هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الإسلامي »[٢]. والنتيجة أن نرى مع رأفت شفيق شنبور أن « دستور الحكم والسلطة في القرآن والشرائع »[٣] لا في أنظمة ماركس ولينين وغيرهما[٤].

وعليه يكون « منهاج الإسلام في الحكم »[٥] أكملَ ما يمكن أن يكون في هذا العالم المضطرب. وكيف لن يكون له ذلك وهو الذي اهتمّ بكل شاردة وواردة في أنظمة البشر ومشكلاتهم! إذ هو الذي يحدّدُ « النظامَ العالي »[٦] ، لأن « المالَ في الإسلام »[٧] هو عصبُ الحياة والدولة. وقد رأى الدكتور خفاجي في « الإسلام ونظريته الاقتصادية »[٨] خيرَ نظرة في في عالم الاقتصاد الذي بسببه يتقاتلُ البشرُ على خيراتِ الأرض. وهذا ما يحدونا إلى قول بأن بين « الإسلام ومتطلباتِ التغيير الاجتماعي »[٩] تفاعلاً ينتصرُ بنتيجتهِ الإسلامُ طبعًا.

ناهيك عن أن أحسنَ صورة لتنظيمِ الأسرةِ والمجتمعِ تراها في الإسلام، فـ « مكانة المرأةِ في الإسلام »[١٠]، كما قال محمد عطية أرفعُ مكانة، وعند أحمد زكي تفاحة تجد « المرأة والإسلام »[١١] يتفّسان هواءَ الحرّية. وإذا ما كان « الطلاق في الإسلام »[١٢] جائزاً فانّه، بنظر مولانا محمّد عليّ « أبغض الحلال عند الله » ، على حدّ قول الرسول. ومع هذا في الإسلام « رَفْعُ الشقاقِ في أحكام الطلاق »[١٣] خيرُ الأحكامِ بنظرِ أحمد أمين الانطاكي. ولئن كان « الزواج في الإسلام »[١٤] خيرَ عقدٍ فيما بين البشر، فانّك لَوَاجِدُ « انحرافَ المسلمين عنه »[١٥]، أو بعضِ المسلمين. لهذا لا بدّ لصلاح الأمور من الرجوعِ إلى القرآن لنجدَ « نظامَ الأسرة في

---

[١] من مقدمة على كتاب المرجع السابق.
[٢] من فهارس الشركة المتحدة للتوزيع.
[٣] المكتبة العصرية، بيروت (بدون تاريخ)، ١٦٣ ص.
[٤] انظر : مصطفى محمود، « الماركسية والإسلام » ، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٥ ، ٨٢ ص. وعبد العزيز البدري، « حكم الإسلام في الاشتراكية » ، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ط ٢ ، ١٩٦٥، ١٧٢ ص. وسيّد قطب، « معركة الإسلام والرأسمالية » ، بيروت ط ٣، ١٩٦٦، ١٢٤ ص.
[٥] محمد أسد، دار العلم للملايين، ١٩٧٨، ١٩٢ ص.
[٦] الدكتور بابللي، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٥ ، ١٧٤ ص.
[٧] محمد مهدي الآصفي، المكتبة الإسلامية بيروت ١٩٧٣، ١٥٦ ص.
[٨] دار الكتاب اللبناني، سنة ١٩٧٣، ١٨٢ ص.
[٩] العلامة الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي، دار الغدير ١٩٨٠.
[١٠] القاهرة، (بدون تاريخ) ١٢٦ ص.
[١١] دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٩، ١٩٢ ص.
[١٢] المكتبة العصرية، (بدون تاريخ) بيروت، ١٥٦ ص.
[١٣] حلب، سنة ١٩٦٦، ٦٠ ص ... وعديدة هي الكتب التي تتكلّم على شأن المرأة ومكانتها واستقلاليتها وأحكام الطلاق والزواج في الإسلام والقرآن. وقد توقفنا عند بعضها وليست هي أهمّها ...
[١٤] مجيد الصيمري، الدار الإسلامية، ١٩٧٩، ١٧٨ ص.
[١٥] عنوان آخر للكتاب السابق.

الشرع الإسلامي »[1] وما يتضمّنهُ من أحوالِ المهر والمتعة والنَسَب والبنوة والحضانة والنفقة ... وما إليه أحسن نظام على وجه الأرض.

وإذا تخطّينا هذه الأحوال الشخصية فإنّنا نجد أن أضمن « الديموقراطية في الإسلام »[2] ، وان القرآن يدعو إلى « إسلام الحرية لا إسلام العبودية »[3] وإلى « العدالة العدالة الاجتماعية في الإسلام »[4] كخير عدالة في العالم. واننّا نجد أن بين « الإسلام والتقدم الاجتماعي »[5] تكاملاً، ولن نعودَ نرى بذلك أيةَ مشكلةٍ فيما بين « الإسلام والمعضلات الاجتماعية الحديثة »[6]. بل نجد « الإنسانَ في القرآن الكريم »[7] في أجلى صورة له، وبين « « القرآنِ وقضايا الإنسان » [(١٥٤)] حلولاً جذرية. بهذا لن يكون بين « الإسلام ومكارم الأخلاق »[8] ، أو بين « الإسلام والحضارة الإنسانية »[9] الاّ دعوةٌ متبادَلةٌ إلى الخيرِ والسعادة.

والسعادة.

وبعد كل هذا ألا يكون « الإسلام دعوة عالمية »[10] ؟ أو ألا يكون « المستقبل للإسلام »[11] ؟ علماً بأنّ الحضارةَ هي « حضارة الإسلام »[12] ، و « الإسلامُ هو روح المدنية »[13]. والعالم كله مدين إلى « روح الإسلام »[14] ، وكل ما في العالم لا شأن له إن لم يأخذ من « الفكر الإسلامي المعاصر »[15] حظَّه وغذاءه . والحقّ يُقال لولا وجود « الفلسفة القرآنيّة »[16] أو بالحريّ « فلسفات إسلامية »[17] لما استطعنا أن نرى انتصاراً للإسلام عندما تحصل بين « الإسلام وشبهات الاستعمار »[18] مواجهة ومشادّة، أو عندما يتعرّض « الإسلام والدعوات الهدّامة »[19] إلى مجابهة وصراع. ويوم يحصل ذلك الصراعُ بين الإسلام والعلمانيّة

---

[1] عمر فروخ، ط ٢، سنة ١٩٧٤، المكتبة العصرية بيروت، ١٩٢ ص.
[2] عباس محمود العقاد، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤، ١٧٨ص.
[3] الدكتور حسن صعب، دار العلم للملايين ١٩٧٤، ١٤٤ ص.
[4] سيّد قطب، دار احياء الكتب العربية، ط ٥، ١٩٥٨، ٢٨٠ ص.
[5] الدكتور صابر طعيمة، المكتبة العصرية ط ٢، ١٩٧٣، ٣٤٤ ص.
[6] عشرة من علماء الإسلام، دار الكاتب العربي، ١٤٤ ص.
[7] الدكتورة عائشة بنت الشاطئ، دار العلم للملايين ١٩٧٢، ٤٤٨ ص.
[8] عشرة علماء من الإسلام، دار الكتاب العربي، ١٢٠ ص.
[9] عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٨٨ ص.
[10] عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت، ٢١٦ ص.
[11] محمد فريد وجدي، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٢٤ ص.
[12] صلاح الدين خواد بخش، دار الثقافة بيروت ١٩٧١ ، ١٩٦ ص.
[13] الشيخ مصطفى الغلاييني، المكتبة العصرية، بيروت ٢٨٠ ص.
[14] عفيف عبد الفتاح طباره، « روح الدين الإسلامي » دار العلم للملايين ... سيد أمير علي، دار العلم للملايين ط ٤ ، ١٩٧٧ ، ٤٤٨ ص.
[15] غازي التوبة، دار القلم بيروت، ط ٣ ، ١٩٧٧ ، ٢٢٤ ص
[16] عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٢ ص.
[17] محمد جواد مغنية، دار التعارف بيروت ١٩٧٨ ، ٩٦٨ ص.
[18] ألسيد أمير محمد الكاظمي القزويني، التوجيه الإسلامي كويت، ١١٦ ص.
[19] أنور الجندي، الموسوعة الإسلامية العربية ٣ ، ١٩٧٤ ، ٢٩٦ ص.

مثلا، لا بدّ من « سقوط العلمانيّة »[١] لا محالة. بهذا يتفاعل « الإسلام وحركة التاريخ »[٢] ليستمرَّ الإسلامُ في القرن العشرين »[٣]، أو ليطلّ « الإسلام على مشارف القرن الخامس عشر »[٤] ويتعدّاه.

والفضل في وثبة الإسلام هذه نحو المستقبل يعود إلى « الشخصيّة الإسلاميّة »[٥] الفذّة، الفذّة، وإلى « أسلوب الدعوة في القرآن »[٦] والحظّ الأكبر لانتشار الدعوة إلى « الجهاد الأكبر »[٧] لأن « الجهاد في سبيل الله »[٨] هو «... أعلى مراحل تطوّر الكفاح... »[٩]. بهذا يكون أعظم « دفاع عن الإسلام »[١٠].

وهل لك بعد أن تسأل : « كيف انتشر الإسلام »[١١] ؟ أو كيف « الطريق إلى الإسلام »[١٢] ؟ أو متى يكون « الإسلام في فجر عظمته »[١٣] ؟ ليس لك، بعد هذا كلّه، الا أن تعلن وتقول : الـ« إسلام رائد »[١٤]، مع السعي الحثيث « نحو إسلام سليم »[١٥]. وعليك أن تقول، كما قال أرخميدس، لقد وجدتُ « هذا الدين »[١٦] وجدتُ فيه « الأدلّة المطمئنّة »[١٧]. لقد وجدتُ « التوازن في الإسلام » [١٨]، ووجدتُ « العقلَ والإيمان في الإسلام »[١٩]. بهذا أفهم « ماذا يعني انتمائي للإسلام »[٢٠].

[١] أنور الجندي، الموسوعة الإسلامية العربية ٢ ، ١٩٧٣ ، ٢٠٠ ص.
[٢] أنور الجندي، رقم ٥ من الموسوعة العربية الإسلامية، ١٩٨٠ ، ٥٠٦.
[٣] عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية بيروت، ١٤٤ ص.
[٤] أنور الجندي، الموسوعة العربية الإسلامية، رقم ١ ، ٣٤٤ ص.
[٥] الدكتورة عائشة بنت الشاطئ، دار العلم للملايين، ط ٢ ، ١٩٧٧ ...
[٦] محمد حسين فضل الله، دار الزهراء، بيروت ط ٣ ، ١٩٧٩ ، ١٧٦ ص.
[٧] الامام الخميني، الدار الإسلامية، بيروت، ٨٢ ص.
[٨] أبو الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، ٥٦ ص.
[٩] جلال الدين فارسي، بدون دار نشر، ١٩٧٨ ، ص ١٤٧.
[١٠] لورا فيشيا فاغلي، دار العلم للملايين، ط ٤ ، ١٩٧٩ ، ١٣٥ ص.
[١١] مؤيد الكيلاني، دار لكاتب العربي، ٢٨٨ ص.
[١٢] محمد أسد، دار العلم للملايين، ط ٥ ، ١٩٧٧ ، ٤٠٨ ص.
[١٣] موريس لومبار، ترجمة حسين العودات، دمشق ١٩٧٩ ، ٢٨٠ ص.
[١٤] عبد الله كنون، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٩ ، ١١٢ ص.
[١٥] الشيخ أحمد مغنية، المكتبة الأدبية، ١٩٨٠ ، ٢٧٢ ص.
[١٦] سيّد قطب، مكتبة وهبه، عبدين، ط ٤ ، بدون تاريخ، ٩٦ ص.
[١٧] الشيخ عبد الله مصطفى العريس، مكتبة الحياة ١٩٨٠ ، ١٦٠ ص.
[١٨] محمد علي التسخيري، الدار الإسلامية، ١٩٧٩ ، ١٧٠ ص.
[١٩] الدكتور صابر طعيمة، دار الجيل، ١٩٧٩ ، ١٩٠ ص.
[٢٠] فتحي يكن، مؤسسة الرسالة، ١٨٤ ص.

٩ ــ هذا الكتاب :

بعدَ هذا الغيضِ من فيض الكتبِ الإسلاميةِ الحديثةِ الرائجةِ في أسواق العلم والـدين، والباحثةِ في القرآن الكريم، والمطمئنّةِ إلى تعاليمه ووحيه الإلهـي، والمعبّـرةِ عـن إيمـان المسلمين الطيّبين، والطريفةِ كل الطرافةِ بمواضيعِها وأسلوبِها ويقينِها، والكافلةِ سعادةَ النـاسِ في الدنيا والآخرة، والمتّفقةِ الأساليب والأهداف فيما بينهما، والمتعلّقةِ بكلام الله الذي اسـتمرّ يتساقط على الرسول طيلة ثلاث وعشرين سنة، والمستريحةِ في أحضان جبريل ساعي البريد النبويّ الأمين، والمرتاحةِ إلى عصمةِ كَتَبَةِ الوحي وحفّاظِه المرضيين، والكثيـرةِ الاطمئنـانِ والارتياح إلى تحطيم الشكّ باليقين، والعظيمةِ التأكيد في كل معتقدٍ وتشريعٍ وتعليم، المزحزحةِ الحيرةِ والقلق والريبة عن عقول العالمين ...

بعد هذا كلّهِ لا بدّ من الاستراحة. الاستراحةِ في أحضانِ الإسلام، في الإيمان الذي لا يدخُلُه شكّ، وفي اليقينِ الذي لا يخامِرُه أيّ ظنٍّ، و « انّ الظنَّ لا يُغني من الحقِّ شيئًا »[١]، بل انّ « الظانِّين باللهِ ظنَّ السوء عليهم دائرةُ السوء[٢]. هـذا اليقينُ هو من كتـابِ الله « الحـقّ اليقين »[٣] ، الذي فيه عصمةُ الله وأنبيائهِ المرسلين، والذي يضمنُ للإنسـانِ العلـمَ والمعرفـةَ والحظَ السعيد، أيُّ حظٍ هو للمسلمِ المؤمنِ الذي أنعمَ اللهُ عليه بعَضلاتٍ بهـا يَـربطُ الأرضَ المائِجَةَ بِعُمُدِ السماء، ويُغَرِّزُ للجبالِ في الأرضِ أوتادًا[٤] وينحتُ في صخورِها بيوتًا[٥].

مرجعنا في هذا اليقين إلى الله، الذي أرسلَ جبريلَ يَسعى بينه وبين النبيّ ينزّلُ عليـه القرآنَ من « اللوحِ المحفوظ »[٦] في « الأفق الأعلى »[٧] ، ويقرأ له، ويعلّمه ايّاه. ولم يتركْ لنا، لنا، لا الرسولُ الالهي ولا النبيُّ الرسول، آيةً بغيرِ ترتيب، أو حرفًا بدون عصمة، أو كلمـةً تحتاجُ إلى تأويل. ولم يعرفْ جبريلُ راحةً بَعْدُ، بل لم يذقْ طعمَ الراحةِ حتى انتهى من عملـهِ الشاق في جَمْعِ القرآن وحفظهِ وبيانهِ، وقد طمأننا على لسانِ الله عزّ وجلّ بقولهِ : « إنّا علينا جمعَه، وقرآنَه ... ثم انّ علينا بيانَه »[٨].

---

[١] القرآن : ١٠ / ٣٦ ، ٥٣ / ٢٨.
[٢] ٤٨ / ٦.
[٣] ٥٦ / ٩٥ ، ٦٩ / ٥١.
[٤] ٧٨ / ٢٠.
[٥] ٧ / ٧٤ ، ١٥ / ٨٢ ، ١٦ / ٨١.
[٦] ٨٥ / ٢٢.
[٧] ٥٣ / ٧ ، انظر : ٨١ / ٢٣.
[٨] ٧٥ / ١٧ ـ ١٩.

ثم أكملَ الملاكُ الرسولُ السعيَ الحثيثَ فيما بينَ الله والنبي : فكما كانَ مسؤولا عن تنزيلِ الوحيِ والقرآن، فسيظلُّ هكذا أيضًا مسؤولاً عن حفظهِ وتدوينهِ وتسليمهِ إلى العَالَمِ بدونِ عِوَجٍ فيهِ أو اختلاف. جاءَ على لسانِ الله سبحانه: « إنَّا نزّلنا الذكَر. وإنّا له لَحَافِظون »[1]. من أجلِ ذلك لن تجدَ في القرآنِ الاّ الطمأنينَة واليقينَ، ولن تجدَ فيه أيَّ محلٍّ للزيادةِ أو للنقصانِ أو للتلحينِ أو للتصحيفِ أو للتحريفِ أو ما أشبه ذلك.

واستمرَّ جبريلُ في مهمّتهِ. فبعدَ أن طارتْ نفسُ النبي إلى ربِّها مطمئنّةً، ضاعفَ ملاكُ الوحيِ نشاطَه، فحفَظ كَتَبَة القرآنِ. من أميالِ الهوى، وحفظَ سُوَرَهُ وآياتِهِ من التَلَفِ والضياعِ، وحفظَ حفَّاظَه من النسيانِ، وحفظَ وَسَائِلَ الكتابةِ من الجلودِ والاكتافِ والعِظامِ والأخشابِ من الحريق، وعَصَمَ القلمَ من نَزَقِ أصحابهِ واختلافاتِهم السياسيّة ... وفوقَ كلِ هذا، ما يزالُ جبريلُ إلى اليوم قَيِّمًا على رسالةِ السماءِ ومترصِّدًا لكلِ مَن يُخامِرُه ظَنٌّ أو شَكٌّ في كلامِ الله. انّها معجزةٌ مستمِرّةٌ ألقاهَا اللهُ بين يَدَيهِ وفي عُنُقِهِ.

١٠ ــ هل لغيرِ اللهِ في القرآن نصيب ؟

القرآن معجزة. وأيّةُ معجزة!؟ في كلِ شيء هو معجزة. ولن نقفَ، في هذا البحث، الاّ عندَ معجزةِ نشأتِه وتدوينهِ وحفظهِ. وما عدا ذلك يدخلُ في نطاقِ معجزاتِ النبوةِ والعقيدةِ، ولا شأنَ لنا بها الآن، لأنَّ كلَ ما في الدنيا من خيرٍ وصلاحٍ وعلم وقوانينَ هو، في القرآنِ والإسلامِ، على أَتمِّه. وكلَّ ما في الكونِ من فضيلةٍ لا يصلُ إلى عشْرِ معْشَارِ فضيلةٍ من فضائلِ القرآن.

وفيما نحنُ نرى اللهَ وراءَ القرآن، يستحثُّنا القرآنُ نفسُه لرؤيةِ غيرِ الله. وفيما يدعونا المسلمون إلى سؤالِ اللهِ عن عصمةِ كِتَابهِ، والاكتفاءِ بشَهَادتِه، والاتّكالِ عليه، يدعونا القرآنُ نفسُه إلى سؤالِ أهلِ الذكرِ، والاحتكامِ إليهم، والاستشهادِ بهم. ففي قولِ القرآنِ للمسلمين: « اسألوا أهلَ الذكرِ إنْ كنتم لا تعلمون »[2] عبرةً خطيرةً للغاية! وأخطرُ منها حثُّ القرآنِ لمحمّد نفسِه إلى سؤالِ أهلِ الكتابِ والالتجاءِ إليهم ليرفعَ عن نفسِه الشكَّ والريبة. يقول له: « إن كنتَ في شكٍّ ممّا أنزلْنَا إليكَ فاسألِ الذينَ يَقرأون الكتابَ مِن قَبْلِكَ »[3].

---

[1] ١٥ / ٩.
[2] ١٦ / ٤٣ ، ٢١ / ٧.
[3] ١٠ / ١٠.

ويبدو أنّ محمّدًا كان يعرفُ تمامَ المعرفةِ بأنَّ الذينَ يَشهَدونَ على صحّةِ رسالتهِ هم أهلُ الكتاب. وكان يكتفي بشهادتِهم لاقناعِ تابِعيه. يقول : « قلْ : كفى باللهِ شهيدًا بيني وبينَكم ومَنْ عِندَه علمُ الكتاب »[1]. وأخطرُ من كلِ شيءٍ آخر احتكامُ محمّدٍ إلى أهلِ الإنجيل، لأنّهم يَحْكمون بما لديهم على ما في القرآن : « وَلْيَحْكُمْ أهلُ الإنجيلِ بما أَنزلَ اللهُ فيه » (أي في القرآن)[2]. فهل لأهلِ الإنجيلِ حقٌّ يستحقونه ؟

انّنا إذا كنّا نتجرّأُ على مثلِ هذا السؤالِ فلأنَّ القرآنَ يدعونا إليه. ولكنَّ وراءَ هذا السؤالِ سَيْلاً من الأسئلة، وهي تصدرُ عنه وتتفرّعُ منه. وليستْ دونَه أهمّيّةً وخطورة. مَنْ هم « أهلُ الذكرِ » ، و « أهلُ الكتاب » ، و « أهلُ الإنجيل » ؟ مَنْ هم الذين « يقرأون الكتابَ مِن قَبْلِ » محمد ؟ وهل للقرآنِ مصدرٌ غيرُ الله ؟ وهل تَمَّ نَقْلُ القرآنِ على يدِ غير يدِ الله ؟ وهل هذا يَعني أنَّ « حِفْظَ » القرآنِ، و « جَمْعَهُ » ، و « قِرَاءَتَهُ » ، و « بَيَانَهُ » ، وتدوينَهُ، وانتشارَهُ، واستمرارَهُ، تمّتْ على يدِ جبريلٍ بشريٍّ اختلسَ دورَ جبريلَ الإلهي ؟

انّها أسئلةٌ تطالُ حَرَمَ القرآنِ وقدْسَ أقداسِ المسلمين. ولكنْ، قبلَ الدخولِ في مَتَاهَاتِها والغوصِ فيها، لا بدَّ من طرحِ أسئلةٍ أخرى تخطرُ على البال، وهي أيضًا من وحيِ سَمَاحَةِ القرآنِ وَسَعَةِ صَدْرِه :

أين أنزلَ جبريلُ القرآن ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ وعلى مَنْ أنزلَه ؟ وأينَ كان قبلَ تنزيلِهِ ؟ وأينَ كَتَبَهُ ؟ وعلى أيُّ لوحٍ لؤلؤيٍّ دَوَّنَ كلامَ الله ؟ ولمَنْ أعطى شرفَ حفظهِ وكتابتهِ وتدوينِهِ؟ ثم هلِ استطاعَ « النبيُ الأميُّ » الذي يجهلُ القراءةَ والكتابةَ حفظَه كلَّه ؟ هل عُصِمَ مِن آفةِ النسيان ؟ هل وَجَدَ محمّدٌ لكلِ الآياتِ الأزليّةِ مناسباتٍ في التاريخِ ؟ هل عُصِمَ كَتَبَةُ الوحيِ أيضًا من أهوائِهم ليدوّنُوا بموضوعيّةٍ كلَ آياتِ القرآن ؟ هل نُزِعُوا كلُّهم من أنانيّتِهم وأميالِهم السياسيّة ؟ هل كانوا فيما دَوَّنُوا على اتّفاقٍ وعصمة ؟؟ لئنْ كانَ كذلك ــ وهم بنظرِ المسلمين كذلك ــ فهم، واللهِ ، أكثرُ عصمةً مِنَ الرسولِ نفسِه. وَبِتُّ لا أعرفُ كمْ بارَكَ اللهُ هذه الأمّةَ لكي يكونَ فيها أكثرُ من خمسةٍ وأربعينَ رجلاً يتمتّعونَ بالتجرّدِ والصدقِ والأمانةِ والإيمانِ والتسامي والعصمةِ والشرفِ المجيد[3].

ثم بعد، هل لِمكّةَ في القرآنِ يَد ؟ أم للمدينةِ يد ؟ وهل كانت اليدانِ على اتّفاق ؟ أم بين مَكةَ والمدينةِ جَرى تزويرُ وتحريفٌ وتصحيف ؟ هل كان أبو بكر الصديق وعمرُ بن الخطّابِ وعثمانُ بن عفّان وعليٌّ بن أبي طالب على اتّفاقٍ وصراطٍ قويمٍ حتى يُجْمِعُوا على وَحْدَةِ كلامِ

---

[1] ١٣ / ٤٣.

[2] ٥ / ٤٧.

[3] انظر في عدد كتبة الوحي : الاستيعاب ١ / ٣٠، وكتاب الوزراء والكتّاب ١٢، والعقد الفريد ٤ / ٢٤٦، وحاشية على الاصابة الخ ...

اللهِ ويَختلفوا في ما عدا ذلك ؟ وهل كانتْ أمّهاتُ المؤمنين، حَفْصَةُ وعَائِشَة وأمُ سَلْمة، على شيءٍ من الاتّفاق حتى لا يَخْتَلِفْنَ في روايةِ القرآن ؟ هل كانَ القرآنُ واحِدًا، واستمرَّ واحِدًا، ووَصَلَ إلينا واحدًا موحَّدًا ؟ فما دورُ مصاحفِ الصحابةِ اذن ؟ لماذا كانَ لعليٍّ مِصْحَف ؟ ولابنِ مسعود مصحف ؟ ولأُبَيّ ابن كَعْب مصحف ؟ ولسَالِم مَوْلَى حُذَيْفَة مصحف ؟ ولابنِ العبَّاسِ مصحف ؟ ولِزَيْد بن ثابت مصحف ؟ ولعائشة مصحف ؟ ولحَفْصَة مصحف ؟ ولأبِي موسى الأشْعرِي مصحف ؟ .. ولماذا قرّر أبو بكر جَمْعَ المصاحف ؟ ولماذا اختارَ مصحف زيدِ بن ثابت ؟ ولماذا جَمَعَ عثمانُ المصاحف ؟ ولماذا اختارَ مِصْحَفَ أبي بكر ؟ ولماذا أحرقَ سائرَ المصاحف ؟ وفيها كلِّها صورةُ المُعَلِّمَ المحبوبِ وكلامُ اللهِ الذي لا عِوَج فيه ولا اختلاف، وقد أقسَمَ اللهُ بـ« إنَّا لَهُ لَحَافظون » ؟؟؟

وحدَه القرآن بقيَ لنا من عهدِ النبي، وما كَتَبَهُ المُحَدِّثون وأصحابُ السِيَرِ والأخبارِ كَتَبُوهُ بعدَ مضيِ أكثَر من مائةٍ وخمسةٍ وسبعينَ عامًا على موتِ محمّد : فهل يصدقونَ القولَ فيما كتبوا ؟ هل كان لهم مصادرُ ومراجعُ مِن أيّام النبي والصحابة ؟ أينَ هي ؟ لماذا أُتْلِفَتْ ؟ ولماذا لم تَبْقَ ؟ والمعروفُ أنَّها دُوِّنَتْ ــ بحسبِ رواياتِ أهلِ الأخبارِ ــ على ألواحٍ من حجارةٍ وأكتافٍ من العظامِ، وأخشابٍ من النخيلِ، تَعْصَى على عواملِ الطبيعة! فهل نَقَلَ أهلُ الأخبارِ ما نَقَلُوا بصدقٍ وأَمانةٍ وروحٍ علميّةٍ رصينة ؟ من الصعبِ ذلك، بعدَ هذه المدّةِ من الزمن! والخلافُ فيما بينهم دليل.

ثم أيضًا، ألم تتركِ الفتوحاتُ العربيةُ أيَّ أَثَرٍ في كلامِ الله ؟ أَلَمْ يُضَفْ إلى كلامِ القرآنِ كلامٌ بشريٌّ يُناسبُ الوضعَ السياسي المستجَدّ ؟ أَبَقِيَ نصارَى الشامِ والعراق، مَثَلاً، مع الفاتحينَ كما كانَ نصارى مكّةَ مع محمّد ؟ أَيُعْقَلُ أن يكونَ نصارى « سورةِ التوبة » هم أنفسُهم نَصَارى « سورةِ المائدة » ؟ أَيُعْقَلُ أن يكونَ رهبانُ « التوبةِ » « يأكلونَ أموالَ الناسِ بالباطل »[1] ورهبانُ « المائدةِ » « لا يستكبرون »[2] ؟ وقل الشيءَ نفسَه عن أهلِ الكتابِ بالعموم، وعن الصابئةِ والمجوسِ واليهود، وانظرْ ما كانوا عليه أيّامَ محمّد وما أصبَحوا عليه عهدَ الفتوحاتِ والغزوات ...

كلُّها أسئلةٌ تخطُر على البال. وغيرُها سَيُطْرَحُ في محالِ البحث. وسببُ طَرحِها اليومَ هو ذلك الاطمئنانُ المتحكِمُ بعقولِ « القرآنيين » الذينَ احتجزوا اللهَ في هيكلٍ، لا من حجارةٍ هذه المرّة، بل مِن وَرَق. هؤلاء الذين قَعَدُوا عن البحث، واعتصَمُوا بحَبْلِ الله، واستكنّوا في

---

[1] ٩ / ٣٤.
[2] ٥ / ٨٢.

« ظلالِ القرآن »[1] ، واستراحوا في « دارِ الإسلام » ، ووجدوا كلَ الحقيقةَ في دَفَّتَي كتـــاب، ورأوا فيهِ كلَ العِلمِ والمعرفةِ، ونظروا فيه الحلولَ لجميع مشاكلِ الإنسانِ وأمراضـــهِ وعِقَـــدِهِ النفسيّة ... لهؤلاءِ نقول بكل اخلاص :

هل من شأنِ الدين أن يحلَّ مشاكل ؟ أو أن يتنبَّأَ عن المستقبل ؟ أو أن يحوي في جوفهِ علومَ الأرضِ والسماء ؟ أو أن ينظِّمَ علاقاتِ البشر ؟ أو أن يَسِنَّ شرائعَ وقوانين ؟ أو أن يُعنَى بحقوقِ الإنسان ؟ أو أن ينتمي إلى عضويّةِ الأممِ المتّحدةِ: أو أن يكونَ له على الأرضِ دولة ؟ هل من شأن الدين أن يتحدّى المدنيّةَ المعاصرة، أو أن يكونَ له فلسفاتُ وعقائدُ ونُظُمُ في المالِ والاقتصادِ، وأحكامٌ في ما بينَ الرجلِ وامرأتِهِ ؟ وجهادٌ في سبيلِ فـــرضِ عقيدتـــهِ وتعاليمـــهِ وشرائعِه على الناس ؟ ..

لستُ أخافُ على الله من أن لا يكون « أكبر » ولن أرتعبَ، مثلَ الشيخِ أحمد الوائلي الذي ارتعدتْ فرائصُه لِمجرّدِ ذكرِ لفظةِ « دعوةِ وقوعِ التحريفِ بالقرآن » . قال الشيخ : انّنا في « موضوعِ ــ دعوة وقوع التحريف بالقرآن ــ يجبُ أن نتلمَّسَ طريقَنَا في حَذَرٍ شَـــدِيد. وأُقسِمُ، وأنا أكتبُ هذه الكلمات، أنّ قلبي لا يطاوعني على مجرّدِ سَطْرِ هذا العنوان المذكور. وفيما أعتقدُ أنّ ذلك شعورُ كلِ مسلم يؤمنُ باللهِ ورسولهِ وكتابهِ. انّ مجرّدَ افتراضِ وقوعِ هذا المعنى في القرآنِ الكريم يَعتدِي على أغلى صورةٍ قدسيّةٍ في صميمِ وجْدَانِ المسلم »[2] ... أمّا أنَا فلن أخافَ ولن أرتعِبَ، ولن يضطربَ قلبي لا على الله ولا على نبيّه ولا على كتابه. ومع هذا لن أكونَ أقلَّ إيمانًا من خيرِ المؤمنين.

ومع هذا أيضًا سأستمرّ في البحثِ عن اللهِ وعن كتابهِ ونبيّهِ. ولن يكونَ بحثي في نشأةِ القرآن أبعدَ من الكلامِ على معجزاتِ حفظهِ وتدوينِه. ولم يوفّر اللهُ لكِتابِه كلمـــةً الاّ ومَسَـــحَهَا بعِصْمَتِهِ، ولم يتركْ لنا مَجَالا لِظنٍّ وريبةٍ الاّ وأَحْكَمَهَا بمعجزتهِ. فالوحيُ والتنزيلُ كلاهما عندَ المسلمين معجزة، ووحيُ اللهِ إلى نبيٍّ أمّيٍّ جاهلٍ بالقراءةِ والكتابةِ هو أيضًا معجزة، وحفْـــظُ محمّد للقرآنِ على أمّيته هو أيضًا معجزة، وحفظُ الصحابةِ لهذه المعجزة معجزة، وجَمْعُ السُوَرِ والآياتِ من الرقاعِ وصدورِ الرجال معجزة، وبلاغةُ القرآن معجزة، وما في القرآن من علومٍ اكتشف العالَمُ بعضًا منها ويسعى إلى اكتشاف بعضِها الآخر معجزة، واتيانُ القـــرآنِ بحلـــولِ مشاكلِ المجتمعِ البشريِ بأحسن ما يمكن أن يكون هو الآخر معجزة ...

---

[1] عنوان لتفسير سيّد قطب على القرآن.

[2] « ادّعاء وقوع التحريف في القرآن وموقف الشيعة منه » ، في كتـاب : « القرآن نظرة عصرية جديدة » ، ص ١٣٥.

فأنت ترى أنّنا مع القرآن في عالم المعجزات، في حين أنّنا مع الإسلام على دينِ الفطرة، وأنت ترى أيضًا أنّ اللهَ في القرآنِ تَجَسَّدَ، فيما القرآن يعلن عن الله « ليس كمثله شيء »[1]. وأنت ترى المسلمين أخيراً يَحلّون بآياتِ القرآن كلَ العِقَدِ والمشاكل، فيما الإنسان غَنيٌّ بالعِقَدِ والمشاكل ولو كانَ بالقرآن مؤمناً. هذا الغِنى أكسبَ الإنسانَ بحثًا وحرّيّة وقلقاً، في الوقتِ الذي اكتسبَ المسلمون من القرآنِ « سَكِينَةً » و « طمأنينة » واستراحة. ولكأنّك ترى المسلمين، وهم يقفون عند « مصحفِ عثمان » ، غيرَ جديرين لا بالإسلامِ ولا بالقرآن.

هؤلاء المطمئنّون إلى عالَمِ المعجزاتِ هم في العالَم معجزات. وَمنْ يُزحزِحُ في العالَم إيمانًا مُعجزًا دونَ أن يُطَبِّقَ السماءَ بالأرض! حَسْبُ جبريلَ أن يَلزمَ إكمالَ معجزاتِه لِيَهدِينا الصراطَ المستقيم. ولكنّه يبدو عليه الوهَنَ لكثرةِ ما سَعى! وهل عندّ الله سِواهُ أكثرُ سَعيًا ونَشَاطًا! تبدو لنا أبوابُ السماءِ مُوصَدَة، وليسَ مَنْ يقومُ مُقَامَ رسولِ الوحيِ القديمِ العاجز! ومع هذا سَنَظَلُّ نطرقُ الأبوابَ ساجدِين بَاكِينَ مَعَفّرِي الجبين بالترابِ لعلَّ سامِعًا يَسمع! ولكنْ وراءَ الأبوابِ صمتٌ وهدوء. لعلَّ سكّانَ السماء ضُرِبُوا أيضًا بـ « سَكِينَةٍ » و « طمأنينة » واستراحة!

عدتُ إلى الأرضِ من معراجٍ باتَ لحظة، ووَعيتُ جُنوني في عالَمٍ مجنون. التمستُ من عندِ المطمئنّينَ الطمأنينةَ فلمستُ في نفوسِهم قلقًا أشدَّ من الجنون. ذُهِلْتُ من وضعٍ عجيب، وضعِ عناقِ الجنون للمعجزة، بل وضعِ التزام متناقِضَين في وقتٍ واحدٍ وفي رأسٍ واحد : إيمانٌ وكفر، حرّيةٌ واطمئنان، خيرٌ وشيطان، جبريلٌ وقرآن، بَشَرٌ يَمْشون صَرعَى الجنونِ والمعجزات ...

أمّا كيفَ يُعانِقُ الجنونُ المعجزات فأمرٌ بات لديَّ مضموناً : الساكتُ عن المعجزةِ مجنون، والمرتاحُ إلى جنونهِ هو في معجزةٍ مستمرّة. وأيُّ إلَهٍ يُعْبَدُ في الحَالَين ؟! وها عَنذا بينَ فريقَين : فريقٍ مطمئنٍّ إلى ما لديهِ، ما استطعتُ لطمأنينتهِ عِلاجًا، وفريقٍ قَلِقٍ مجنونٍ لم أتمكّنْ من دَفعِ الكبتِ عنه. أولئك ثرثارون ملأوا الدنيا حقائقَ وحلولاً وكتبًا ودراسات، وهؤلاء صامِتون مكبوتون خائفون عاجِزون دَرَجوا على القلق فأصبحَ القلقُ عندَهم أمرًا مألوفًا ومعهودا. فكلا الفريقينِ مُزعِج : واحدٌ لكثرةِ كلامهِ، والآخر لكبتهِ وصمتهِ. وعندهما يلتقي الجنونُ بالمعجزة ويتعانقان.

---

[1] ٤٢ / ١١.

إنّي فيما أقصد واضح : أمامي معجزة أبغي النفاذَ إلى حَرَمِهَا، وبين يديّ كتبٌ تتحدَّى العِلمَ والمدنيّةَ وكلَّ ما في الأرضِ من عِقَدٍ ومشاكل، وترى فيها كلَ الحلولِ وكــلَ المعرفــةِ، وعلَيَّ واجبُ دفعِ هذا التحدّي، وهذه المواجهةِ الصريحة. في العالَم العربي كُتُــبٌ لــو أردتَ زَرْعَ الصحراءِ جنائنَ وبساتين لَطَالتْ أغصانُ أشجارِها بروجَ السماء. انّها صالحةٌ جِدًّا لمثل هذا النموِّ المطلوب. لقد أعطيتُ نموذجًا واضحًا عنها فيما تقدّم.

وعلى الصامتين، حُبّا برقيِّ العالَم، أن يتدخَّلوا، أن يَخرُجوا مِنَ الكبتِ المُشــين. وإنْ بَقَوا في قلقهم صامتين لشَارَكوا الذينَ هم في راحتِهم مطمئنّون. وهل تسألُني بعدُ لماذا نحنُ في عالَمٍ يَنْدَحِر! أَمَلُ من كل هذا أمرًا، وهو : أن يَسْمَحَ الإنسانُ لله بالتدخّلِ مرّةً أخرى. فعندَ الله كلامٌ جديد، وكتابٌ جديد، ومعلوماتٌ جديدة. قد يُريدُ، لكثرةِ ووفرةِ رحمتِه، أن يُتحِفَنا بمعجزةٍ أخرى. فَلْيُسْمَحْ له!

لديّ أمل. وأرجو خيرًا. وعلى الذينَ يَخافون على اللهِ أن يَتركوا لله شَرَفَ الدفاعِ عن كرامتهِ! بل لِيُحرِّروا اللهَ منهم، هو الذي أعطاهم خيرَ ما عنده، وهي حرّيتهم. وهل يَحُقُّ لهم سلبُ الناسِ حرّيتَهم! هذا الشيء الذي لم يفعلْه اللهُ نفسُه! افتَحوا أبوابَ الكعبةِ، ونَقِّبُوا في رمالِ مكّة، لعلَّ الباحِثينَ يَجِدونَ مَنِ الذي كانَ « قَبْلَ » النبي! واللهُ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ في كلِ حال.

الفَصْلُ الأَوّل

مُعْجزَة الوَحي والتَنزيْل

أَوّلاً ــ استمراريّة الوحي

ثَانيًا ــ معنى الوحي

ثَالثًا ــ طرق الوحي

رَابعًا ــ بدء الوحي

خَامسًا ــ الوحي والإلهام والنبوّة

سَادسًا ــ بين النبيْ محمد والأنبياء السابقين

مقدّمة الفصل

في إيمانِ المسلمين أنّ اتصالَ الله بالنبي محمّد لم يكنْ وقتَ إنزالِ الوحي عليه وحسب، بل سبَقَ ذلك الاتّصالَ اختيارٌ منذ الأزل. وإنْ لم نجدْ في القرآن دليلاً على هذا الاختيار، فانّ كتبَ السِّيَرِ والحديثِ مليئةٌ بهذا الحدثِ الفريدِ العجيب. ولئنْ لم نهتمّ ببحثِنا هذا بهذا الاختيار فلأنّه لا يدخلُ في نطاق ما نحنُ بصددِه، ولأنّه ليسَ في القرآنِ ما يشير إليه.

ومع هذا لا بدّ من القول بأنّ صفحاتٍ شاسعةً من كتبِ المسلمين اهتمّتْ بتاريخِ محمّد الإلهي إلى جانب اهتمامِها بتاريخِه البشري. وصَعِدَ أهلُ السِيَرِ بسلسلةِ نَسَبِ محمّد حتى انتهَوا بآدَم أبِ البشريّة. ومنهم مَنْ ابتعدَ أكثر فدخَل الجنّةَ ووجَد اسمَ محمّد محفورًا على جذوعِ أشجارها. وكم من الإشاراتِ والتنبؤاتِ ألمحتْ مُسْبَقًا إلى مجيءِ نبيٍ أميٍّ من هذهِ الأمّة العربيةِ التي حُرِمَتْ من النبوّةِ في الوقتِ الذي كانتْ أختُها اليهوديةُ تَنْعَمُ بفَيضِ النبوّاتِ والأنبياء.

لقد آن الأوان ليكونَ لهذه الأمّة نبيٌّ، وأيّ نبيّ! إنه خاتَمُ الأنبياء، ودينُه تمامُ الأديان، وشريعتُه كمالُ الشرائع، وكتابُه وحيٌّ من الله وتنزيل، لا اختلاف فيه ولا عِوَج، انه كتابٌ بلسانٍ عربيٍّ مُبين. وكفى هذه الأمّةَ هذا الاختيارُ حتى تكونَ « خيرَ أمّةٍ أُخْرِجَتْ للناس »[1].

من منّا يجهل تلك الكتب التي أثبتَ اللهُ فيها اختيارَ محمّدٍ منذ الأزل! وأتمنّى على القارئِ العودةَ إليها بنفسهِ لِتَوَفُّرِهَا في أسواقِ الدين. ولئنْ كانتِ التسليةُ فيها جائزةً فانَّ الاعتمادَ عليها في أمورِ التاريخِ غيرُ جائز. وما أدراكَ بهذه الرواياتُ تُخبِرُ عن محمّد منذُ آدم حتى بعثتهِ، مرورًا بالتنبؤاتِ التي سَبَقَتْ مولِدَه بأجيالٍ، وبالعجائبِ التي حدثتْ عند مولدِه، وبأخبار الكهّان والعرّافين والأحبارِ والرهبانِ التي استبقتْ مجيئَه، وبشهاداتِ الأشجارِ والأحجارِ والحيواناتِ تشيرُ إلى علاماتهِ وصفاتهِ! ..

كلّ هذه لا قيمةَ لها ولا اثبات. وهي وضعتْ لتنشيطِ إيمانِ المسلمين، وللدلالةِ على أزليّةِ اهتمام الله بهذا النبيّ وبأمّتهِ المحظوظة. ونحن إذ ننبّهُ على مقصودِها الظاهر في مجالِ الدفاعِ عن نبوّةِ محمّد والدين الإسلاميّ، نرفضُ هذه الاخبارَ رفضًا قاطعًا، لأنّها، كما يقولُ محمّد دروزة، « يبدو عليهما آثارُ التكلّفِ والتجوّزِ التي تؤدّي إلى عدمِ الاطمئنانِ، ولا سيّما

[1] القرآن : ٣ / ١١٠.

أنَّ فيها تطرّقًا لا يَشفِي غليلاً، ولا طائلَ من ورائهِ إلى السرِّ الذي ظلَّ على الرغم من ذلك كلهِ محجوبًا عن سائر الناس »[1] .

ومع هذا التحفّظ بقي عامّةُ المسلمين يؤمنون بكل هذه الأخبار، واستغلَّ العلماءُ منهم سرعةَ انقيادِهم إليها، فراحوا يكتبونَ لهم فيها، ويَخطْبون عن صحّتِها في المساجدِ ومن علَى رؤوسِ المآذن ... ومن أجلِ هذا قصدتُ التنبيه. علمًا بأنّها وضعتْ في زمنٍ متأخّرٍ جدّا عن ظهور الإسلام. وهي تشبه إلى حدٍّ بعيد ما كتبَهُ اليهود والنصارى مِن « كتبٍ مزيّقةٍ » في مهمّةِ إثباتِ المعجزاتِ على أنبيائِهم وتعاليمِهم.

[1] محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٢٨.

أَوّلاً ــ استمراريّة الوحي

هو الوحي نفسُه الذي نزل على الأنبياءِ السابقين نزلَ على محمّد. ومحمّدٌ يعتبر نفسَه من جملةِ هؤلاء الأنبياء الذينَ سبقوه في التاريخ. وهذا ليسَ من كتبِ السِيَر والاخبار، بل من القرآنِ ذاته. و « لم يكنِ الوحيُ الذي أيّدهم (أي الأنبياء) بهِ اللهُ مخالِفًا الوحيَ الذي أيّدَ بــه محمّدًا، بل كانت ظاهرةُ الوحيِ متماثلةً عند الجميع، لأن مصدرَها واحد، وغايتَها واحدة »[1].

وجاء في القرآن : « انّا أوحينا إليكَ كما أوحينا إلى نوح والنبيّين من بعدِه، وأوحينــا إلى إبراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيّوب ويونس وهارون وسليمان، وآتينا داوود زبوراً، ورُسُلاً قد قصصناهم عليكَ من قَبْل، ورسُلاً لم نقصصهم عليك. وكلّمَ اللهُ موسى تكليماً »[2].

ووحي الله على محمــد كوحيهِ على مَنْ سَبَقَه سواءٌ بسواء. وكان محمــد يَعي ذلك: « كذلك يُوحى إليكَ وإلى الذينَ من قبلِكَ اللهُ العزيزُ الحكيم »[3]، وأيضًا : « أوحى إليكَ وإلــى الذين مِن قبلك »[4].

هذا الوحي هو من عند الله ، وليسَ لمحمد أن يبدّلَ فيه أو أن يعطيهِ من تلقاءِ نفســه، أو أن ينطقَ به على هواه، أو أن يختارَ اتّبَاعَه بحسب ما يشاء. قال : « قلْ : ما يكون لي أن أبدّلَه من تلقــاءِ نفسي، أنْ أَتّبع الاّ ما يُوحَى إليّ »[5]، و« قــل: انّما أتبع ما يُوحى إليّ مــن ربّي »[6]، وقال : « ... وما ينطِقُ عن الهوى، إن هو الاّ وحيٌ يُوحَى »[7].

وما نزل على محمد من وحي كان « تبيَانًا » لما أُنزِلَ من قَبل. وكان همُّ محمّــد أن يُظهرَ للناسِ كلَ ما أنزِلَ على الأنبياءِ. فهو يأخذُ منهم، ويعتمِدُ عليهم، وينقُلُ عنهم، ويستوحي أخبارَهم، ويَسردُ قَصَصَهُم، ويتمثّلُ بأمثالِهم، ولا يفرِّطُ في كتابهِ بشيء ... وذلك ليبيّنَ للعربِ كلَ ما أُنزِلَ على أهلِ الكتاب. قال : « أَنزلْنَا إليكَ الذكرَ لتبيّنَ للناسِ ما نُزّلَ إليهم »[8]. وقــال أيضًا : « أخذ اللهُ ميثاقَ الذين أوتُوا الكتابَ لتبيّنَه للناس »[9] ...

---

[1] الشيخ صحبي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٢ عن الطبري ٦ / ٢٠.
[2] القرآن : سورة النساء ٤ / ٦٣ ، ١٦٤.
[3] القرآن : ٤٢ / ٣.
[4] القرآن : ٣٩ / ٦٥.
[5] سورة يونس ١٠ / ١٠.
[6] سورة الأعراف ٧ / ٧.
[7] سورة النجم ٥٣ / ١ ـ ٤.
[8] سورة النحل ١٦ / ٤٤.
[9] سورة آل عمران ٣ / ١٨٧، انظر : ١٦ / ٨٩.

وشهدَ على استمراريّةِ الوحيِ هذه كثيرُون ممّنْ يعرفون التوراةَ والإنجيل. فمحمّد يعتبر أهلَ الكتابِ على علمٍ بما في القرآن : « والذينَ آتيناهم الكتابَ يعلمون انّه منَزلٌ من ربِّكَ بِالحقّ »[1] . بل هم يفرَحُون بما جاءَ فيه : « الذين آتيناهم الكتابَ يفرحونَ بما أُنزِلَ إليك »[2]. وجميعُ الناسِ، كتابيينَ كانوا أم أميين، يؤمنون بما أُنزِلَ على محمد وبما أُنزِل من قبل سواءٌ بسواء : « والراسخون في العلم منهم (من أهل الكتاب) والمؤمنون (من العرب) يؤمنون بما أُنزِل إليك (القرآن) وما أُنزِلَ من قبلِكَ (التوراة والإنجيل) »[3] . والمسلمون حقّاً هم القائلون : « آمنّا بالله وما أُنزِل إلينا وما أُنزِلَ من قَبل »[4]. ويحدّد القرآنُ موقِفَهُ منهم منهم بقوله : « يا أهلَ الكتاب لَسْتُمْ على شيءٍ حتى تُقِيمُوا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليكم »[5]، « والمؤمنون (كلّهم) يؤمنون بما أُنزِل إليكَ وما أُنزِلَ من قبلِك »[6].

وفي الحقيقةِ ان أهلَ الكتابِ يشهدون على استمراريّةِ الوحي من التوراةِ إلى الإنجيلِ إلى القرآن. ويشهدون على صحةِ الوحي والتنزيلِ على محمّد : « ان كنتَ في شكٍ مما أَنزلْنا إليكَ فاسألِ الذينَ يَقرأون الكتابَ من قبلِك »[7]. وإذا كان أَتْبَاعُ محمّد من العربِ والأعرابِ ممّنْ ممّنْ لا يستطيعون فَهْمَ الوحيِ القرآني فما عليهم الاّ أن يَسْأَلوا أهلَ الكتابِ. فهو يوصيهم بذلك: « اسألوا أهلَ الذكر إن كنتمْ لا تعلمون »[8] .

وَحْدَةُ الوحي هذه جعلتْ من المؤمنينَ برسالةِ محمّد مع المؤمنينَ برسالةِ موسى وعيسى واحِدًا. فشريعتُهم واحدة: « نشرّع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً »[9] ، وهي « سنّة مَن قد أرسلْنَا قبلَك من رُسُلِنا »[10] ، و « لنْ تجدَ لسنّةِ الله تبديلاً »[11] . فبوحدةِ الشريعةِ لا بدّ أن يتوحّدَ المؤمنون في أمّةٍ واحدةٍ، هي أمّةٌ وَسَط[12] ، مقتصِدَةٌ في عقيدتِها[13] ، بسيطةٌ في شريعتِها بسببِ ضَعفِ الإنسانِ العربي[14]. وهي دعوةٌ قرآنيّة ملِحّة في الوَحدَةِ بين المؤمنين : « أَقيموا الدينَ، ولا تتفرّقوا فيه »[15]، و « اعتصِموا بحبلِ اللهِ جميعًا ولا تَفَرّقوا »[1] . وهي

---

[1] سورة الانعام ٦ / ١١٤، انظر : ٣٤ / ٦.
[2] ١٣ / ٣٦.
[3] ٤ / ١٦٢.
[4] ٥ / ٥٩.
[5] ٥ / ٦٨.
[6] ٤ / ٢١٢ و٦٠ ، ٢ / ٤.
[7] ١٠ / ٩٤.
[8] ١٦ / ٤٣ ، ٢١ / ٧.
[9] ٤٢ / ١٣.
[10] ١٧ / ٧٧.
[11] ٣٥ / ٤٣ ، انظر : ٦ / ٣٤ ، ١١٥ ، ٤٨ / ٢٣ ، ١٨ / ٢٧ ، ١٠ / ٦٢ الخ ...
[12] ٢ / ١٤٣.
[13] ٥ / ٦٦.
[14] ٨ / ٦٦ ، ٢ / ١٨٥ ، ٤ / ٢٨ ... وما سواها من آيات كثرة.
[15] ٤٢ / ١٣.

دعوةٌ استجابَ لها محمّد وأتباعُه : « لا نفرّقُ بين أحَدٍ منهم. ونحنُ له مسلمون »[٢] . وقال أيضًا : « لا نفرِّقُ بين أحدٍ من رسله »[٣] . ووَصف أتباعَه بـ « الذين آمنوا باللهِ ورسلهِ، لم يفرّقوا بين أحدٍ منهم »[٤]، ونَصَحَهُم قائلا : « لا تكونوا من المشركين مِن الذينَ فَرّقوا دينَهم وكانوا شِيَعًا »[٥] ، وأيضًا : « لا تكونوا كالذينَ تفرّقوا واختلَفوا »[٦].

وبوحدةِ الوحي والشريعةِ توحَّد المؤمنونَ جميعًا حتى أصبحوا « أمَّةً واحِدةً »[٧] ، وأعلنوا إيمانَهم بقولهم : « آمَنّا باللهِ، وما أُنزِل إلينا، وما أُنزِلَ من قَبل »[٨] .

هذا هو الوحي المحمّدي : لا شيء فيه جديد، سوى انّه خفّف عن كاهلِ هذه الأمّةِ العربيّة بعضَ عُسْرِ شريعةِ أهلِ الكتابِ، وذلك بسبب ضَعفِهم[٩] . وقصّةُ معراجِ محمّد على السماواتِ شهيرةٌ في سبيلِ الطلبِ من اللهِ التخفيفَ عن أمّتهِ[١٠].

---

[١] ٣ / ١٠٣.
[٢] ٢ / ١٣٦ ، ٨٣ ـ ٨٤.
[٣] ٢ / ٢٨٥.
[٤] ٤ / ١٥٢. وآيات أخرى كثيرة. انظر كتاب « قسّ ونبيّ » لأبي موسى الحريري
[٥] ٣٠ / ٣٢.
[٦] ٣ / ١٠٥.
[٧] ٢٣ / ٥١.
[٨] ٥ / ٥٩ ، ٤ / ١٣٦.
[٩] ٨ / ٦٦ ، ٤ / ٢٨.
[١٠] انظر قصّة الإسراء والمعراج في تفسير الجلالين، ص ٣٧١.

ثَانياً ــ معنى الوحي

وردت لفظةُ « الوحيّ » ومشتقّاتُها في القرآن حوالي ثماني وسبعين مرّة. وليستْ كلّها بمعنى واحد. وقد نستطيعُ حصرَ معانيها بما يلي :

١ ــ من الوحيِ ما هو بمعنى الإلهام الفطري للإنسان، كقوله : « وأوحينا إلى أمِّ موسى أنِ أرضِعيه »[١] ، وقولهِ: « وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بِي وبرسولي »[٢]. وهذا وهذا الإلهامُ هو أيضًا بمعنى التوجيه الذي رتّبه الله في نظامٍ محدّدٍ وفقَ طبيعةِ الإنسان.

٢ ــ ومن الوحيِ أيضًا ما هو بمعنى الإلهام الغريزي للحيوان، كقولهِ : « وأوحى ربُّك إلى النحلِ أنِ اتَّخِذِي مِنَ الجبالِ بيوتًا »[٣] . « وهو يمثّل هدايةَ اللهِ وتوجيهَه للحيوان بما رَكَّبَهُ فيهِ من خصائصَ لحفظِ حياته وقيامهِ بوظائفه »[٤] .

٣ ــ ومن الوحي ما هو بمعنى الإشارةِ السريعةِ التي تكون بالرمزِ والايحاء والرؤيا، كما في قوله عن زكريّا : « فخرج على قومِه من المِحراب، فأوحَى إليهم أن سَبِّحوا بَكْرَةً وعَشِيًّا »[٥] . وقد يكونُ وحيُ زكريا إلى الناس : رمزاً، أو كتابةً، أو اعتباراً، أو إشارةً سريعةً، سريعةً، أو ايماءً ...

٤ ــ ومن الوحي ما يتعلّقُ بوسواسِ الشيطان وإيحائهِ للإنسانِ الشرَّ والغرور. قال : « وكذلك جَعَلنا لكلِ نبيٍّ عَدُوًا : شياطين الجنِ والإنسِ، يُوحِي بعضُهم إلى بعضِ زخرفَ القولِ غروراً »[٦]، وقال أيضًا : « وانَّ الشياطينَ لَيُوحُونَ إلى أَولِيائِهم لِيُجَادِلوكم »[٧].

٥ ــ ومنه أيضًا « ما يُلقيه اللهُ إلى الملائكةِ من أمرهِ ليفعلوه من فَورِهم »[٨] كقولهِ : « « إذ يوحي ربُّك إلى الملائكةِ انّي معكم. فثبّتوا الذين آمنوا[٩]. هذا الوحي هو إلهامٌ سريع، لا إشارةَ فيه ولا رموز.

---

[١] سورة القصص ٢٨ / ٧.
[٢] سورة المائدة ٥ / ١١١.
[٣] سورة النحل ١٦ / ٦٨.
[٤] الدكتور عبد المنعم النمر، علوم القرآن الكريم، ص ١٤.
[٥] سورة مريم ١٩ / ١١.
[٦] سورة الانعام ٦ / ١١٢.
[٧] سورة الانعام ٦ / ١٢١.
[٨] الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٤.
[٩] سورة الانفال ٨ / ١٢.

٦ ــ أمّا الوحي الذي يَحمِلُه النبيُ محمّد إلى الناسِ ليبلّغَهم مضمونَه فهو كالوحيِ الذي كلّفَ اللهُ به مَلاَكَه جبريلَ لِيَنْقُلَهُ إلى الأنبياءِ. وبذلك يكونُ ما جاء به جبريلُ محمّدًا من وحيٍ هو تنزيلٌ عليه من ربِّ العالمين[1] .

هذا المعنى الأخير للوحي يكونُ من الله على رسلهِ وأنبيائهِ، مباشرةً، أو بواسطةِ مَلاكِ الوحي، ويكونُ أيضا برؤيا ليليةٍ أو نهارية، أو يكونُ بظهورِ الملاكِ نفسِه بهيئةِ رجلٍ على النبي، أو أيضًا بغَير ذلك، كما سنرى.

[1] انظر سورة الشعراء ٢٦ / ١٩٢ ـ ١٩٥ ، والنساء ٤ / ١٣٦ ـ ١٦٤.

ثَالثًا ــ طرق الوحي

هناك، بحسب القرآن وكتب السِيَر، عدّةُ طرقٍ أو صُوَرٍ لإبلاغِ الوحي، بها اتّصلَ اللهُ بأنبيائه، كلٍّ بحسب ظروفهِ وأحوالهِ. وأشارتْ إلى بعضِ هذه الطرق سورةُ الشورى في قولها: « وما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ الاّ وحيًا، أو مِن وراء حِجابٍ، أَو يُرْسِلَ رَسُولاً (ملاكاً) فيوحي بأذنِهِ ما يَشاء »[١].

١ ــ أوّلُ الطرق إذن : الوحيُ، بمعنى الالهامِ المباشَر، أي إن اللهَ يُلقي كلمتَه في قلبِ رسولهِ وروحِه، وينفثُ المعنى في رَوعِه، كقولِ حديثٍ نبويٍّ جاءَ فيه: « إن روحَ القدسِ (أي الملاك جبريل) نَفَثَ في روعِي أنّه لن تموتَ نفسٌ حتى تستوفيَ رزقَها ... »[٢].

٢ ــ والطريقة الثانية تقوم في أنْ يُوحي اللهُ إلى نبيّهِ كلامًا يسمعُه من وراءِ حجاب، دون أن يَرى النبيُّ المتكلِّمَ، وذلك كما نادَى اللهُ موسى من وراءِ الشجرة وسمعَ موسى نداءَه[٣]، وكما حدث لمحمّد وهو في معراجهِ على الأنبياء[٤].

٣ ــ والثالثة أن يكونَ الوحيُ بوساطةِ المَلَكِ جبريل، ملاكِ الوحي الأمين، الروحِ القدس، الذي أرسلَه اللهُ إلى محمّد، وإلى غيرهِ من الأنبياء، بصورةِ رجلٍ. ويبدو أن القرآنَ كلَّه نزلَ بوساطتهِ، كما جاءَ : « نَزَلَ به الروحُ الأمين على قلبِكَ لتكونَ من المنذرين بلسانٍ عربيٍ مُبين »[٥]، وجاء أيضًا : « قلْ نزّله الروحُ القدسُ من ربّكَ بالحقِّ ليثبّتَ الذينَ آمنوا »[٦].

وأمّا في كتب الحديثِ والسيرةِ النبويةِ فهناك صُوَرٌ أخرى لحدوث الوحي وتنزيلهِ على محمّد. وهي، على غَرَابتِها، تفسِّرُ بعضَ ما جاء في القرآن :

جاء على لسان عائشة قولُها : « أوّلُ ما بُدِئَ به رسولُ اللهِ صلعم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يَرى رؤيَا الاّ جاءتْ كَفَلَقِ الصبح »[٧]. وحدثَ مثلُ هذه الرؤيا

---

[١] ٤٢ / ٥١.
[٢] سيرة ابن هشام ١ / ٢٢٠ حاشية (١).
[٣] انظر سورة النساء ٤ / ١٦٤ ، طه ٢٠ / ١١ ـ ١٤.
[٤] سورة النجم ٥٣ / ٨ ـ ١٠ ، سورة الاسراء ١٧ / ١ ...
[٥] سورة الشعراء ٢٦ / ١٩٣ ـ ١٩٥.
[٦] سورة النحل ١٦ / ١٠٢.
[٧] صحيح البخاري ١ / ٣ ، ابن هشام ١ / ٢١٦ ...

لابراهيمَ واسمعيل[1]، ولكن « لم يثبتْ ثبوتاً قاطِعاً أن شيئًا من القرآنِ نزلَ عن طريق الرؤيا المناميّة »[2] .

أمّا كيفيّةُ نزولِ الوحي على النبي فكانتْ بأحوال مختلفة ومتعدّدة : أحيانًا كان يأتيهِ بعنفٍ وجهدٍ وتعبٍ وثقلٍ وشدّة. وقد عبَّر الرسولُ عن ذلك بقوله : « أحيانًا يأتيني مثل صَلصَلة الجَرَسِ، وهو أشدّهُ علَيّ، فيفصم عنّي، وقد وعيتُ عنه ما قال »[3] ، كما عبّرتْ أيضًا أيضًا عائشة بقولها : « ولقد رأيتُه ينزلُ عليه الوحيُ في اليومِ الشديدِ البردِ، فيفصم عنه، وأنّ جبينَه لَيتفصَّد عَرَقًا »[4] ، وكذلك ابنُ عبّاس قالَ : « كان رسولُ الله يُعالِجُ من التنزيل شِدّة »[5]. »[5]. وعن السيرةِ الحلبية جملةُ أحوال تنقلُها عن مصادرَ عديدة. تقول في وصف حالِ النبي أَنَ أَنَ يأتيهِ الوحيُ بأنّه كانَ « يغطُّ كغطيطِ البكر المحمَّرةِ عيناه »[6] . وعن زيد بن ثابت قوله : « « كان إذا نزلَ الوحيُ على رسولِ الله ثقلَ لذلك، ومرّةَ وقع فخذُه على فخذي، فوالله، ما وجدتُ شيئًا أثقلَ من فخذِ رسولِ الله » . ويضيف : « ربّما أُوحِيَ إليه وهو على راحِلَتِهِ (ناقته) فترعَدُ حتى يُظَنَّ أنَّ ذراعَها ينقَسِم. وربّما بَركتْ ... فلم تستطعْ أن تحمِلَه، فينزِل عَنها »[7] .

وفي رواياتٍ كثيرة أيضًا جاءَ على لسان رسولِ الله قولُه : « ما مِن مرّةٍ يُوحى إليّ الاّ ظننتُ أنَّ نفسي تُقبَضَ منّي » . وعن أسناء بنت عميس : « كان رسول الله، إذا نزل عليه الوحيُ يكاد يُغشى عليه ... ويصيرُ كهيئةِ السَكران »[8]. وعن محيي الدين : « كان إذا جاءَه الوحيُ يستَلقي على ظهرِهِ » . وسببُ ذلك « لم يبقَ للجسمِ مَن يحفَظُ عليه قِيامَه ولا قُعُودَه فيرجِعُ إلى أصلهِ وهو لُصوقُه بالأرض »[9].

وعن أبي هريرة : « كان رسولُ الله، إذا نزل عليه الوحيْ صدَع، فَيُغَلِّفُ رأسَه بالحناء » . وعنه أيضًا : « كان رسولُ الله، إذا نزل عليه الوحي لم يستطعْ أحدٌ منّا يرفعُ

---

[1] سورة الصافات ٣٧ / ١٠٢ ـ ١٠٥.
[2] الدكتور عبد المنعم النمر، علوم القرآن الكريم، ص ١٧.
[3] صحيح البخاري ١ / ٢ ـ ٣.
[4] نفس المرجع ١ / ٣ ... انظر ما جاء في جميع كتب السير، فهي على وفاق تام فيما بينهما بما يخصّ كيفية نزول الوحي على الرسول.
[5] صحيح البخاري ١ / ٣.
[6] السيرة الحلبية ١ / ٢٥٧.
[7] نفس المرجع، ١ / ٢٥٧.
[8] نفس المرجع، ١ / ٢٥٧.
[9] نفس المرجع، ١ / ٢٥٧ ـ ٢٦٣.

طَرْفَهُ إليه حتى يَنقضي الوحي » . وسبب ذلك انّ الرسولَ حين الــوحي تســتقبله الرعــدة، والكرب، فيتربّدُ وجهُه ويغمضُ عينيه، ويُسمَع عند وجههِ كَدَوِيّ النحل، ويضطرب ارتعاشاً، وينوءُ تحتَ النوباتِ العصبية والارهاصاتِ العاطفية، ويرزح تحتَ ثقل ملاكِ الوحي. وقد جاء في حديث خديجة عن حال النبي ما يلي :

سألتْ خديجةُ زوجَها قائلة : « أيْ ابنَ عمّ، أَتستطيع أنْ تُخبرَني بصاحِبِكَ هذا الــذي يأتيكَ إذا جاءَك ؟ قال : نعم. قالت : فإذا جاءَكَ فأخبرني به. فجاءَ جبريل عليهِ السلام، كمــا كان يَصنع. فقال رسول الله لخديجة : يا خديجة، هذا جبريلُ قد جاءني. قالت : قمْ يا ابنَ عمّ، فاجلس على فَخْذِي اليُسْرَى. فقامَ رسولُ اللهِ فجلسَ عليها. قالت : هل تراه ؟ قال : نعم. قالت: فتحوّلْ فاجلِسْ على فخذي اليُمْنَى. فتحوّلَ رسولُ الله فجلسَ على فخذِها اليمنى. فقالت : هــل تَراه ؟ قال : نعم. قالت : فتحوّلْ فاجلسْ في حِجْرِي. فتحوّلَ رسولُ الله فجلَسَ في حجرِهــا. قالت : هل تراه ؟ قال : نعم ... فَتَحَسَّرتْ (خديجة) وألقتْ خمارَها ورسولُ اللهِ جالسٌ فــي حِجرها. ثم قالتْ له : هل تراه ؟ قال : لا. قالت : يا ابنَ عمّ. أثبتْ. وابشِرْ. فواللهِ، انّه لَمَلَك. وما هذا بشيطان »[1] .

أمّا عبد الله بن حسن فقد سمع أمَّه فاطمة تحدّثُه عن خديجة، تقول له : « إنّي سمعتُها (أي فاطمة سمعت خديجة) تقول : أدخلْت رسولَ الله بينها وبين درعها. فذهب عنــد ذلــك جبريل. فقالت لرسول الله : ان هذا لَمَلَك. وما هو بشيطان »[2] .

هذه الحالاتُ الشديدة التي كان تنتابُ النبي كشفَ القرآنُ عنها في قوله : « انّا سَنُلقِي عليكَ قَولاً ثَقيلاً »[3]. هي حقّا كانت عليه شديدةً حتى أنّه كان يَنوي القاءَ نفسهِ من علــى رأسِ الجبلِ لمعاناتِه مع رسولِ الوحي ...

---

[1] سيرة ابن هشام ١ / ٢٢٣.
[2] نفس المرجع ١ / ٢٢٣.
[3] سورة المدثر ٧٤ / ١ ـ ٥ ، سورة المزمّل ٧٣ / ١ ـ ٥.

رَابعاً ــ بدء الوحي

يجمع المسلمون على أنّ أوّلَ ما نزل من القرآن كانَ في غَــارِ حِــرَاء، فــي شــهرِ رمضان، في ليلةِ القَدْرِ المباركة. وأوّلُ آية نزلتْ كانتْ من سورةِ العَلَق. وبيانُ المسلمين على ذلك لا يستقصيه عِلمٌ لكثرةِ الشهودِ والأحاديث النبويّة المنقولة إلينا بالطريق الصحيح.

١ ــ مكان النزول :

نقل إلينا ابنُ هشام عن ابنِ اسحق عن عبد الملك بنِ عبيد الله بن أبي ســفيان : « إن رسولَ الله، حينَ أراده الله بكرامتهِ، وابتدأه بالنبوّة، كان إذا خرجَ لحاجتهِ أَبْعَدَ حتى تَحَسَّرَ عنه البيوت، ويُفضِي إلى شِعابِ مكّة وبطونِ أوديتِها، فلا يمرُّ رسولُ الله بحَجَرٍ ولا شَجَرٍ، الا قالَ: السلامُ عليكَ يا رسولَ الله. قال : فيلتفتُ رسولُ اللهِ حولَه وعن يمينهِ وشَمالِه وخَلْفَه فلا يَــرى الاّ الشجرَ والحجارة. فمكثَ رسول الله كذلك يَرى ويسمع، ما شاءَ الله أن يمكثَ. ثــم جــاءَه جبريلُ عليه السلام، فما جاءَه من كرامةِ الله، وهو بِحِرَاء في شهرِ رمضان »[١].

وعن وهب بن كَيسان قال : سمعتُ من ابن الزَبير قال : « كان رسولُ الله يجاورُ في حِرَاء من كلِ سنةٍ شهراً... حتى إذا كانَ الشهرُ شهرَ رمضان من السنةِ التي بعثَه الله فيها »[٢], وتشهدُ عائشة على ذلك بقولها: «... وكانَ يخلو بغَارِ حِرَاء، فيتحنّثُ, والتحنّثُ هو التبرّر »[٣]، « والتعبّد الليالي ذوات العدد »[٤].

٢ ــ أوّل ما نزل من القرآن :

استمرّ النبيّ يتردد على غار حِراء، طيلةَ خمس عشَرةَ سَنة، برفقةِ القسِ ورقــة بــن نوفل وعنايتهِ، وكان هناك يتعبّدُ ويصلّي ويرتاضُ ويصوم، إلى أن « جاءَه الحقّ، وهو فــي

---

[١] سيرة ابن هشام ١ / ٢١٧ ، انظر الروح الانف ١ / ٢٦٦ ، صحيح مسلم، وصحيح البخاري، باب : بدء الوحي في الجزء الأوّل ...
[٢] سيرة ابن هشام ١ / ٢١٧ ـ ٢١٩ وما بعد ...
[٣] سيرة ابن هشام ١ / ٢١٨ وما يلي، انظر في مجمل كتب السير ...
[٤] صحيح البخاري، ١ / ٣، انظر صحيح مسلم، في بدء الوحي.

غارِ حِراء. فجاءَه المَلَك فقال : اقرأ. قال : ما أنا بقارئ. قال : فأخذَني فَغَطَّني حتى بَلَغ منّي الجُهد. ثمّ أرسلني. فقال : اقرأ. قلتُ : ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ منّي الجهد. ثم أرسلني. فقال : اقرأ. فقلتُ : ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثالثة. ثم أرسلني. فقال: اقرأْ باسمِ ربِّكَ الذِي خَلَق، خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَق، اقرأ وربّك الأكرم[1].

« فرجع بها رسول الله يرجفُ فؤادُه، فدخَل على خديجة بنتِ خُوَيْلِد، فقال : زمّلوني زمّلوني. فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة، وأخبرها الخبر. لقد خشيتُ على نفسي. فقالتْ خديجة : كلاّ. واللهِ، ما يخزيكَ اللهُ أبداً. انّك لَتَصِلُ الرَحِمَ، وتحمِل الكَلَّ، وتُكسبَ المعدومَ، وتُقرِي الضيفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحقّ.

« فانطلقت به خديجة حتى أتتْ به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى ابن عمِّ خديجة وكان امرأ تنصَّرَ في الجاهليّة، وكان يكتبُ الكتابَ العبرانيّ فيكتبُ من الإنجيلِ بالعبرانية ما شاءَ الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيراً قد عَمي، فقالت له خديجة : يا ابنَ عمّ اسمعْ من ابنِ أخيك فقال له ورقة : يا ابنَ أخي ماذا تَرى ؟ فأخبرَه رسولُ الله خبرَ ما رأى. فقال له ورقة : هذا الناموسُ الذي نزّلَه اللهُ على موسى، يا ليتَني فيها جذعاً ليتني أكون حَيَّاً إذ أخرجَك قومُك. فقال رَسول الله : أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟ قال : نَعم. لم يأْتِ رجلٌ قطّ بمثلِ ما جئتَ به. ألا عودي. وانْ يُدركُني يومُك أنصُرْكَ نصرًا مؤزَّرًا. ثمّ يَنْشَبْ وَرَقَة أنْ تَوفِّيَ وفَتَرَ الوحيُ »[2].

هكذا ابتدأ الوحي، وهكذا كان أوّلُ ما أوحِي به إلى محمّد. ولكنّ موتَ القسّ ورقة لم يكن الاّ بعد ثلاث سنين أو أربع من بدء الرسالة النبوية. والبخاري، الذي نقلنا عنه هذا النص، يتابع في كلامهِ ما أُنزلَ من وحي على النبي بعدَ انقطاعهِ عنه حوالَي ثلاثَ سنين. وبعد ذلك استمرّ الوحيُ ينزل على الرسولِ بحسب الظروفِ والمناسباتِ طيلةَ ما يقاربُ الثلاثَ والعشرينَ سنة.

٣ ــ كيفيّة التنزيل :

[1] سورة العلق، رقم ٩٦ ، وهي باتّفاق المسلمين أوّل ما نزل من القرآن.
[2] صحيح البخاري، ١ / ٣ ـ ٤.

من إيمان المسلمين أن القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماءِ الدنيا جُمْلةً واحدةً، ولكنَّ محمّداً لم يتلقّاه الاّ مُنَجَّمًا، أي أنّه أَنزلَ على محمّد آيةً آية، أو كلَ خمسِ آيات، أو عشرِ آيات، أو أكثر أو أقل[١].

أمّا الحكمة من تَنْجميهِ فهي مُضاعفة : إنّها حكمةٌ بالنسبة إلى النبيّ، وذلك لكي « يظلَّ الوحيُ متجاوِبًا مع الرسول، يعلّمُه كلَ يوم شيئًا جديداً، ويرشدَه ويهديه، ويثبّتُه ويزيدُه اطمئنانًا »[٢]. وفي ذلك شهادةُ من القرآن نفسه بقوله : « وقال الذين كفروا : لولا نُزّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدة! » ويجيب الله : أنزلناه « كذلك لنثبّتْ به فؤادَك. ورتّلناهُ ترتيلاً »[٣]. ويقول أيضًا : « وقرآنا فرقناهُ لتقرأَه على الناسِ على مُكْثٍ. ونزّلناه تنزيلاً »[٤].

وهي أيضًا حكمةٌ بالنسبة إلى الصَحَابة، حتى يبقَى الوحيُ « متجاوِباً مع الصحابةِ يربّيهم ويُصلح عاداتِهم ويجيب عن وقائعهم، ولا يفاجئُهم بتعاليمهِ وتشريعاتهِ »[٥]. والحكمةُ في ذلك كانت للصحابة « حتى يحفظوه في صدورِهم، ويكتبوه على الرقاع، ويتيسّر لهم العملُ بمضمونه شيئًا فشيئًا »[٦]. والغاية من ذلك « تربيةُ الأمّة وترويضُها وهدايتُها، وتمكينُها من التطبيق والالتزام بالأحكام وما إليه ... »[٧].

غير أنّ الخطر في الاسترسال بالقول بالتنجيم يكمن في جعلِ الآيات مفكّكةً غيرَ مرتبطَةٍ بعضها ببعض. وقد لمسَ المسلمون ظاهرةَ التفككِ هذه، فأوجدوا « علم المناسَبة » الذي يضعُ لِرَبْطِ السُوَرِ والآياتِ قواعدَ وأصولاً[٨]. وعند الامام فخر الدين الرازي أنّ « أكثرَ لطائفَ القرآنِ مُودَعَةٌ في الترتيباتِ والروابط »[٩].

٤ ــ متى نزل القرآن ؟

يحدّد القرآن وقت نزوله في أمكنة ثلاثة منه :

---

[١] السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ١ / ٧٣.
[٢] الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٤٩.
[٣] سورة الفرقان ٢٥ / ٣٢.
[٤] سورة الاسراء ١٧ / ١٠٦.
[٥] الشيخ الصالح، المرجع المذكور، ص ٤٩.
[٦] انظر الدكتور النمر، علوم القرآن الكريم، ص ٨١.
[٧] الدكتور داود العطار، موجز علوم القرآن، ص ١٠٩ و ١١٤ ـ ١٢٤.
[٨] انظر فصلاً في السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ١ / ٩٦ وما يلي.
[٩] انظر كتاب تفسير القرآن للإمام الرازي.

في سورة البقرة قوله : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن »[١].

وفي سورة الدخان : « انّا أنزلناه في ليلة مباركة »[٢].

وفي سورة القدْر : « انّا أنزلناه في ليلةِ القدْر »[٣].

لقد رأينا شهادةَ المحدّثين بأنّ النبيَ جاءَه الحقّ في رمضان عندما كان يتحنّث ويرتاض في غار حِرَاء. وفي البخاري قوله : « وكان جبريلُ يَلقَاه في كل ليلةٍ من رمضان فيدارِسُه القرآن »[٤]. وكانت الليلةُ الأولى ليلةَ السابعَ عشَر، المسمّاة بليلةِ القدْر، من السنة ١٣ قبل الهجرة الموافقة لشهر تمّوز سنة ٦١٠ م. وكان عمر النبي إذ ذاك أربعين سنة.

وممّا يرجّح هذا التاريخ ما نجده في مناسبة أخرى من قول القرآن، وهي مناسبة التقاء الجَمْعَين : أي المسلمين والمشركين في معركةِ بَدْر التي حدثتْ في السابع عشر من رمضان السنة الثانية للهجرة. قال : « ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان »[٥].

أمّا ليلة القدْر فهي أوّلُ ليلة أنزلَ فيها القرآن. جاء في أهمّيتها : « انّا أنزلناه في ليلة القدرِ، وما أدراكَ ما ليلةُ القَدْرِ، ليلةُ القَدْرِ خيرٌ من ألفِ شهر، تُنزّلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإذنِ ربّهم من كلِ أمر. سلامٌ حتى مطلع الفجر »[٦]. ومعنى ذلك أن اللهَ أنزلَ « القرآنَ جملةً واحدةً منَ اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا »[٧]. ويشهد على ذلك ما ورد في سورة النجم بأنّ القرآنَ القرآنَ كان كلُّه منذ الأزل « بالأفق الأعلى »[٨]، « عند سِدْرَةِ المُنْتَهَى، عندها جَنَّةُ المأوى »[٩]. »[٩]. وبعد ذلك أنزله اللهُ مُنَجَّمًا على الرسولِ بحسبِ المناسبات، على ما جاء سابقًا.

الاّ إنّ « اللوحَ المحفوظ » قد لا يكون كتاباً موجوداً في « الأفق الأعلى » ؛ بل قد يكون كتاب موسى، من قول القرآن نفسه : « ومِن قَبلِهِ كتابُ موسى إمَامًا ورحمةً »[١٠] وقوله : « ويتلوه شاهدٌ منه ومن قبلهِ كتابُ موسى إمَامًا ورحمة »[١١] . وما يرجّح ذلك هو أنّنا نجدُ

---

[١] سورة البقرة ٢ / ١٨٥.
[٢] سورة الدخان ٤٤ / ٣.
[٣] سورة القدر ٩٧ / ١.
[٤] صحيح البخاري ١ / ٣ و ٤.
[٥] سورة الانفال ٨ / ٤١.
[٦] سورة القدر ٩٧ / ١ ـ ٥.
[٧] انظر تفسير الجلالين على ٩٧ / ١، والقرطبي ٢ / ٢٩٧، والزركشي في البرهان ١ / ٢٢٨ ، والاتقان في فصل « كيفية انزاله » ، الجزء الأول ...
[٨] سورة النجم ٥٣ / ١ ـ ١٢.
[٩] سورة النجم ٥٣ / ١٣ ـ ١٨.
[١٠] سورة الاحقاف ٤٦ / ١٢.
[١١] سورة هود ١١ / ١٧.

في القرآن ما نجدُه في « إمام موسى » : « كلُ شيء أحصيناهُ في إمَامٍ مُبين »[1]. وقد يكــونُ كتابُ موسى الموصوفُ بـــ « الإمام » هــو نفسه « أمُّ الكتاب »[2]، ويصرّح: « وانّــه (أي القرآن) في أمِّ الكتابِ لدينا »[3].

ولكنّنا نجد في القرآن ما لا نجدُه في كتاب موسى! فما هو مصدرُه ؟ لعلّه « الإنجيلُ العبراني » الذي كانَ بين يدي القس ورقة ينقلُه إلى العربية، ومحمّد يحضرُ نَقْلَهُ طيلةَ أربــعٍ وأربعينَ سنة !! ولعلّ أيضًا خبرةَ محمّد خلال حياتِه وجهادِه وأســفارهِ ومســتجدّاتِ الحيــاة والمجتمع لَها أيضًا في القرآن يَد! وفي كل حال لنا عودة إلى مصادر القرآن فيما بعد...[4]

[1] يس ٣٦ / ١٢ ، الحجر ١٥ / ٧٩.
[2] سورة الرعد ١٣ / ٣٩.
[3] سورة الزخرف ٤٣ / ٤.
[4] انظر كتاب « قس ونبيّ » .

خَامساً ــ الوحي والإلهام والنبوّة

لئن كان في اليهودية والنصرانيّة فرق بين الوحي والإلهام والنبوّة، فانّ الإسلام لــن يميّزَ بينها. وسببُ ذلك هو أنَّ الله هو مصدرُ كل ما في القرآن من وحي ونبوّة وإلهام وعلــم وشريعةٍ وحقائق. فنبيُّ المسلمين ليس له في القرآن أيُّ تدخّل، فهو « لا يصوغُه بلفظــه، ولا يلقيه بكلامه »[١] بل هو « لا يملك حتى حقَّ استخدامِ ذاكرتهِ في حفظِ القرآن، بــل الله يتكفّــل بتحفيظه ايّاه »[٢].

ويبدو أيضًا من إيمان المسلمين بأنّ محمدًا كان يتلقَّى الوحي من الله بلفظِ الله وأسلوبهِ ولغتهِ وقراءتهِ وبيــانه، ولا يملك محمّد أيّةَ حريّةٍ شخصيةٍ أو إرادةٍ ذاتية أو علمٍ من عنــده. « انّه الوحيُ ينزل على محمد حين يشاءُ ربُّ محمّد، ويَفْتَرُ إذا شاءَ له ربُ محمد الانقطــاعَ، فما تنفعُ التعاويذُ والاسجاعُ، ولا تُقَدِّمُ عواطفُ محمّد ولا تؤخِّرُ في أمرِ السماء »[٣].

ويحرصُ محمّد، والله يكلّمه تكليماً، أن يصرّحَ باستمرارٍ بأنّه بشَرٌ كسائرِ البشــر، لا يملكُ من علمِ السماءِ شيئًا، ولا يعرفْ ما في خزائنِ الله، ولا يعلمُ الغيبَ، ولا يــزعمُ لنفسِــه صفةً ملائكيّة، ولا يمكنهُ أن يدفعَ عن نفسهِ، لا خيرًا ولا شرا، بل يخافُ أن يبدّلَ بما يُــوحى إليه[٤].

هذا الوحي كان يفاجئ محمّداً في أيّة ساعة : في النهار كما في الليل، في البرد كمــا في القيظ، في يقظتهِ كما في منامه، في بيته كما في أسفاره، في ساعات الصلاة والعبادة كمــا في أحضان خديجة وسائر النساء, في عُروجهِ إلى السماوات كما في حروبِه وغَزَواتِه وجمْــعِ المغانم ... انّها مشيئةُ الله لا مشيئة محمّد. وانّه عملُ الله في محمّد. فالله « ذاتٌ متكلِّمَةٌ آمِــرَة مُعطِيَة، و (محمد) ذاتٌ مخاطَبَةٌ مأمورةٌ متلقِّيَة »[٥].

ومع هذا التجرّد النبوي عن كل ذاتِه وعن كل إرادتِه، لم يسلَمْ محمّد، رغــم التــدخّلِ الإلهي في كل شيء، من ألسنةِ المتّهمِين الذين حَسِبوه مجنوناً، فقالوا « معلّم مجنون »[٦]، وردّ اللهُ تهمتَهم بقوله : « ما أنت بنعمةِ ربّك بمجنون »[٧] ، وحسبوه شاعرًا، وردَّ الله عنه بقوله :

---

[١] الشيخ الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣٠.
[٢] نفس المرجع، ص ٣٣.
[٣] نفس المرجع، ص ٣٨.
[٤] القرآن : ٧ / ١١٨ ، ٦ / ٥٠ ، ١٠ / ١٥ ـ ١٦ ...
[٥] الشيخ الصالح، مباحث ...، ص ٢٧.
[٦] سورة الدخان ٤٤ / ١٤.
[٧] سورة ن والقلم ٦٨ / ١.

« وما هــو بقول شاعر »[1]، وحسِبوه حالِمًا ومحاكِياً الشياطين[2]، و « ما هو بقــول شــيطان رجيم »[3]. وآخرون اتّهموه بأنّه يأتي بما في صُحُفِ موسى وابراهيم[4] وأساطير الأوّلين[5]، وكان وكان الله يتكفّل بالردّ العنيف.

فانطلاقا من هذا المفهوم القرآني للوحي يستبعد المسلمون أن يكونَ فيما بين الــوحي والإلهام وما يشبهه من تعابير أيّةُ علاقة. فلا الكشــفُ ولا الحَــدْسُ البــاطني، ولا الشــعور الــداخلي، ولا العرفــان، ولا الوَجْــدُ، ولا الــذَوقُ الصــوفي، ولا العرفــان، أو اللاوعــي واللاشعور... تستطيع أن تسموا بصاحبِها إلى درجةِ الوحي والنبوّة.

وبكون الوحي كلّهِ من عندِ الله، فلا بدّ أن يُلِمَّ بكلِ العلومِ والحقائق التاريخيّة والكونيّة، الماضية منها والمستقبلة. لهذا فان القرآن قد « صحَّحَ بعضَ أخطاء وردتْ في الكتبِ السابقةِ تتناولُ عصمةَ الأنبياء، وفنّدَ بعضَ المغالطاتِ التاريخية، وصوَّر محمّدًا شاهِدًا الأحداثَ كلَّها، مراقبًا ايّاها، كأنّه يعيشُ في عصرِها بينَ أصحابِها »[6].

وأمّا أمورُ المستقبل فلا حَصْرَ لها في القرآن، لقد تنبّأ بانتصار الرومِ على الفــرس[7]، وتنبّأ بانتصارهِ في معركة بَدْر الكبرى[8]... وتنبّأ عن علومٍ توصّل إليها العلمُ الحديث مؤخَّرًا، كما عن علومٍ سيكتشفها في أجيــال البشريّة اللاحقة[9]. ولــو اطّلعَ البشرُ على جوانبِ القرآن « لأدركوا، مثلَ جميع المنصفِينَ عجزَ الزمان عن إبطالِ شيء منه، ولأيقنوا أنّ علومَ الكــونِ ستظلُّ جميعًا في خدمتهِ للكشفِ عن آياتِ الله في الآفــاق والأنفس، كمــا قاله الله : « سَنُرِيهم آياتِنَا في الآفاق وفي أنفسِهِم حتى يتبيّنَ لهم الحقُّ »[10].

---

[1] سورة الحاقة ٦٩ / ٤١.
[2] سورة الأنبياء ٢١ / ٥.
[3] سورة التكوير ٨١ / ٢٥.
[4] سورة الأعلى ٨٧ / ١٨ ـ ١٩ ، النجم ٥٣ / ٣٧ ـ ٤٠ ، ٢٥ / ١٣٣ ...
[5] ٦ / ٢٥ ، ٨ / ٣١ ، ١٦ / ٢٤ ، ٢٣ / ٨٣ ، ٢٥ / ٥ ، ٢٧ / ٦٨ ، ٤٦ / ١٧ ، ٦٨ / ١٥ ، ٨٣ / ١٣. وفيها ردّ التهمة.
[6] الشيخ الصالح، مباحث ...، ص ٤١ وما يليها.
[7] سورة الروم ٣٠ / ١ ـ ٣.
[8] سورة القمر ٥٤ / ٤٤ ـ ٤٥.
[9] انظر كتاب : « القرآن والعلوم الطبيعية » ، « القرآن والعلم » « القرآن والطب » ، « القرآن ومحاولة لفهم عصري » الخ ... ذُكِرَتْ قَبلاً.
[10] الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٤٧.

ان المعجزة الكبرى في الوحي المحمدي هو القرآن نفسه، فهو الوحي، وهو النبوّة، وهو الإسلام، وهو كلامُ الله الذي لا يأتيه الباطل. لهذا تحدَّى محمّد المشركين والكفَّارَ وأهلَ الكتاب والإنسَ والجنَّ والشعراءَ والعلماءَ والفصحاءَ والبلغاءَ والمقاتلين والمسالمين وأهلَ الحق واليقين وأصحابَ الروح والتصوّف والملائكة والقديسين وكلّ أصناف العالمين ... بأن يأتوا بمثلِ سورةٍ واحدةٍ من سُوَرِ القرآن لما استطاعوا ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً ومعيناً ...

وبكلمة : « القرآنُ هو نفسُ الوحي. وذلك تمامُ إعجازِه »[1]. ومن ذلك حديث الرسول في شرف القرآن : « انه ستكون فِتَنٌ كقِطَعِ الليل المظلم. فقلت: ما النجاة منها يا رسولَ الله؟ قال : كتابُ الله تباركَ وتعالى. فيه نبأُ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم. وهو فَصْلٌ ليسَ بالهزل. من تركه تجبّرًا قصَمه اللهُ، ومَن ابتغى الهدى في غيرهِ أضلَّهُ الله، وهو حَبْلُ اللهِ المتين، ونورُه المبين، والذكرُ الحكيم، والصراطُ المستقيم. هو الذي لا تزيغُ به الأهواء، ولا تتشعبُ معه الآراء، ولا يَشبَعُ منه العلماء، ولا يَمَلُّه الأتقياء، مَن عَلِمَ عِلمَه سَبق، ومن عَمِلَ به أُجر، ومَن حَكَم به عَدَل، ومن اعتصَم به فقد هُدِي إلى صراطٍ مستقيم »[2].

وبذلك لا شيء من كتبِ الأنبياءِ السابقين يضَاهِي القرآن. تلك الكتبُ كتبَها الأنبياءُ بإلهامٍ ربّاني، وهم يحتفظون بشخصيتِهم وإرادتِهم وأسلوبِهم ولغتِهم وحرّيتِهم، وفي القرآن ليس لمحمّد من ذلك شيء ...

[1] الدكتور مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن ...
[2] مقدمتان في علوم القرآن، تحقيق آرثر جفرى، ص ٢٥٦.

سَادساً ــ بين النبيّ محمد والأنبياء السابقين

لقد لاحظنا، من خلال بحثنا، أنّ بين نبوّة محمّد ونبوّة الأنبياء السابقين علاقةً قريبةً وتشابهًا ظاهرًا وتداخلاً صريحا. وذلك واضح في نشدان محمّد « تصديقَ » التوراة والإنجيل، وفي اعتبارِ نفسِه نبيًا من أنبياء العهد القديم. ويقوم هذا التقارب على نقاط عديدة. وكذلك أيضًا بين الوحي القديم والوحي الإسلامي خلاف في جملة أمور، نقف عندها.

١ ــ وجه المشابهة :

اعتبر محمّد نفسه نبياً من أنبياء الله[١] ، وصدّق أقوالهم[٢] ، واستشهد بهم[٣]، وعلّم تعاليمهم[٤] ، واستعمل أسلوبهم[٥]، وصنع المعجزات مثلهم[٦]. لقد بشّر بكلمة الله كما هم بشّروا[٧]، ووضع الشرائع الإلهية والقوانين الاجتماعية كما هم وضعوا[٨] ، وقام بوجه الوثنيين والكفّار كما هم قاموا[٩]. وشدّ مثلهم على وحدانية الله[١٠]، وأبرز مثلهم اهتمام الله بالبشر وعنايته بهم وحاجتهم إليه[١١] . وأظهر صلة الإنسان بالله كما هم فعلوا[١٢] ، وأبان كمالات الله كما هم أبانوا : فالله عندهم، خالق الإنسان والكون[١٣]، معتن بالخلق أجمعين[١٤] ، عليم بالإنسان وبمصيره[١٥]، سميع لتنهدات صدره[١٦] ، بصير بما يعمل في السرّ وفي العلانية[١٧] ، رحوم غفور لخطاياه[١٨]...

---

[١] القرآن ٢ / ١٣٦ ، ٤ / ١٦٣ ، ٣٣ / ٧ ...
[٢] ٢ / ٤١ ، ٩١ ، ٣ / ٥٠ ، ٥ / ٦٥ و ٤٨ ، ٣٥ / ٣١ ...
[٣] ١٩ / ٥١ ، ٢٨ / ٣ ، ٤٨ ، ٤٨ / ٢٩ ...
[٤] ٥ / ١٢٠ ، ٣ / ٤٨ ...
[٥] ٤٢ / ٥١ ، ١٣ / ١٧ ، ١٤ / ٢٥ ، ٢٤ / ٣٥ ...
[٦] ٣ / ٨٦ ، ٤٠ / ٦٦ ، ٦١ / ٦ ، ٧٢ / ١ ...
[٧] ٧ / ١٥٧.
[٨] ٤٢ / ١٣ ، ٤٥ / ١٨ ...
[٩] ٩ / ٧٣ ، ٦٦ / ٩ ...
[١٠] ٢ / ١٦٣ ، ١٨ / ١١٠ ، ٢٢ / ٣٤ ، ٢١ / ١٠٨ ، ١٦ / ٥١ ...
[١١] ٤ / ٤٠ ، ١٠ / ٦١ ، ٣٤ / ٣ ، ٩٩ / ٧ ...
[١٢] ٢٦ / ١٧ ، ٣٠ / ٥ ، ٤٩ / ١٢ ...
[١٣] ٦ / ١٠١ ، ١٦ / ٣ ، ٤ ، ٥٥ / ٣ ...
[١٤] ٢ / ٢٩ ، ٦٤ / ٣ ، ٨٢ / ٧ ...
[١٥] ٥ / ٩٧ ، ١١ / ٥ ، ٣٩ / ٧ ...
[١٦] ٢٦ / ٢٢٠ ، ١٤ / ٣٩ ، ٣ / ٣٨ ، ٢ / ٧٧ ...
[١٧] ٢ / ٣٣ ، ١٤ / ٣٨ ، ٥ / ٩٩ ، ١٦ / ١٩ ...
[١٨] ٧ / ١٤٩ ، ١٥٥ ، ٣ / ١٢٩ ، ٥ / ٣٤ ، ٢٣ / ١١٨ ...

وشأن الوحي، في الأنبياء كما عند محمّد، انّه اعلان الله ذاته بذاته بواسطة أنبيائـــه، لأنّ الله لا يكشف عن مقاصده الخفية الا لعبيده الأنبياء[١]، لأنّه الهٌ محتجِبٌ عن بصائر البشر، فلا ينالُه انسانٌ مطلَقا، ويفوقُ مدارِكَ كلِ إنسان بما لا يُحدّ[٢]. فلولا الوحي لبقيتْ ذاتُه مستترةً، وأسرارُه خفيّةً، ومعرفتُه مستحيلةً، وصفاتُه غيرَ مدرَكة، واسمُه محتجِبًا على الجميع[٣]. ولولا الوحي لعجزَ الإنسانُ عن تدبير خلاصِه، وتنظيمِ حياته الدنيا، وترتيبِ أمورِ نفسه، لذلك كانتِ الشريعةُ الإلهيةُ نظاماً للبشر وقاعدة لسلوكهم[٤].

ثم انّ النبوّة، في الإسلام كانت أم في اليهودية، هي هبةٌ من الله مجّانيّة، تُعطى لبعض الناس فيتكلّمُ بما يمليه عليه الله، لا بما يمليه عليه عقله : جاء في رسالة القديس بطرس : « لم يأت نبوّة قط بإرادة بشر، ولكن الـــروح القدس حمل بعض النـــاس على أن يتكلّموا من قبـــل الله »[٥]، وجـــاء في سورة طه: « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى »[٦] ، وجاء أيضًا في ســـورة النحل : « قل نزّله روح القدس من ربّك »[٧] ، وأيضًا في سورة الشعراء: « نزل به الـــروح الأمين على قلبك »[٨].

فمبدأ النبوّة، ومواضيعها، وطرقها متّفقة اذن فيما بين القرآن والنبوّات القديمة. ولهذا جاء كتاب محمّد « مصدقاً لما بين يديه من التوراة »[٩] أو هو « تصـــديق الـــذي بـــين يديـــه وتفصيل الكتاب »[١٠].

٢ ــ أوجه التباين والخلاف :

انّ ما يجعلُ النبوّةَ في الإسلامِ تختلفُ عمّا هي في اليهودية أكثر ممّا يقـــارب بينهـــا. ونقاطُ التباينِ لأعمقُ من نقاطِ الوفاق. وأهمّ ما يقع عليه التباينُ يكمنُ فيما يلي : فـــي ســـيرةِ الأنبياءِ مع الله، وفي صراعِهم مع ما لا يستطيعون حَمْلَه، وفي ضغط كلمةِ الله علـــيهم وفـــي

---

[١] النبي عاموس ٣ / ٦ قابله مع سورة طه ٢٠ / ١٣.
[٢] أيّوب ٤٢ / ٣ وأشعيا ٤٥ / ١٥ قابل الانعام ٦ / ١٠٣ و ٧٠ / ٥ ..
[٣] تثنية الاشتراع ٢٩ / ٢٨ ، دانيال ٢ / ٧ قابل الشورى ٤٢ / ١١ ...
[٤] خروج ٢٠ / ١ ـ ١٧ وتثنية الاشتراع ١٢ ـ ١٦ / ١٥ ـ معظم سور القرآن.
[٥] ٢ بطرس ١ / ١٩ ـ ٢١
[٦] طه ٢٠ / ١٣.
[٧] ١٦ / ١٠٢.
[٨] ٢٦ / ١٩٣.
[٩] ٥ / ٤٦ ، انظر ٢ / ٤٨ ، ٤١ ، ٩١ ، ٩٧ ، ٣ / ٣ و٣٩ و٥٠ ، ٤ / ٤٧ ، ٣٥ / ٣١ ، ٤٦ / ٣٠ ، ٦١ / ٦
[١٠] ٢ / ١٠١ ، انظر ٢ / ٨٩ ، ٣ / ٨١ ، ٦ / ٩٢ ، ٤٦ / ١٢ ...

شعورِهم بثقلِ الرسالة الملقاة على عاتقهم، وفي تردّدِهم المستمرّ في اتّباعِ طـرق الله حتـى نهايتها، وفي غير ذلك ... كل هذه لم يتعرّضْ محمّدٌ لِمَتَاعِبِها في سيرتهِ مع الله. فلننظر :

* لقد تلقّى النبيّون الوحيَ من عند الله متردّدين، لأنّهم غيرُ جديرين بالقيـام بعـبءِ الوحي الثقيل، ولأنّ عيوبَهم البشريّة كثيرةٌ لا تخوّلهم الامتثالَ أمام الله، ولأنّ الخوفَ يعتريهم عندما يسمعون كلمةَ الله : لقد قال موسى انّه غيرُ جديرٍ بمثلِ هذا العمل : « لستُ أنا صاحبَ كلامٍ منذ أمس ولا أوّل من أمس ... بل أنا ثقيلُ الفم واللسان »[1]. وشعَرَ أشعيا بأنّ عيوبَه أمامَ أمامَ الرب كثيرةً : « ويلٌ لي انّي هلكتُ لأنّي إنسانٌ نَجِسُ الشفتين، وأنا ساكِنٌ بـين شـعبٍ نَجِسِ الشفتين، لأنّ عينيّ قد رأَتا المَلِكَ ربَّ الجنود »[2]. وأحسَّ أرميَا بخـوفٍ كبيـرٍ عنـدما دعـاه الله ، وكان لا يزالُ فتى، فقـال : « آه يا سيّد الـرب، أني لا أعرفُ أن أتكلّم لأنـي ولد... »[3].

* وفوق ذلك، يظهر الوحيُّ وكأنّه محنةٌ ابتلَى اللهُ بها عبيدَه الأنبياء : فهـذا موسـى الذي ابتلاه الله بشعبٍ قاسي الرقبة[4]، وايليّا الذي التمس لنفسِه الموت[5]، وأرميا الذي أمرَه الربّ الربّ أن يصنَع « رُبُطًا وأنيارًا ويجعلَها على عُنُقِه »[6]، ويُعلِنُ موقفَه بقولهِ : « قد خَدَعْتَني يا ربّ فانخدعتُ، ألححتَ عليّ فَغُلِبْتُ »[7]، وأشعيا يُثيرُ النزاعَ بينَه وبين الله[8]، ويكلّمه اللهُ بإلقـاءِ يدِه عليه وبإنذارهِ ايّاه[9]، وحزقيال يرضخُ ليدِ الرب القديرةِ تدفعُه إلى الهـربِ والاسـتنكار[10] غيرهم ... لكأنّ الوحيَ مصيبةٌ تثقّلُ كاهِلَهم وتجعلُ منهم « إنسانَ خصامٍ ونزاعٍ للأرض كلّها »[11].

* وفوق ذلك أيضًا، يدفع الوحي بالأنبياء أحيانًا إلى الاستشهاد والموت في سبيل الله. فلا الهرب، ولا الثورة، ولا الشكوى المريرة، ولا أيّ شيء آخر يستطيع أن ينجّي النبيَ مـن ضغطِ الله عليهِ. وبقدر ما يرفضُ النبيّ مهمّتَه ووحيَه بقدر ما يستحثُّه الـوحيّ للخضـوع :

---

[1] سفر الخروج ٤ / ١٠.
[2] نبوة أشعيا ٦ / ٥.
[3] نبوة ارميا ١ / ٦ ـ ٨.
[4] سفر العدد ١١ / ١١.
[5] سفر الملوك الثالث ١٩ / ٤.
[6] ارميا ٢٧ / ١٨.
[7] ارميا ٢٠ / ٣ ـ ٩.
[8] اشعيا ٦ / ٨.
[9] اشعيا ٨ / ١١.
[10] حزقيال ٣ / ١٤.
[11] ارميا ٥ / ١٠.

فغضبُ الله أجبرَ تعنّتَ موسى لقبولِ الرسالةِ، والعاصفةُ والتنّين أعادَا يونانَ بالقوّةِ إلى النبوّة، وايليا أعِدَّ مرغَمًا لرسالة جديدة، وأرميا بقي أسيرًا لكلمة الله ...

وليس من نبيّ استطاعَ التفلّتَ من يد الله. وقد عبّرَ النبي عاموس باسهابٍ عن هذه الملاحَقَةِ الإلهية، ومثّلَ نفسَه مع اللهِ بقول : « كالأسدِ وفريستِه، والعصفورِ وفخّهِ، والبوقِ في الحرب. تكلّمَ الله فمَنْ لا يتنبّأ ؟ »[1]. وشهد التاريخُ النبوي على استشهادِ الأنبياء شهادةَ واقعٍ : لقد أُعدِمَ الأنبياءُ في أيام آخاب[2]، وفي أيّام منسّا[3]، وفي أيّام يواكيم[4]. ولم يرَ أرميا ذلك أمرًا غريباً[5]، إذ أصبحَ الموت في سبيل الله أيّامَ نحميا شيئًا عادياً[6]. وقد أشارَ المسيح إلى هذه الحالة الحالة النبويّة التعيسة بوضوح، فقال : « أورشليم قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها »[7].

* يجب أن نقرّ ونعترف : إنّ محمّداً كان مع الله مرتاحاً ومرتاحاً جدّاً. بل كان على « سكينة » واطمئنان تامّين. جاء في القرآن : « أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين »[8]، و « أنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تَروها »[9]. وليس في القرآن صلاةٌ واحدة بها يتضرّع النبي إلى الله ليبعد عنه ثقل الرسالة والمهمّة. بل انّه آمِنٌ من كل خوفٍ ورعدة أمام عظمة الله وجبروته. وجلّ من نرى من متاعبَ أنهكتْ قوى النبي كان يأتيه ذلك من الكفّار والمشركين. أمّا مع الله فهو يرى نفسَه أهلاً لذلك، وبمقدوره أن يقومَ بهذه الدعوة. وما نراهُ في كتب السيرة والأحاديث شيء لا يعتدّ به ولا يحسب له حساب.

* أمّا التباين الأشدّ عمقاً فهو في موضوع النبوّة. من المعروف أنّ موضوعَ النبوّة انما يكون من طبيعةٍ دينية، إيمانيّة، خلاصيّة، لا بحث فيه عن المعضلات العلمية، والأمور التاريخية، ولا معالجة في نظريّات ما ورائيّة أو فلسفيّة أو اجتماعيّة. موضوع النبوّة الأساسي هو إعلان الله عن مقاصده التي فيها يعلن عن عمله الخلاصي. الخلاص، خلاص الإنسان هو موضوع الوحي والنبوّة، وهو مقصود الله، وتدبيره، ومشيئته ... ولن نجد، في القرآن، شيئاً من ذلك، بل لا ورود، في القرآن، لكلمة « خلاص » ... في حين أنّ موضوعَ نبوّاتِ العهد القديم الأساسي هو الإعلانُ عن مجيء « المخلّص » ، الذي تحقّقَ، في المسيحية ، بـ« المسيح » . لذلك، فبالنسبة إلى المسيحية، عندما جاء المخلّص، انتهت النبوّة، أي عندما

---

[1] عاموس ٣ / ٣ ـ ٨.
[2] ٣ ملوك ١٨ / ٤ و ١٣ ، ١٩ / ١٠.
[3] ٤ ملوك ٢١ / ١٦.
[4] ارميا ٢٤ / ٢٠ ـ ٢٣.
[5] ارميا ٢ / ٣٠.
[6] نحميا ٩ / ٢٦.
[7] متى ٢٣ / ٢٧.
[8] ٩ / ٢٦ ، ٤٨ / ٢٦.
[9] ٩ / ٤٠ ... انظر المقدمة ص ٢١ ـ ٢٣.

تحقّقت النبوّات في المسيح بطلتْ. وأَحداثُ النبوّات القديمةِ لم تَكنْ لِتدرَك عانيها لولا أحداثْ المسيح وتعاليمُه وأعمالُه التي فسّرتْها وأعطتْها المعاني الحقيقيةَ لها : فالمسيح، بالرؤيةِ المسيحية، أظهرَ كلَ سرّ مكتوم منذ الأزل[١]، وأوحى معنى الكتب المحتجب[٢]، وانتهى به الناموس وعَمَلُ الناموس[٣]، وانكشفَ به كلُ مستور : « لا شيء يبقى مستوراً بعد اليوم، كلُ شيءٍ يجبُ أن يظهر، ولا شيء يجبُ أن يبقى غيرَ معروف »[٤]. ولولا المسيح لما انكشف سرّ الله للناس[٥]...

هذه الحقائق النبويّة، في اليهوديّة كما في المسيحية، لا نجد لها مثيلاً في الإسلام، لأنّ موضوعَ النبوّة المحمّدية وغايتَها يختلفان تماماً عن موضوع النبوّة وغايتِها عمّا هي في المسيحية. ولئن أعلنَ محمّد بأنّه « خاتَم النبيين »[٦]، فلا شيء يشير إلى أنّه من طينتِهم وجبلتِهم ورسالتِهم ومهامّهِم، كما لا شيء يشير إلى أنّه يُتِمُّهُم ويكمّلُهم.

* ومن حيث أساليب النبوّة فهناك أيضًا تباينٌ واضح في الإسلام عمّا هي في اليهوديّة. لقد أتى الوحيُ الأنبياءَ بطرقٍ شتى وأساليبَ مختلفة[٧]، وذلك بحسب قدرةِ الناس على فهمها، وبحسب مقاصدِ الله في إعلان الحقائق الموحاة. وأهمّ ما في التوراة من أساليب الوحي هو كما يلي :

أ ــ الأحلام والرؤى. هي أولى أساليب الوحي التي أوحى بها الله إلى أنبيائه. وقد استعملها الأنبياء بعد أن أخذوها عن الشعوب الشرقيّة القديمة وجرّدوها من بقايا السحر والشرك والتنجيم[٨]، وبعد أن أضافوا إليها بعض القيم الروحية الخاصّة بهم وبالشعب اليهودي. اليهودي. وقد رضي الله ذاته عن هذه الطرق التقليدية البدائية : فالكهنة كانوا يطلبون قضاء أوريم وتوميّم لمعرفة قصد الله[٩]، ويوسف كان يملك قدحا للكهانة[١٠]، وهو خبير في تفسير الأحلام[١١]؛ لكأنّ الأحلام هي، عند اليهود، علامات السماء[١٢]. وبقي هذا حتى جيل متأخّر[١].

---

[١] انجيل مرقس ٤ / ١١ ...
[٢] انجيل متى ١٦ / ٢١ ...
[٣] انجيل يوحنا ١٩ / ٢٨ ، رسالة غلاطية ٤ / ٤ ..
[٤] انجيل مرقس ٤ / ٢٢.
[٥] انجيل متى ١١ / ٢٧.
[٦] سورة الأحزاب ٣٣ / ٤٠.
[٧] الرسالة إلى العبرانيين ١ /٢.
[٨] أحبار ١٩ / ٢٦ ، تثنية الاشتراع ١٨ / ١٠ ، ١ ملوك ١٥ / ٢٣ ، ٢٨ / ٣ ..
[٩] سفر العدد ٢٧ / ٢١ ، تثنية الاشتراع ٣٣ / ٨.
[١٠] سفر التكوين ٤٤ / ٢ و ٥.
[١١] سفر التكوين ٤٠ / ٤٠ و ٤١.
[١٢] تكوين ٢٠ / ٣ ، ٢٨ / ١٢ ـ ١٥ ، ٣١ / ١١ ، ٣٧ / ٥ ـ ١٠.

ولكن عرف نو إسرائيل فيما بعد كيف يميّزون الأحلام الصادقة التي تأتي من الله[٢] من الأحلام الكاذبة التي يقوم بها الكهان المحترفون[٣]، وقد نقضها الأنبياء واعتبروها غير صادقة[٤].

أمّا بالنسبة إلى الإسلام، فلن تكون الأحلام من أساليب النبوّة الصحيحة : لقد اعتبر النبي محمّد الأحلام كوسوسة شيطانيّة يقوم بها الشيطان ليبعد النبي عن مهمّته، لذلك نرى القرآن يقول : « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين »[٥]، وينسب الأحلام إلى الشعراء : « قالوا : أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هو شاعر »[٦]. أمّا بالنسبة إلى الرؤيا فيختلف الحال. انها صادقة وحقّ : « قد صدقت الرؤيا »[٧] أو لقد صدق الله رسول الرؤيا بالحقّ »[٨]. لهذا فهي فتنة للناس لأنهم لا يدركون كنهها: « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس »[٩].

ب ــ ثم تخطّى الأنبياء هذه الطرق البدائية في تقبّل الوحي، وأصبحت النبوّة معهم في مرحلتها الثانية تعتمد على الرؤية والسماع[١٠]. الاّ أنّ الرؤية بقيت لغزاً لا يكشف عن حقيقة النبوّة، لذلك استتر برموز من الأديان الشرقية القديمة وبإشارات غامضة لا يدركها عامّة الناس[١١]، ولذلك أيضًا استتر برموز وإشارات ابتكرها الأنبياء ليخفوا عن الناس كيفية رؤيتهم لله وحصول الوحي والنبوّة[١٢]. ولكن بعض الأحيان يكون سماع ولا تكون رؤية، لأن رؤية وجه الله أخطر من سماع صوته، بل لا يستطيع إنسان أن يرى وجه الله ويبقى حيًّا[١٣].

أمّا بالنسبة إلى الإسلام فلم يذكر القرآن أنّ محمداً رأى الله أو سمع صوته. جل ما يذكره أن الله أعطى محمّداً أن يرى آياته فقط[١٤]، ولا يحقّ للنبي أو لأي إنسان آخر أن يرى وجه الله بحال من الأحوال[١٥]، كما لا يحقّ له أن يسمع صوته. وما يسمعه هو آيات من الله[١٦]. فليست الرؤية إذن ولا السماع من طرق الوحي في القرآن. هناك فقط المَلَك جبريل، ساعي البريد النبوي الأمين، والواسطة التي قامت بالمهمّة.

---

[١] قضاة ٧ / ١٣ ، ٢ ملوك ٢٨ / ٦ ، ٣ ملوك ٣ / ٥ ـ ١٤.
[٢] عدد ١٢ / ٦ ، تثنية الاشتراع ١٨ / ٢.
[٣] أحبار ١٩ / ٢٦ ، تثنية الاشتراع ١٨ / ٢.
[٤] اشعيا ٢٨ / ٧ ـ ١٣ ، ارميا ٢٣ / ٢٥ ، جامعة ٥ / ٢ ، سيراخ ٣٤ / ١ ...
[٥] سورة يوسف ١٢ / ٤٤.
[٦] سورة الأنبياء ٢١ / ٥.
[٧] سورة الصافات ٣٧ / ١٠٥.
[٨] سورة الفتح ٤٨ / ٢٧.
[٩] سورة الاسراء ١٧ / ٦٠.
[١٠] سفر العدد ٢٣ / ٣ و ١٥.
[١١] ١ ملوك ٢٢ / ١٦ ، اشعيا ٦ /١ ، حزقيال ١ / بمجمله.
[١٢] ارميا ١ / ١١ ، حزقيال ٩ بمجمله، عاموس ٧ / ١ ـ ٩.
[١٣] سفر الخروج ٣٣ / ٢٠ ، انظر : ١٩ / ٢١ ، أحبار ١٦ / ٢ ، عدد ٤ / ٢٠.
[١٤] القرآن : ١٧ / ١ ، ٢٠ / ٢٣ ، ٥٦ ، ٧٩ / ٢٠ ...
[١٥] القرآن : ٦ / ٧٦ ـ ٧٨.
[١٦] القرآن : ٢٠ / ١٨.

ج ــ ثم هناك وحي بطرق أخرى : بإعمال الفكر، وميل القلب، والاعتماد على الفطنة[1]، والأخذ بالحكمة[2]، فهي كلّها من جوهر الله ومن طرقه في الوحي[3]... هذه الأساليب الأساليب النبويّة، بمعناها الكتابي، لا يوجد منها شيء في الإسلام. ولئن رأينا بعضها في القرآن فذاك يكون تلميحاً، ومن باب التعليم الذي اتّخذه النبي محمّد ليفهم الناس مدى علاقتهم بالله.

* ثم انّ بين نبوّة العهد القديم ونبوّة الإسلام فرقاً آخر، وهو من صميم الحياة النبويّة. ويقوم على أنّ النبي لا يستفيد لنفسه من نبوّته، بقدر ما يفيد الآخرين. النبوّة عطاء وتضحية تتعدّى شخصيّة النبي. قد يجلب النبي على نفسه العذاب والآلام الكثيرة في سبيل الخدمة. وقد تقوم عليه قيامة البشر أجمعين، لأنّه لا يراعي أميالهم وأهواءَهم. انّه « إنسان خصام ونزاع للأرض كلّها »[4]. انّه سائح في الأرض تائه من أمام وجه الله، لا يعرف راحة ولا لذّة ولا هدوء، مضطهَد لا عزاء له فيما بين البشر. يهمّه الخدمة حتى التضحية في سبيل شعب الله[5] ...

غير ذلك أمر النبيّ العربي : لقد خاض معارك كثيرة، وجاهد في سبيل « مغانم كثيرة » ، وأسّس حكماً ودولة، واضطهد الناس بالسيف العنف. وهو يَعِدُ أصحابَه بـ « مغانم كثيرة يأخذونها »[6]، و « عند الله مغانم كثيرة »[7]. و « أغناهم الله ورسوله من فضله »[8] ... لقد كان محمّد، على الناس، حَكَمًا وقائدًا وقاضياً يقسّم الأرزاق والمغانم فيما بينهم، ويستفيد منها « الخمس »[9]. في حين أن المسيح أجاب رجلاً يريد اقتسام الميراث مع أخيه : « يا رجل، من أقامني عليكم قاضياً أو قسّاماً ؟ »[10].

* وفرق آخر : لقد كان أمنيةُ الشعب اليهودي أن تكون النبوّة مشتركة وعامّة بين كل أفراده. لهذا صلّى موسى وتمنّى على الله : « ليت جميع أمّة الرب أنبياء، يجعل الرب روحه

---

[1] سفر الأمثال ٢ / ١ ـ ٥ ، ٨ / ١٢ و ١٤.
[2] سفر الحكمة ٢ / ٦.
[3] سفر الحكمة ٧ : ١٥ ـ ٢١.
[4] نبوة أرميا ٥ / ١٠.
[5] انظر : أيوب ٤٠ / ٤ ، اشعيا ٦ / ٨ ، حزقيال ٢ / ٢ ، ارميا ٢ / ٦ ...
[6] سورة الفتح ٤٨ / ١٩.
[7] سورة النساء ٤ / ٩٤.
[8] سورة التوبة ٩ / ٧٤.
[9] سورة الأنفال ٨ / ٤١.
[10] انجيل لوقا ١٢ / ١٣ ـ ١٤ ولكن موسى كان قائداً وقاضياً : خروج ٢ / ١٤.

عليهم! »[1]. ورغب إسرائيل أن يكون لله « مملكة أحبار وشعباً مقدّساً »[2]. فلا يعود هناك تمييز في مملكة الله، أو تباين بين أفراد الأمّة اليهودية في علاقتهم بالله.

أمّا في الإسلام فالأمر يختلف تماماً : لن تكون النبوّة في المسلمين الاّ لمحمّد، ولن تعطى النبوّة بعد محمّد لأحد. لقد أُغلِقَ البابُ وأُحكِمَ غَلقُه، وكان « خاتَم النبيين »[3]. ولن تكونَ تكونَ كلمة الله على الإنسان واحد بعد محمّد يستحقّ أن يكونَ وسيطاً أو شفيعاً أو قدّيساً غيره لدى الله. فالنبوّة، في الإسلام حَكَرٌ لمحمّد، رغم أن صفاتِ النبوّة تنطبقُ على ثيرين من الناس المتفوّقين. ولهذا كثير منهم ادّعى، في الإسلام، النبوّة لنفسه : « فمن أولئك مسيلمة بن حبيب الكذّاب ... وعبهلة بن كعب ... وطليحة بن خويلد الأسدي ... وسجاح بنت الحارث التميمية ... والنضر بن الحارث ... وابن المقفع الكاتب البليغ ... وابن الراوندي ... وشاعر الإسلام أبو الطيّب المتنبّي ... وأبو العلاء المعرّي ... »[4].

* وأخيرًا، ان النبوّة في اليهوديّة لها قيمةُ ادراكِ المطلَق أكثرُ من كونها استباقَ معرفةِ المستقبل، أو تنظيمَ أحوال المجتمع، أو تأسيسَ دولةٍ إلهيّة على الأرض، أو سنَّ شرائعَ وقوانين، أو إدراكَ وقائعِ العلوم قبل اكتشافها، أو معرفةَ حلولِ عِقَدِ الإنسان ومشاكلِه، أو غيرَ ذلك ممّا نراه في الإسلام. ولئن كان للنبوّاتِ القديمة معنى اكتشافِ المستقبلات قَبْلَ حدوثها، فانّها تطمعُ بذلك من اكتشافِ المطلَق ومعرفتِه. فالنبوّة كانتْ حَنِيْنًا إلى معرفةِ الله أكثرَ منها حنينٌ إلى معرفةِ الغد. وجوهرُ النبوّة يقوم على ادخال الله في تاريخ البشر، وعلى اعلان مقاصدَ الله الخلاصية، وفي النتيجة على تجسّدِ الله فيما بين البشر ليتمكّنوا من سعادتهم به. وهذه كلها أمور لا شأن لنبوّة محمّد ووحي القرآن فيها.

بعد هذا كلّه، يجب أن نعرف جملة أمور هامّة في مفهومِ الإسلام للوحي والنبوّة. هذه الأمور هي من خصائص المسلمين دون سواهم من الناس :

---

[1] سفر العدد ١١ / ٢٩.
[2] سفر الخروج ١٩ / ٦.
[3] سورة الأحزاب ٣٣ / ٤٠.
[4] انظر الدكتور مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن، ص ١٧٢ ـ ١٨٧ حيث يستعرض المتنبئين وسيرتهم وأعمالهم في منافسة القرآن ...

أوّلاً ــ إن الإسلام مؤسّس على القرآن، لا على محمّد. وقد يزول محمّد ويبقى القرآن فيبقى الإسلام ما بقي القرآن.

ثانياً ــ إن القرآن دليلٌ على رسالة محمّد وبرهان وحيد على نبوّته، وليس العكس. ولو كان العكس صحيحاً لكان الرسول أسمى من الرسالة، ولكان محمّد أعظم من القرآن. والحال إن الرسالة هي الأصل. ولم يكن محمّد الاّ بشيراً ونذيراً ومبلّغاً. قال القرآن : « وما على الرسول الاّ البلاغ المبين »[1] و « إن لم تفعل فما بلّغت رسالته »[2].

ثالثاً ــ إن القرآن لا يُظهرُ شيئاً عن الرسول : عن سيرتِه وأعماله وأقواله، وإن فعلَ شيئاً من ذلك فبالعَرَض. ولا يُعْقَل أن يكونَ الأمرُ غيرَ ذلك، لأنّ القرآنَ، في معتقدِ المسلمين، كتابٌ أزليٌّ سابقٌ وجودُه على وجودِ محمّد.

رابعاً ــ إنّ العِلمَ في الإسلام هو « عِلمُ القرآن » ، لا « عِلمُ الله » أو ما يسمّى اليوم بـــ « اللاهوت » ، لأن الله، في الإسلام، لا يُدْرَك، ولا يُوْصَف. ولئن نرى، اليوم، عند المسلمين، بعضَ دراساتٍ عن مواضيعَ الهيّة، فتبأثيرٍ من الآدابِ المسيحية واللاهوتِ المسيحي. الأصلُ في علوم الإسلام هو « علومُ القرآن » ، إذ القرآنُ هو « كلامُ الله » ، وعليه تدور المباحثُ والأبحاثُ والعلمُ والمعرفةُ والخلاصُ والأدلّةُ والاطمئنان ... وان صحَّ لدينا إنشاءٌ كلمةِ « كُورَانُولُوجِي » فتكونَ متناسِبةً مع ما يُسَمَّى بالمسيحية بـــ« الكريستولوجي » ، وليس لـــ « علم الإنجيل » من مكان في اهتمام المسيحيين.

خامساً ــ إن الأحداثَ التي ألزمتْ نزولَ الآياتِ زالتْ. ولكنّ لآيات لا تزول. وكيف يكون ذلك : الأحداث تتغيّر والآياتُ الحاكيةُ عنها لا تتغيّر!! كيف يتغيّرُ المجتمعُ والعصرُ والعلم والناسُ، ونظمُ القرآنِ هي هي لكل مجتمعٍ وعصر وعلم!! لئن جازَ للنبي نَسْخُ آياتٍ بآياتٍ طيلةَ ثلاثٍ وعشرين سنة، أفلنْ تكفي ألفٌ وأربعُمائةِ وسنتان لِنَسْخِ آياتٍ، وتنزيلِ أخرى من لدن الرب الرحيم!!

ولكن، إذا عرفنا منطقَ القرآنِ والإسلام والمسلمين، نتأكّد أنّ العالَم القرآني يدورُ في زمن دائري، على طريقةِ الميتولوجيّة اليونانيّة، ويوحي من الصحراءِ المترامية الأطراف، وبإلهامِ السماء اللامتناهية. كل ما في الإسلام على نَحْوِ سَبَق. لهذا فتطوّرُ الحياةِ وتغيّرُ الاحداثِ لا قيمةَ لها البتة في نِظرةِ المترامي الأبعادِ واللامتناهي الحدود. فالكلُ في القرآن يدور على نفسِه وعلى مثالٍ سابقٍ محتّم.

---

[1] القرآن : ٢٩ / ١٨ ، ٢٤ / ٥٤ ، ٥ / ٩٢ ...
[2] القرآن، سورة المائدة ٥ / ٦٧ ...

سادساً ــ إنّ القرآن هو كتابُ عقيدةٍ وتشريعٍ ونُظُم حُدِّدَتْ وَثّبِتَتْ من لدنِ العليّ العليم، ولا شأنَ فيه للوقائعِ الزمنيةِ المتبدلّة. هو كتابُ دينٍ فيه من الفرائضِ والواجباتِ المنزلَةِ ما لا يستطيعُ الإنسانُ، في ظروفهِ الراهنة، تبديلَ شيءٍ فيها. انه كتابٌ يُشِيدُ بـ « تَعَالِيَةِ » اللهِ، وَبُعْدِهِ عن الإنسان، ووحدانيتِه المطلقة، حتى لم يبقَ له بالإنسانِ الضعيفِ أيّةُ علاقة. ومن هنا كانت بعضُ الفِرَقِ التي نشأتْ في الإسلامِ وَنَمَتْ تَرَى نفسَها مضطرَّةً لبعضِ التجسّداتِ الإلهيةِ، فكانتِ الدرزيةُ تقول بتجسّدِ اللهِ في الحاكِم، والنصيريةُ في عليٍّ، وغيرها ... حتى المسلمونَ أنفسُهم اضطُرّوا إلى أن يُعطُوا لمحمّد دورًا إلهيًا وصفاتٍ كماليّةٍ حتى كادَ يلامس التأليه ...

خاتمة الفصل

إذا أردنا استقصاءَ معجزاتِ الله مع نبيّه، في هذا الفصل، لعجزنا عن حصرِها وتعدادها؛ بل إنّها فائقةُ الوصفِ والحدّ : فمِن معجزةِ اختيارِ الله لمحمّد منذ الأزل، إلى معجزاتِ استقبالهِ الظافر قَبْل مجيئه، إلى معجزاتِ مولدِه، وطفولتهِ وزواجِه من خديجة، إلى معجزاتِ جبريل ساعي البريد النبويّ الأمين، الذي استمرَّ على اتّصالٍ دائم مع النبي طيلةَ ثلاثٍ وعشرين سنة، إلى معجزةِ اشتراكِ خديجة بتفسير الرؤى والأحلام وبتأكّدها من الوحي ينزلُ على زوجها، إلى معجزةِ تنقّلِ خديجة فيما بين بَعْلِها وابنِ عمّها القسِّ ورقة، إلى معجزاتِ الوحيّ ينصبُّ على النبيّ فتتغيَّرُ الجنُّ والشياطينَ لِهَول ما يسمعون فإذا الواحِدُ منهم يتسمّع ويقول لأخيه : « انّا سَمِعْنَا قرآنا عجبا » (٧٢ / ١) ...

لقد تفتّحت أبوابُ السماء، ونشطتِ الملائكةُ تسعى فيما بين الله ومكّة، وجندُ الله يحرسون طريقَ جبريل على الصفّين، وهو يحملُ إلى محمّد أعظمَ هديّةٍ من السماء إلى الأرض، ألاَ وهي كلامُ الله. واستمرَّ جبريلُ محظوظًا بهذه الرسالة، ويتشوّفُ على خَلق الله أجمعين. ومِن حظِ جبريل العظيم ألاَّ يُسَلِّمَ الهديةَ دفعةً واحدة، لئلا تنتهي مهمّتُه سريعاً، بل راحَ يقسِّطُ الآياتِ، واحدةً فواحدة، لتطولَ مدّةُ تنقّلِه السعيدِ فيما بين الله والنبيّ، أو لأنَّ جبريلَ استلذَّ دفء بيتِ النبي، أو أيضًا لأنّه سَئِمَ من البطالةِ التي طالَتْ مدّتُها أكثر من ستّمائة سنة...

وبعد خمسة عشر جيلاً ما الذي حدثَ لجبريل! ألم يعد إلينا نحن المساكين! ألم يسئمْ من تسابيحَ رفاقِه الأطهار! ألا يعودُ ليرى ماذ صار برسالته النبويّة! ألا تلذُّ له العودةُ إلى الأرضِ، وقد أصبحَ كلُ شيء فيها جميلاً، منظَّماً، كاملاً، بتلك الآياتِ التي نزّلَها قديمًا إلينا! أليسَ عنده شيءٌ جديدٌ يريدُ إرسالَه إلينا! ألعلَّ الله لم يَعدْ يَثِقُ به! أو لعلّه خانَ اللهَ وحرّفَ فيما نزّلَه علينا منذ مدّة! لماذا اختفَى صديقُ الأرض القديم! ما معنى هذا الاختفاء السرّيّ، ونحنُ بأمسّ الحاجة إليه!

ألم يرَ جبريلُ في كتابِ الله فسادًا! وانّه يقعُ في أيدٍ غيرِ مطهَّرة، وهو قد حذَّرَنا منذ البدءِ بأن « لا يَمَسُّه الاّ المطهّرون » (٥٦ / ٧٩)! أليس من رسالةٍ جديدة تُزيلُ الفساد، أو تُعطينا من عندِ الله شيئًا جديداً! أم ليس عند الله، بعد القرآن، شيءٌ جديد! هل حصرَ الله كلَ ما عنده بين دفّتي الكتاب المجيد! أم عندَه أشياءُ ضَنَّ بها علينا! هل في القرآنِ كلُ ما يكفينا إلى الأجيالِ القادمة! أم أنَّ عند الله مفاجأةً قرآنيّةً أخرى، قد تَنزِلُ علينا غدًا أو بعدَ غد! ويعودُ جبريل إلى مَسعاهُ القديم في نقلِ الكلامِ والهروبِ من السماء إلى أحضانِ مَنْ في الأرض! علَّ

جبريل يحظى بمحمّديّ آخر! فلماذا نوصد بوجهه الأبواب! ونمنع على الله القدير وحياً جديداً يستطيعه!

أقول لكم : لا تيأسوا! سيعود جبريل، ولكن بلا جناحَين، ليمكث بيننا، ويحـــلّ فينـــا، ويهتمّ بكل واحد منّا. وهكذا تعمّ رسالتُه، ويرفرف وحيه، فيكون كلُ شعب الله أنبياء، أيُّ حظّ يكونُ لنا إن كان هذا مطلبُنا! ألا فلينعم المؤمنون بحبّ لله جديد. ولتأخذ المعجزة مجراها فـــي عالم المعجزات!

الفَصْلُ الثَّاني

مُعْجزة « أمّيّة » محَمّد

أَولاً ــ القلم العربي

ثَانياً ــ القراءة والكتابة في مكة

ثَالثاً ــ وسائل الكتابة

رَابعاً ــ أمّيّة الرسول

مقدّمة الفصل

في إيمان المسلمين أنّ النبيّ محمّدًا كان « أمّيّاً » ، لا يعرف الكتابةَ ولا القراءَة، وانّ مكّة كانت غارقةً في « جاهليةٍ » متمكّنةٍ بعقولِ أهليها. واستدلّوا على رأيهِم في « أمّيّة » محمّد بما جاء في القرآن عن « الرسول النبيّ الأمّي »[1]، واستدلّوا على « جاهليّةِ مكّة بحديثٍ نبويٍّ جاء فيه : « إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لا نَكتُبُ ولا نَحْسُبُ »[2].

وتمسّك المسلمون مَذْهُولِينَ بهذه الحقيقةِ، وذلك قَصْدَ الدلالة على معجزةِ النبوّة، وجدّيّةِ الإسلام. وفي ظنّهم أنّ اختيارَ اللهِ محمّداً « أمّيّا لا يقرأ ولا يكتب يُضيفُ إلى اذعانِ الناس له وإيمانِهم برسالته سببًا »[3]، علمًا بأنّ الله كان باستطاعتهِ اختيارَ نبيٍّ عالمٍ مثقّفٍ، إذ « لم يكن اختيارُ محمّدٍ قارئًا وكاتباً شيئًا يَعِزّ على السماء، ولكنّه كانَ شيئًا إنْ تَمَّ يُهوِّنُ من حجّةِ السماءِ في نفوسِ الناس »[4].

وبسبب الاعتقاد بـ« أمّيّة » محمّد، أصبحَ كلُ العرب فيما قَبل الإسلام أمّيين جاهليين. ولم يكن الأمرُ كذلك لولا « عاطفة دينية ــ عندهم ــ شدّدوا ــ بها ــ في أمّيّة العرب، فجعلوهم أمّيّين، لإظهارِ معجزة لرسول ... في انّه ظهر بالنبوّة في أمّة أمّيّة، وجاء من الله بأحسن بيان، وهي حجّة له على أهل الكتاب والمشركين »[5].

انّ « جاهليَّة » مكّة و « أمّيّةَ » محمّد هما أمران مستحكّمان في الدين : فكلّما كانَ في الدين معجزاتٌ وعجائبٌ، كان نموُّ الدينِ وانتشارُه أسرع. ومن جملةِ عجائبِ الله في خَلقِه أنْ يُنْبِتَ « العِلَم » حيثُ « الأمّيّة » ، وأنْ يُشِعَّ « المعرفةَ » حيثُ « الجهلُ » ، وأنْ يُرَسِّخَ « الإيمانَ » حيثُ « الكفر » . وفي الإسلام كان ذلك : لقد قرّر المتديّنون تدخّلَ اللهِ المباشَر لصنع عَجائبَ في الدين. قرّروا « جهلَ مكّة، وكُفْرَ أهلِها، وشِركَهم، وعبادَتهم الأوثان؛ واخترعوا، اكرامًا لـ« فتحِ مكّة » ، ثلاثمائة وخمسة وستين صنماً، حطّمها محمد يوم النصر

---

[1] سورة الأعراف ٧ / ١٥٧ و ١٥٨.
[2] البيان والتبيين ٣ / ٢٨ ، الصاحبي ٨ / ١١ ، تفسير القرطبي ٢ / ٥ ، لسان العرب ١٢ / ٣٤ (أمم)، تاج العروس ٨ / ١٩١ (أمم) ...
[3] إبراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ٥١.
[4] نفس المرجع.
[5] جواد عليّ، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٨ / ١٤٢ ؛ إلا إنّ صاحب الكتاب لا يعتقد بأميّة محمّد، ولكنه ينقل هنا رأى معظم المسلمين في القديم والحديث. من جملة هؤلاء : الشيخ صبحي الصالح، في كتابه « مباحث علوم القرآن » ، ص ١٨٦، حاشية ٢، والابيارى، في « تاريخ القرآن »، ص ٤٧ ـ ٥٥ ، والزنجاني « تاريخ القرآن » ص ٣٥ ...

المبين تحطيماً. وقرّروا « أمّيّةَ » محمّد، اكرامًا لبلاغة القرآن وفصاحتهِ وبيانِه المعجز، وذلك ليقولوا بأنّ اللهَ سبحانه هو صاحبُ الكتاب ومؤلِّفُه وكاتبُه ومُنزِّلُه وضَامِنُه وقارِئُه وحامِيه ...

ونحن نسأل : هل ما قرّره المتديّنون هو الواقع والحقيقة ؟ لننظر فيما إذا كانت مكّة على « الجهل » أم « العلم » ، وفيما إذا كان محمّد على « الأمّيّة » أم بعض الثقافة! ولنبحث في الخطّ العربيّ الذي كتب به القرآن، وفي انتشار الكتابة والقراءة في مكّة، وفي أساليب الكتابة، وفي الأدلّة على معنى « الأمّيّة » المنسوبة إلى النبيّ.

أَولاً ــ القلم العربي

من « الثابتِ علميًا، وبصورةٍ لا تقبلُ المراء، أنّ الخطَّ العربي الذي كان مستعمَلاً في بيئة النبي وعصرِه، يمتدّ وجودُه إلى عشرات السنين قبل بعثتهِ، كما أنّه متطوِّرَ عن أشكال لخطوطٍ أخرى، كان يستعمِلها عربُ الشام واليمن. وكذلك من الثابتِ علمياً أن ذلك الخطَ كان منتشِرًا بمقياسٍ غيرِ ضيّقٍ في بلاد الشام واليمن والحجاز والعراق، حتى كان يشملُ بَدْوَ هذه البلاد، ولو بمقياسٍ ضيّق. وما جاء في بعضِ الكتبِ العربيةِ عن نشأةِ الخط العربي ووصولهِ إلى الحجازِ وضيق انتشارِه فيه ضيقًا شديداً، هو تخليطَ لا يتحمّل نقداً »[1].

ويتبيّن من نصوص جاهلية أن العربَ كانوا يُدَوِّنون، قبلَ الإسلام، بخطِ « المِسْنَد » ، أو بـــ « قَلَمِ حِمْيَر » ، الذي جِيءَ به من ناحيةِ اليمن مع القوافلِ التجاريّة التي كانتْ تجوبُ الجزيرةَ العربيّة، تبتدِئُ باليمن، وتمرُّ بمكة، وتتوزّعُ على بلادِ الشام وفلسطين والعراق والساحل الفينيقي. وكانت مكَّةُ محطَّ رحالِها، وبيتَ استراحتِها، وانتعاشِها لتكمّل اجتيازَها العنيد عبر الصحارى الملتهبة.

وبحركة التجارة هذه دخلَ مكَّةَ « قَلَمٌ » آخر، « أسهلُ وألينُ في الكتابة من القلم المِسنَد، أخذوه من القلمِ النبطي المتأخر، وذلك قبيل الإسلام »[2]. كذلك أيضًا انتشر القلم الآرمي بواسطة المبشّرين بالنصرانية الذين دخلوا جزيرةَ العرب وانتشروا في مختلفِ الأماكن، ونشروا معهم دينَهم ولغتَهم وقلمَهم.

فمن « القلم المسند » ومشتقاتِه، و « القلمِ النبطي » وتفرّعاتِه إلى « القلم الآرمي » ، و « الاسترانجيلي » ، تكوّن « القلمُ العربي » الذي كُتب به القرآن. ويبدو أن قبيلةَ قريش تعلّمتِ الكتابةَ من الحِيرَةِ والأَنْبَار، حيثُ راجتْ تجارتُها، وعقدتْ مع قبائلِها المعاهداتِ الأمنيَة[3].

ومهما كان الأمر من تفرّعِ الخطوط فانّ آثارًا كثيرةً تدلّنا على وجود الخطِ العربي في مكة والحجاز، في عصورِ ما قبلَ الإسلام. فهناك « أثرُ كتابةٍ عُثِرَ عليها مدوّنةً باللهجةِ

[1] محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥ ، وهو يعتمد على « كيتاني » .
[2] الدكتور جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٨ / ١٥٢ ...
[3] انظر : ابن رستة، الاعلاق، ص ١٩٢ ، لسان العرب ١٢ / ٣٤ (أمم)، جواد علي، المفصّل...، ٨ / ١٦٩ ، العقد الفريد ٣ / ٣٠٢ ...

العربيةِ الشمالية القريبة من لَهْجَةِ القرآن، وكتبتْ بالقلمِ النبطي المتـأخّر، وبأسـلوبٍ متـأثّرٍ بالآرمية »[1]، ونجدها في أُمِّ الجمال في الحرّةِ الشرقية من جَبل الدروز، على قبرِ امرئِ القَيْس الأوّل ابنِ عمرو ملكِ العرب من سنة ٣٢٨ ميلادية.

ونصٌّ آخر في خرائب زبد بين قنّسرين ونهر الفرات جنوبي شرقي حلـب، كتبـت بثلاث لغات : اليونانية والسريانية والعربية، ويرجع تاريخها إلى سنة ٦١٢ للميلاد[2].

ونصّ آخر يسمّى بـ « نقش حرّان » في المنطقة الشمالية من جبل الـدروز، فـوق باب كنيسة، ويعود تاريخه إلى سنة ٥٦٨ للميلاد. وهو باللغتين اليونانيّة والعربية[3].

وهناك نصوص أخرى كثيرة ترى اثباتاً لها في « المفصّل في تاريخ العـرب قبـل الإسلام » ، الجزء الثامن، ص ١٤٤ ـ ٢٢٠ ، والجـزء الأول، ١٠٧ ـ ١٣٩ ، للـدكتور جواد علي؛ وكتاب « عصر النبي وبيئته قبل البعثـة » ، ص ٦٠ ـ ٧٠ ، ٣٨٨ ـ ٥٢٨ ، لمحمّد دروزة.

و « يُلاحظ ـ الدكتور جواد علي ـ ان الذين كتبوا بالقلم العربي الشمالي، الذي أُخذ منه قلمُ مكة، هم مِنَ العَرَبِ النَصَارَى في الغالب، فأهل الأَنبار، والحِيرة، وعـينِ الشـمس، ودَومَةِ الجَنْدَل، وبلاد الشام، كانوا من النصارى »[4].

وفي رأي المستشرق « ويل » Weil أن نظرية اشتقاق الخطوط تشير « بكل جـلاء إلى اشتقاق القلم العربي من القلم النبطي المتفرّع عن الخط الأرامي »[5].

ولذلك فانّ ما ذكره المؤرّخون من « ان الحروف العربية لم تخترع الا قبيل البعثـة النبوية ... هو قول جزاف لا يثبت على التمحيص والتدبّر »[6].

والجدير بالذكر « انّ البيئة الحجازية ... وخاصّة مكّة والمدينة، كانت بيئةُ تجاريـة، متّصلةً بالبلادِ المجاورة التي كانت تتمتّع بحظ غيرِ يسير من الحضارة والثقافة. وكان فيهـا جالياتٌ كتابيةٌ نصرانية ويهودية نازحة من تلك البلاد، وكانت تتداولُ الكتب الدينيـة وغيـرَ الدينية قراءة وكتابة. فلا يعقلُ أن يظلَّ العربُ أهلُ هذه البيئة غافلين عن اقتباسِ وسيلةٍ مـن

---

[1] جواد علي، المفصّل ... ، ٨ / ١٧٦ حيث تجد المراجع والنصّ.
[2] جواد علي، نفس المرجع ٨ : ١٧٦ ، حيث النصّ والمراجع. انظر بلاشير، في « مدخل إلى القرآن » ، ص ٤ .
[3] جواد علي، المفصّل ... ، ٨ / ١٧٧ ، حيث النصّ والمراجع.
[4] نفس المرجع، ٨ / ١٧٨ ـ ١٧٩.
[5] Weil, Encyclopédie de l'Islam / 68
[6] محمد عزّة دروزة، عصر النبي، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ ، حيث يتوسّع في ذكر اكتشاف آلاف النقوش في أعالي والحجاز والمنطقة العربية، ويذكر جملة مؤرّخين عرب جهلوا الحقيقة وأضلّوا سواهم ...

أشدّ الوسائل ضرورة إلى الأشغال التجارية، ومن أعظم مظاهر الحضارة التي اقتبسوا منها من البلاد المجاورة الشيء الكثير »[1].

ولكن ممّا يؤسف له حقاً « إنّنا لا نملك اليوم كتابة واحدة من الكتابات المدونة في أيّام الرسول. ولا نملك أيّ نسخة من نسخ القرآن أو من صحفه المدوّنة في أيامه. فلا نملك اليوم نسخة حفصة للقرآن الكريم، ولا نسخة عثمان بن عفّان، ولا النسخ التي دوّنت بأمره لتوزّع على الأمصار، ولا أيّة نسخ أخرى من النسخ التي دوّنها الصحابة لأنفسهم، ولا نملك النسخ الأصلية للمراسلات التي كان يأمر الرسول بتدوينها لترسل إلى الملوك أو سادات القبائل والأمراء »[2].

وقد تكون صرخة مدويّة، نطلقها، مع بلاشير[3]، بدعوة المسلمين والدول الإسلامية الغنيّة، بأن يبذلوا جهدهم في البحث عن آثار النبي وصحابتهِ وكتابه العزيز. لعلّ الله يمنّ علينا بنسخة من يد الرسول تتبارك بها رمال مكة والصحراء، والمسلمون بعجزهم يباركون الجهل.

[1] محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥ ـ ٧٦.
[2] جواد علي، المفصّل ... ، ٨ / ١٨٣.
[3] Régis Blachère, Introduction au Coran, 196.

ثَانياً ــ القراءة والكتابة في مكة

إن حديثَ « إنَّا أمّةٌ أمّيّةٌ لا نكتبُ ولا نحسبُ » تعارِضُه أحاديثٌ نبويّة أخرى مثل « قريشٌ أهلُ الله، وهُم الكَتَبَةُ الحَسَبَةُ »[1] ومثل « حقُ الوالدِ على ولَدِه أن يعلّمَه الكتابةَ والسباحةَ والرماية ... » ، وشبيه به : « حقّ الوالد على ولده أن يحسّن اسمَه، ويزوّجَه إذا أدرك، ويعلّمَه الكتابَ »[2].

ومع هذا، لا نقفَ، لإثباتِ القراءةِ والكتابةِ في مكَّة، على مثل هذه الأحاديث المتضاربة، مهما كان انتسابُها إلى النبيّ صحيحاً. فانّ التاريخَ المَوثوقَ والحفرياتِ الأثريةَ والقرآنَ نفسَه هي لدينا خيرُ دليل. فلا الأحاديثُ النبوية ولا رواياتُ الصحابة تُمكنُ أن تضعَنا على خطِ العلم القويم، لأن ما كتَبه أصحابُ الرواياتِ والمُحَدِّثون كان في خدمة الدفاعِ عن الدينِ أكثرَ ممّا كان في خدمةِ العلمِ والحقيقةِ والواقعِ التاريخي.

ففي القرآنِ مَثَلاً آياتٌ كثيرةٌ « تدلُّ دلالةً صريحةً على أنّ القراءَة والكتابةَ كانتا منتشرتَين في الكتابِيين بوجهٍ عام ... بمقياسٍ يصحُّ أن يُقال عنه انّه كانَ واسِعا بعضَ الشيء. وأنتَ إذْ تقرأُ ما جاء في الآيات المكّيةِ التي هي في الذين كانوا في مكّة من الكتابيين ... يَحصلُ عندك ترجيح بأن أكثر الكتابيين في مكة كانوا يقرأون ويكتبون »[3].

ثمّ انّ القرآن قد « احتوى آياتٍ عديدةً ذُكِرَتْ فيها أدواتُ الكتابةِ والقراءة مِن كتبٍ وقرطاسٍ وورقٍ وصحفٍ وأقلامٍ ومِدادٍ وسجلات[4]. وننبّه على أن هذه الآيات جميعَها مكّيّةً، ومن تحصيلِ الحاصلِ أن نقولَ أن أهلَ مكةَ الذين كانوا أوّلَ مَنْ سمِعوها كانوا يفهمون مدلولاتِها. ولقد وردتْ كلماتُ الكتابةِ ومشتقاتها في القرآن نحو ثلاثمائة مرّة ونيّف، وكلمة القراءة ومشتقاتها نحو تسعين مرّة ونيّف، وبأساليب متنوّعة »[5].

وآية ٢٨٢ من سورة البقرة كغيرها، « تحتوي أسماء ورسائل وأدوات القراءة والكتابة، وتحتفي بالقراءة والكتابة هذه الحفاوة الكبيرة دليل راهن على أنّ العرب في بيئة النبي وعصره قد عرفوا تلك الوسائل والأدوات، واستعملوها، وعلى أن القراءة والكتابة فيهم

---

[1] الصولي، أدب الكتاب، ص ٢٨ ، حكمة الإشراق ، ص ٦٧.
[2] الجامع الصغير، رقم ٣٧٤٢ و ٣٧٤٣ ، حكمة الإشراق، ص ٦٦ وما بعدها، وهي عن أبي هريرة المحدّث الثقة.
[3] انظر الآيات : ٦ / ٢٠ و١١٤ ، ٧ / ١٥٧ ، ١٠ / ٩٤ ، ٢٦ / ١٩٧ ، ١٦ / ٧٦ و١٠٣ ، ٢٨ / ٥١ ـ ٥٢ ، ٤٢ / ١٠ ، ٤٦ / ١٠، ٢٥ / ٤ ـ ٥ ...
[4] انظر : ٦ / ٧ و ٩١ ، ١٧ / ١٣ ـ ١٤ و ٩٣ ، ١٨ / ١٠٩ ، ٢١ / ١٠٤ ، ٣١ / ٢٧ ، ٥٢ / ١ ـ ٣ ، ٦٨ / ١ ـ ٢ ، ٧٤ / ٥٢ ، ٨٧ / ١٨ ، ٩٦ / ١ ـ ٤ ...
[5] انظر : ١٠ / ٩٤ ، ٢٥ / ٥ ، ٢٦ / ١٩٨ ـ ١٩٩ ، ٢٩ / ٤٨ ، ٣٤ / ٤٤ ...

كانتا منتشرتين في نطاق غير ضيّق. فكثرة الترديد تدلّ على الألفة، وهذه لا تكون إلا حيث يكون المألوف ذائعاً ذيوعاً غير يسير »[1].

وبالإضافة إلى هذا التنويه بالقراءة والكتابة، نرى القرآن يحضّ التجّار على تدوين المعاملات التجاريّة نقداً وديناً وصغيرة وكبيرة ... ومن الأرجح أن محمّداً لم يوجدها بنفسه، بل كانت موجودة قبله في اللغة العربية. ومن المعروف أن المجتمع المكّي كان مجتمعاً تجارياً هامّاً، يتّصل اتّصالاً حميماً ومستديماً بالبلاد المجاورة كالشام وفلسطين والعراق ودولتي الفرس والروم. وهذه كانت تنعم بحظ من الثقافة كبير[2].

وبالإضافة إلى ذلك أيضًا نرى في القرآن كلمات مستوردة يربو عددها على المئات، وهي مأخوذة عن اليونانية والسريانيّة والعبريّة والحبشيّة والفارسية والنبطية ... وقد أثبت المسلمون الأقدمون هذه الكلمات وكتبوا فيها المجلّدات الطوال[3].

ثم إنّ القرآن احتوى الكثير من الألفاظ والأسماء المعرّبة، ممّا يدلّ على شيوعها واستعمالها عند أهل عصر النبي وبيئته. « هذه الأسماء جاءت في القرآن بصيغةٍ عربية فصحى، أي غير ما هي عليه في لغاتها الأصلية؛ وبعبارة أخرى انّها معرّبة »[4].

أضف إلى ذلك أيضًا « إن النبي كان يتّصل بمختلَف الطبقات والشخصيات المكية، ثم بمختلف الطبقات والشخصيات والقبائل التي كانت تَفِدُ على مكّة، في المواسم والأسواق، ويتحدّثُ إليهم، ويتلو عليهم آياتِ القرآن، ويتفاهمُ معهم بلغتهِ التي هي لغة القرآن بطبيعة الحال »[5].

ثم ان الذين آمنوا في بدء الدعوة ، لم يؤمنوا لأجل فصاحة القرآن اللغوية ومعجزتِه البيانية وبلاغتهِ الإعجازية، بقدر ما آمنوا لسببٍ آخرَ من الأسباب. وذلك لأنّ المؤمنين الأوّلين في مكّة آمنوا بالنبي قبل أن ينزل من القرآن شيء يذكر ــ هذا إذا سلّمنا بنظرية التنجيم كالمسلمين!

---

[1] محمد دروزة، عصر النبي، ص ٤٤٤ ، انظر : ٤٣٦ ـ ٤٤٥ ...

[2] Lammens, La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 120…; Torrey, The commercial Theological Terms in the Koran ; v. Nöldeke, GdG, II, 24…

[3] انظر : الراغب الأصبهاني، المفردات في غريب القرآن، والسيوطي، الاتقان، فصل فيما وقع فيه بغير لغة العرب، وفي معرفة غريب القرآن، ١ / ١١٣ ـ ١٤١ .

[4] محمد دروزة، عصر النبي، ص ٦٢ و ٦٨ ، ٤٢٩ ، ٤٦٥.

[5] نفس المرجع، ص ٦١.

وأيضًا لو كانت لغة القرآن هي سبب إيمان المؤمنين لأجل بلاغتها وفصاحتها فلماذا بقي أكثر المكيين والحجازيين جاحدين! ألعلّهم لم يفهموا مضمونها! أم لأنهم فهموا وأنكروا! والأرجح إنّهم أدركوا وفهموا وإلاّ ما معنى قول القرآن: « لقد بعثنا في كل أمّة رسولاً »[1]؟

لم يَخْفَ على أئمّةِ المفسرين كونُ لغةِ القرآن هي لغةُ أهلِ الحجاز كلِّهم، بكل ما فيها من بلاغةٍ وفصاحة : قال الطبرسي في مجمع البيان : « انّ الله خاطبَ قوماً عقلاء فصحاء، قد بلغوا الغايةَ القصوى من الفصاحة، وتسنّموا الذروةَ العليا من البلاغة » . وقال الزمخشري في الكشّافِ : « إنّهم كانوا من صحةِ التمييز بين الصحيح والفاسد، والمعرفةِ بِدقائق الأمور وغوامضِ الأحوال والإصابةِ في التدبيرِ والدهاءِ والفطنةِ بمنزلٍ لا يُدفَعُون عنه » . وقال النيسابوري في تفسير ٢ / ٢٢، القائلة : « فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون » ، أي وأنتم أهلُ العلمِ والمعرفة بدقائق الأمور وغوامضِ الأحوال. وهكذا كانت العربُ خصوصاً قطانُ الحَرَمِ من قريشٍ وكَنَانَةٍ لا يشقُ غبارهم في الدهاءِ والفطنة »[2].

وفي كتب السير خبرٌ مشهور عن أسرى قريش الفقراء الذين قبض المسلمون عليهم في معركة بَدْر، والذين لم يستطيعوا دفعَ الفدية عن أنفسهم، كُلِّفوا بتعليمِ بعضِ أطفالِ المسلمين القراءةَ والكتابة ...[3]. « فإذا كان فقراءُ أهلِ مكة يقرأون ويكتبون فأولى أن يكونَ كذلك أغنياؤُها وتجّارها ونبهاؤُها، وأن تكونَ القراءةُ والكتابةُ مما هو مألوفٌ ومنتشرٌ بنطاقٍ غيرِ ضيّق »[4].

وعند أهل الأخبار روايات عن جملة أسماء لَمَعُوا في القراءة والكتابة والشعرِ والقَصَصِ والخطابةِ والوَعظِ والأمثال وغير ذلك من أنواع الأدب. وفي كتاب « المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام » سردٌ واسعٌ عن بعضهم، في الصفحات ١١٢ ــ ١٤٣ من الجزء الثامن. وفي ذلك ما يكفي للدلالة على العلم الكثير والمعارف الواسعة بالقراءة والكتابة في مكّة والحجاز.

---

[1] سورة النحل ١٦ / ٣٦ ، انظر سورة يونس ١٠ / ٤٧ ...
[2] انظر هذه الأقوال في مراجعها، وفي عصر النبي ٤٣٢.
[3] طبقات ابن سعد ٢ / ١ ، وسائر كتب السير ...
[4] محمّد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٥ ـ ٧٦.

بقي أن تكونَ آثارُ ما قبل الإسلام دليلاً على ما وَرَدَ في القرآن والأحاديث وكتب السِيَر. والحقيقة، كما قال دروزة : « لقد اكتُشِفَتْ آلافُ النقوشِ السبئية والمعينية والحضرموتية والقتبانية والحِميرية في اليمن والثمودية واللحيانية في مناطق العلا ومدائن صَالح في أعالي الحجاز والصَفوية في منطقة الصفا في جبل حوران، فضلاً عن النقوش النبطية والتدمرية المكتشَفة في البَلقاءِ وسيناء وتَدمر، وكثيرٌ منها يعودُ إلى القرون القريبة من عصرِ النبي، بل منها ما هو عائدٌ لهذا العصرِ وبخاصة من النقوش الصفوية. وحروف هذه النقوش خاصة مماثلةٌ للحروف العربية »[1].

وفي « المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام » نموذجات عن آثار جاهليّة كثيرة، تشير كلّها إلى اتّساعِ نطاقِ المعرفة في مختلَفِ الأمكنة[2].

من الواضح اذن، استناداً إلى انتشار الخط العربي فيما قبل الإسلام، وإلى كثرة الاثارات الجاهلية وتوزّعها في مختلف مناطق الحجاز والجزيرة العربية، وإلى شموليّة الكتابة والقراءة في مجتمع مكّة التجاري، وإلى نصوصِ القرآن التي تقرّر، بمفرداتها ومصطلحاتها وتراكيبها واستعاراتها وتشابيهها، إنّ اللغةَ العربيّةَ كانتْ مألوفةً ومفهومةً ومستَعمَلةً في بيئةِ النبيِ وعصرهِ بنطاقٍ واسع.

كل هذا الذي رأينا يقرّر بوضوح معرفةَ المكين الواسعة بالقراءة والكتابة، فيما المَدْهُولُونَ بجدّيّة النبوّةِ والدين يَرونَ مكّةَ على جهلٍ وغباوة، تغرقُ في « جاهليّة » دكناء. لهذا نقول، مع جواد علي : « لا نتمكّنُ من الاطمئنانِ إلى هذه الأخبار والروايات المدوّنة في الموارد الإسلاميّة عن الجاهلية »[3].

وعدمُ الاطمئنانِ إليهم أمرٌ يدعو إلى التساؤلِ عن الأسباب : هل يقصدُ المسلمون طمسَ أخبارِ الجاهليّة ؟ هل يريدون القولَ بأنّ الإسلامَ كان أوّل مَنْ دعا إلى العلمِ والمعرفةِ والكتابةِ والحسابةِ والقراءةِ والتدوينِ والتدريس!؟ هل يقصدون إظهارَ جدّيّةِ الإسلامِ فقالوا بجاهليّةِ ما قبله، كمنّ يُظهِرُ الضوءَ في ليلٍ بهيم ؟

في الحقيقةِ يُخشَى أن يكونَ في الإسلامِ رغبةٌ في استئصالِ كلِ ما يمتُّ إلى أيّامِ الجاهليّة بصلة. ويُخشى أن يكونَ الحديثُ القائلُ : بأنّ « الإسلامَ يهدمُ ما قبله »[4] حديثًا ثابتًا

---

[1] محمد دروزة، عصر النبي، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩.
[2] انظر : جواد علي، ١ / ٤٢ ـ ٥٣ ، ٨ / ١٧٥ ـ ١٧٩.
[3] المفصّل ... ، ١ / ٧٣.
[4] صحيح مسلم ١ / ٧٧ ـ ٧٨.

مُسنَدًا إلى النبي!؟ وهو على ما يبدو صحيحُ الإسنادِ لثبوتهِ عند « مُسْـلِم » أحـدِ المحـدِّثين الثقاة!!!

ثَالثاً ــ وسائل الكتابة

من مسلّمات المسلمين أنّ النبيّ اتّخذوا كُتّاباً للوحي، وأمرَهم بكتابةِ كل ما ينزلُ من القرآن على « الرِقَاعِ »[1] « واللِخَافِ » و « العُسُبِ » و « الأَكْتَافِ » و « الأَقْتَابِ » و « قِطَعِ الأدِيم »[2]. وقد جاء على لسان زَيْد بن ثَابت أشهرِ مَنْ كَتَبَ للنبي قولهُ : « كنّا عند رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم نؤلِّف القرآن من الرِقاع »[3].

قد تكون هذه الوسائل البدائيّة صحيحة، لندرةِ الوَرَق والشجَر في الجزيرة العربية، ولبهاظَةِ ثَمَنِهِ في حال استيراده من البلاد المجاورة. ولكن، إذا كانتِ الكتابةُ والقراءةُ مألوفةً في مكة والحجاز، كما رأينا، فلا بدّ أن تكونَ وسائلُ الكتابةِ هي الأخرى مألوفةً وسهلةَ الاستعمال. وخيرُ ما يرجّحِ هذا القولَ ما وَرَدَ في القرآنِ من إشاراتٍ إلى هذه الوسائل.

* يذكر القرآن أكثرَ من مرّة كلمةَ « قرطاس » و « قراطيس » ، ممّا يدلّ على أنّها كانت معروفةً ومألوفةً كوسيلةٍ للكتابة والتدوين. جاء في القرآن : « ولو نزّلنا عليك كتابًا في قرطاسٍ فلمسوه بأيديهم ... »[4]، و « قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا... »[5] هذان النصّان يلهمان « ان الكتابة على القرطاس وكون الكتب مؤلّفة من قراطيس هو الشيء المألوف الذي لم يكن لِيُتَصَوَّرَ غيره »[6]. ».[6]

وفي لسان العرب أن « القرطاسَ معروفٌ، يُتَّخذ من برديّ يكون بمصر ... وهو الصحيفة الثابتة التي يُكتب فيها »[7]. وقد ورد ذكره على لسان كثير من شعراء ما قبل الإسلام الإسلام وبالمعنى نفسه.

* ويحتوى القرآن على كلمة « الصُحُف » أكثرَ من مرّة (٨ مرّات) في معرض الإشارة إلى القرآن والكتبِ السماوية. جاء فيه : « في صحف مكرّمة، مرفوعة مطهّرة »[1]، «

---

[1] الرقاع، جمع رقعة، قد تكون من جلد أو ورق أو كاغد ...
[2] اللخاف، لخفة وهي الحجارة الدقاق أو صفائح الحجارة، والعسب، جمع عسيب وهو جريد النخل. والأكتاف، أي عظام أكتاف الجمال وغيرها من الحيوان. الاقتاب، جمع قتب وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركّب عليه. وقطع الأديم، أي الجلد. ...
[3] انظر : الاتقان ١ / ٩٩ ، البرهان ١ / ٢٣٧. ومن المعاصرين من يأخذ بنظرية هذه الوسائل البدائية : صبحي الصالح، مباحث ... ، ص ٦٩ ، الزنجاني، تاريخ القرآن، ص ٤٤ ـ ٤٩ ، الابياري، تاريخ القرآن، ص ٨٦ ، شحاته، تاريخ القرآن والتفسير، ص ٢٥ و ٣٦ ، الرافعي، اعجاز القرآن، ص ٣٤ ـ ٣٧ وغيرهم الكثير ...
[4] سورة الانعام ٦ / ٧.
[5] سورة الانعام ٦ / ٩١.
[6] محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٧.
[7] لسان العرب، ٦ / ١٧٢ (مادة : قرطاس).

« انّ هذا لفي الصحف الأولى صُحُفِ ابراهيم وموسى[٢]، « بل يريد كل امرئٍ منهم ان يُؤتَى صحفاً منشرة »[٣] ... الخ.

« لم يذكر أحد أن كلمة الصحيفة كانت تطلق على تلك الوسائل البدائيّة، وانّما كانت تطلق على ما كان معروفاً من وسائل الكتابة التي تُحْمَلُ بسهولة، وتُطوَى بسهولة، ويُجْمَعُ بعضها إلى بعض بسهولة. ولعلّ في آية المدّثر قرينةً على أنّ الصحفَ كانت تُنْشَرُ وتُطوى، وهو ما لا يمكنُ أن يَتّصفَ به الا وسائلُ الكتابةِ اللينةِ كالقماشِ وورق القماشِ وورق الحرير والرقوق الناعمةِ المُسَوَّاة الخ »[٤].

* وفي قولِ القرآن : « يومَ نَطوِي السماءَ كطَيِّ السِجِلِّ للكتبِ »[٥] « دليل على أنّ طَيَّ الوَرق، أو ما كان يقومُ مقامَه من وسائلِ الكتابة الليّنةِ ليكون سِجِلاً للكتابة والتدوينِ كان مألوفًا شائعًا. وهذا لن يكونَ الاّ حيثُ تكونُ الكتب والقراطيسُ والوسائل الكتابية اللينة الأخرى ... »[٦].

* وحين يتكلّم القرآن على « القَلَم »[٧] وعلى الله « الذي علّم بالقلم »[٨] والذي يُقسِم بـ« القَلَم وما يسطرون »[٩]، وعلى « شجرةِ أقلام »[١٠] ... فانّه يشير إلى أنّ هذه الوسيلةَ للكتابة كانتْ موجودةً في المفردات الجاهلية؛ وهي، بحسب علوم اللغة، مأخوذةٌ عن السريانية التي أخذتْها بدورها عن اليونانية.

* وفي القرآن أيضا ذكرٌ لـ « المَدَاد »[١١] وهي المادة المستخرَجة من الفحم المستعمَلة للكتابة؛ وذكرٌ لـ « الدواة » أو « المحبرة » ، الأداة التي تحفظ الحبر. ومن المفسّرين من رأي في آية « ن والقلم »[١٢] معنى الدواة والقلم[١٣].

* وفي القرآن أيضًا ذكر للرِقِّ في قوله : « والطورِ. وكتابٍ مسطور. في رقٍّ منشورٍ »[١]. والرقُّ هو جِلْدٌ رقيق، « وقد اشتهرتْ جملةُ مواضعَ في الحجاز وفي اليمن بترقيق

---

[١] سورة عبس ٨٠ / ١٣ ـ ١٤ ، انظر ٢٠ / ١٣٣ ، ٩٨ / ٢ ...
[٢] سورة الأعلى ٨٧ / ١٨ ـ ١٩.
[٣] سورة المدّثر ٧٤ / ٥٢.
[٤] محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٨.
[٥] سورة الانعام ٦ / ١٠٤.
[٦] محمد دروزة، نفس المرجع.
[٧] ترد في القرآن ٤ مرّات، مفردة وجمعاً.
[٨] سورة العلق ٩٦ / ٤.
[٩] سورة القلم ٦٨ / ١.
[١٠] سورة لقمان ٣١ / ٢٧.
[١١] سورة الكهف ١٨ / ١٠٩.
[١٢] سورة القلم ٦٨ / ١.
[١٣] لسان العرب ١٣ / ٤٢٧ ، الفيروزبادى، تنوير المقياس ... ص ٤٥١.

بترقيق الجلد ودباغته ... وأجودُه هو المعمول من جلد الغزال. وذُكِرَ أن الصحابةَ أجمعوا على كتابةِ القرآن في الرِقّ، لِتَيَسُّرِهِ عندهم، ولطولِ بقاءِ الكتابة فيه »[٢]. ويبدو أن شعراءَ ما قبل الإسلام كانوا يكتبون عليه بكثرة[٣]...

يتحصّل من كل هذا أن « بيئةً هذه صِلاتُها بالبيئات المجاورة المتمدِّنة التي تتيسّرُ فيها وسائلُ الكتابة والقراءةِ المألوفةِ على تنوعها، وفيها كثيرون من أهلِ هذه البيئات يقرأون ويكتبون ويتداولون الكتب، وحركتها التجارية قويّة واسعة، وقد احتوى القرآن من أوصافِ حياتها، ومعايشها، وحضارتِها، ووسائلِها ما فيه الدلالةُ الوافيةُ على أنها هي أيضًا كانتْ على دَرَجةٍ غير يسيرة من الحضارةِ ووسائلِها، والكتابةِ والقراءة فيها منتشرتان بمقياس غير ضيق لا يعقل في حال أن لا يكون فيها وسائل مدنية للكتابة وأن لا يوجد ما يُدوَّن عليه القرآن الاّ ألواحُ العِظَامِ ورقائقِ الحجارة وأضلاعِ النخيل وقِطَعِ الخَشَب »[٤] ...

وممّا يرجّح كتابة القرآن على وسائل حضاريّة ليّنة كالورق والقماش وما أشبه ما ذَكَرَه البخاري وأهلُ الأخبار عن إحراقِ عثمانَ للمصاحفِ أو تمزيقِها. والوسائل البدائية لا تُحرَق ولا تُمَزَّق بالسهولةِ التي أرادها عثمان.

ومن الأرجح أيضا ألاّ تكونَ هذه الوسائلُ البدائية يحمِلُها كَتَبَةُ الوحي، ويتبعون النبي أينما حلّ ورحل، ليسجّلوا ما ينزل عليهِ من آيات ... ومن المعروف أن النبي كان في بدء بعثته يدعو الناس بِخَفَاءٍ وخفر وبعضِ السرّيّة ... وليس من الممكن أن يحمِلَ كتّابُ الوحيِ أحمالاً من الألواحِ والعظامِ والحجارة ليكتبوا عليها، وهم مع النبيّ على سَفَرٍ دائمٍ وربّما مفاجئ!

وبالنتيجة، « انَّ مَا رُوِيَ مِنْ أَنَّ القرآنَ كانَ يُدَوَّنُ على قِطَعٍ عَظِيمةِ الحجمِ ثقيلةِ الوزن، صعبةِ الحملِ والحفظِ والترتيبِ، كأضلاعِ النخيلِ، وأكتافِ العظامِ، ورقاقِ الحجارةِ والخشب، لا يمكن أن يكونَ هو الواقع على اطلاقه ... »[٥].

---

[١] سورة الطور ٥٢ / ٢ ـ ٣.
[٢] جواد علي، المفصّل ... ٨ / ٢٦٢ ـ ٢٦٣.
[٣] انظر صبح الأعشى ٢ / ٤٧٥.
[٤] محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٧٦ ـ ٧٧.
[٥] محمد دروزة، القرآن المجيدن ص ٧٥.

وإذا تمسَّكَ المسلمون المتديِّنون بهذه الوسائل البدائية لكتابةِ القرآنِ فانّ لهم عندَ مُحَمَّد صَبِيح جوابًا فيه بعضُ خفّةِ الروح. يقول : « كتابةُ القرآن المكيِ على هذه الأدواتِ الخَشِنَةِ كانَ مِصْحَفًا يحتاجُ إلى عشرينَ بَعِيرًا لِحَمْلِهِ. ولمْ نعلمْ مِن أنباءِ الهجرةِ أَنَّ قافلةً من الأحجارِ فَرَّتْ قَبْلَ النبي، أو مَعَ النبي، ومعَها هذا الحِملُ الغريب »[1].

الذي يهمّنا من كل ما تقدّم قوله، هو إنّ مكَّة لم تكن في « جاهليّة » وغباوة، كما يطمئنُّ إليه المسلمون. فتلك المدينة المنفتحة على اليَمَنِ ذاتِ اليُمْنِ والخيرات جنوبًا، وعلى بلادِ الشام ودولَتَي الرومِ والفرس شمالاً، وعلى فلسطين مهدِ النبوءاتِ والأنبياءِ والتوحيدِ غربًا، وعلى بلادِ ما بين النهرين ومهدِ الحضارات القديمة شرقًا ... هذه المدينة التي يُحَاصِرُهَا العِلمُ والحضارةُ من كل جهة، لا يمكن أن تبقَى غريبةً عنه، تتخبّطُ في الجهل والغَباوَة.

ولئن كانَ مقصودُ المتدينينَ انذهالَهم أمام فصاحةِ القرآن وبلاغتِهِ، فانَّ اللهَ لا يُعجِزْه خَلقَ مثلِ هذه الفصاحةِ في عالَمٍ فصيح. ولن يكونَ شأنُ النبي أعظمَ في حالِ إثباتِ الجهلِ والكفرِ والغباوةِ حواليه من أنْ نجعلَه ينعمُ في مجتمعٍ فيه من الوعيِ ما يكفي لمجادلته ومقارعته.

وما اتّهامُ الكافرين لمحمد بأنّه افترَى القرآنَ افتراءً إلاّ لأنّهم « رأوا أنَّ القرآنَ، في مادّتهِ وتراكيبهِ، وفنونهِ اللفظية، انما هو مِثْلُ تراكيبِهم ومادتِهم وفنونِهم اللفظية، وانّ هذا في متناوَلِهم »[2]. وما تحدّى النبيُ بأن يأتي الناسُ بمِثْلِ ما أتى إلاّ « اعترافٌ واضِحٌ بانَّ لغةَ القرآنِ في مادّتِه واسلوبهِ ونُظُمهِ وفنونهِ اللغوية، كان ممّا يدخلُ في متناوَلِ العربِ الاتيان بمثلِهِ، لو لم يَصْرِفْهم اللهُ عن ذلك »[3].

رَابعاً ــ أمّيّة الرسول

[1] محمّد صبيح، بحث جديد عن القرآن، ص ٨٧ ـ ٨٨.
[2] محمد دروزة، عصر النبي، ص ٤٠٠ ... انظر آيات الافتراء في القرآن.
[3] نفس المرجع، ص ٤٠١ ... انظر آيات التحدّى في القرآن.

إنْ لم تسلَمْ مكةُ من تهمةِ الجهلِ والغباوة، فمحمّدٌ، وهو منها، لم يسلَمْ من تهمةِ « الأمّيّةِ » وجهلهِ القراءةَ والكتابة. و « على ذلك أجمَعَ المسلمون »[1]. وهم، بما أجمعوا عليه، مذهولون؛ وقصدُهم، بذهولهم، واضح، وهو التثبّت من أنَّ القرآنَ « كله من عند ربّنا »[2]، وليس لمحمّد فيه صنعة. نزّله اللهُ على قلبهِ تنزيلاً، وأوحاه إليه وحيًا والهامًا، وبلّغه ايّاه منجَّماً ...

وَمُعْتَمَدُ إجماعِ المسلمين آيتانِ في القرآن : كلتاهما تصفُ محمّدًا بـ « الرسول النبي الأمّيّ »[3]. والأمّيّة، برأي المسلمين قاطبةً هي الجهل بالقراءة والكتابة، و « الأمّيّ هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب »[4]، وهو « العَيِيّ الجِلْفِ الجَافي القليلِ الكلام. قيل له أمّيّ لأنه على ما ولدتْه أمّه عليه من قلّةِ الكلام وعُجْمَةِ اللسان »[5]. والأمّيّون، في أحسن حال، هم الذين كانتِ الكتابة فيهم عزيزةً عديمة[6]. والرسول أمّيّ أيضًا لنسبته إلى « أمّ القرى » ، أي مكّة، وذلك لجهله وجهلها على السواء[7].

لقد عالجنا في كتابِ « قسّ ونبيّ. بحث في نشأة الإسلام » معنى الأمّيّة، وأعطينا الأدلّة على معرفة محمّد بالقراءة والكتابة من القرآن نفسه، ومن تربية محمّد الدينية على يد القسّ ورقة ابن عمّ زوجته خديجة، ومن اطلاع النبيّ على « الإنجيل العبراني » الذي كان القسّ ينقله إلى العربيّة بحضور محمّد[8]. أمّا الآن فلا بدّ من اثبات ذلك بما ورد في الحديث النبوي وكتب السيرة :

جاء في صلح الحديبية أن الرسول « هو الذي كتبَ الكتاب بيده الشريفة، وهو ما وقع في البخاري »[9]. وجاء في سيرة ابن هشام : « فبينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يَكْتُبُ الكتابَ هو وسُهَيْل »[10]. وجاء في البخاري : « وأخذَ رسولُ اللهِ (ص) الكتابَ لِيَكْتُبَ، فَكَتَبَ: هذا ما قاضى عليه محمّد »[11]. وفي آخر حياته « لمّا اشتدّ وجعُه قال : ائتوني بالدواةِ

---

[1] الدكتور جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٨ / ٩٢.
[2] سورة آل عمران ٣ / ٧.
[3] سورة الأعراف ٧ / ١٥٧ ، و ١٥٨.
[4] الراغب الاصبهاني، المفردات في غريب القرآن ٢٢، وجميع مفسّري القرآن لسورة الأعراف، أمثال : الزمخشري والبيضاوي والنسفي والقرطبي والطبري والخازن وابن عباس والنيسابوري والطبرسي والسيوطي ...
[5] لسان العرب ١٢ / ٣٤ (مادة : أمم).
[6] تاج العروس ٨ / ١٩١ (مادة : أمم).
[7] الراغب الأصبهاني، المفردات في غريب القرآن، ص ٢٢.
[8] انظر كتابنا « قس ونبي » ص ٤٦ ـ ٥١.
[9] الروض الانف ٢ / ٢٣٠ ، السيرة الحلبية ٣ / ٢٣ ...
[10] انظر ذلك نقلاً عن « نولدكه » في « تاريخ القرآن » جزء ١ ص ١٣.
[11] الروض الانف ٢ / ٢٣٠، الطبري ٣ / ٨٠، الحلبية ١ / ٢٤.

والكتبِ، أَكْتُبُ لكم كتَابًا لا تضلّون معه بعدِي أبداً »[1]. وفي حديث أبي بكر أنّ رسول الله « دعا في مَرَضِهِ بدَوَاةٍ ومِزْبَرٍ (قلم) فَكَتَبَ اسمَ الخليفةِ بعدَه »[2]. وذكر الهمداني أن العرَب كانتْ « تُسمّي كلَّ مَنْ قَرَأَ الكتبَ أو كَتَبَ : صابِئًا؛ وكانتْ قريشٌ تسمّي النبيَ (ص) أيّامَ يدعو الناسَ بمكة ويتلو القرآن : صابِئًا »[3].

بسبب هذه الروايات المعارضة لموقف المسلمين واجماعهم على أمّيّة محمّد، رأى بعض « الماهرين بالتفسير وصياغةِ الكَلِم أنّ النبيّ تعلَّم القراءةَ والكتابة بَعْدَ النبوّة. جاء على لسان الحافظ بن حجر أن النبي كان أمّيّاً وذلك « بسبب الاعجازِ؛ ولمّا اشتهرَ الإسلامُ وأَمِنَ الارتيابَ عَرَفَ حينئذ الكتابَةَ » . وقال ابن أبي شيبه : « ما مات رسول الله (ص) حتى كَتَبَ وقرأ » . وقال مجالد وابن دحية والنيسابوري والباجي والبغوى : « إن معرفةَ الكتابةَ بعد أمّيّتهِ لا تُنافِي المعجزة، بل هي معجزةٌ أخرى بعدَ معرفةِ أمّيّته وتحقق معجزته » .

وقال الطبرسي : « فأمّا بعد النبوّة فلا تعلق به بالريبة والتهمة، فيجوز أن يكون قد تعلَّمها (أي الكتابة) من جبريل عليه السلام، بعد النبوّة »[4].

وعند بعض المفسّرين إن رسولَ الله كتبَ مع عدم علمهِ بالكتابةِ وتمييزِ الحروف[5]. وهذا أيضًا معجزة[6].

وفي شروح الباجي لهذا الخلط بالتفسير قوله : كل ما ورد في الحديث من قوله : كَتَبَ، فمعناه أَمَرَ بالكتابة.

ولكنّنا لحسنِ الحظ نجد بعضَ المسلمين المتقدِّمين يفسّرون كلمةَ « الامّيّين » بـ« الذينَ لا كتابَ لهم من مشركي العرب » ، وذلك بمقابلِ « الذين أُوتُوا الكتابَ من اليهودِ والنصارى »[7]. وفي تفسيرِ القرطبي الذي نقل عن ابن عبّاس رأيٌ جازِمٌ حَسَنٌ قال : « الأمّيّون العربُ كلُّهم، مَن كَتَبَ منهم ومَنْ لم يكتبُ، لأنهم لم يكونوا أهلَ كتاب »[8].

---

[1] البلاذرى ١ / ٥٦٢، الطبري ٣ / ١٩٢ : بعض الخلاف في الرواية.
[2] تاج العروس ٣ / ٢٣١ (مادة : زبر).
[3] الهمداني، الاكليل ١ / ٤٤.
[4] الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن ٨ / ٢٨٩.
[5] هذا الرأي للقاضي أبي جعفر السماني.
[6] تاج العروس ٨ / ١٩١ (مادة : أمم).
[7] الطبري في تفسيره على آية ٣ / ٢٠، ص ١٤٣ من الجزء الثالث، انظر : روح المعاني ٢١ / ١٧.
[8] الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ٩١.

خاتمة الفصل

ان الإيمان بمعجزة أمّيّة الرسول فيه من الغرابة ما يجعل المسلم المؤمن في حيــرة : لقد كان مقصودُ المسلمين في إثبات الأميّة لمحمّد سبيلاً واضِــحًا لإثبــات معجــزةِ القــرآن ومصدرهِ الإلهي. وهذه المعجزة جرّتْ معها ووراءَها تزويراً للتــاريخ وتحــويرًا صــريحاً. بسببها سقطتْ مكّةُ في الجهلِ والغباوة، وبسببها عُمِّمَ الجهلُ والكفرُ علــى عصــر مــا قبــل الإسلام، وبسببها قَلَبَ الله نظام الكون، فوضَع الفصاحةَ على لسانِ جاهلٍ، ووضعَ العلمَ حيثُ الجهلُ، والإيمانَ حيثُ الكفرُ، والمعرفةَ حيثُ الغباوة ...

أمن حقِّ المسلمين، لإثباتِ بلاغة القرآن، تهمةُ الناسِ بالجهل! أهي معجزةٌ للــدين أن يَعجزَ الناسُ عن الاتيان بفصاحته! أمنْ كِبَرِ اللهِ وعظمتهِ أن يأتي بنبيٍّ جاهل! هل من شــأنِ الدين أن يُبنى على بدائيّةِ البشر، ويَفتخرَ بتعاليمه على بداوتهم! هذا، وان التاريخَ يثبتُ عكسَ ما يريدُه المتديّنون : فالقراءةُ والكتابةُ ووسائلُها كانتْ في مجتمع مكّة فــي غايــةِ الانتشــار والمألوف. فلماذا التغاضي عن فخرٍ بالجدودِ هو حقّ لهم علينا!

إن الإيمان بمثلِ هذه المعجزة يُعجزُ البشرَ عن رؤيةِ وجهِ الحق.

الفَصْلُ الثَّالِث

مُعْجزَة حفظ مُحمَّد للقرآن

أَولاً ــ النسيان النبوي

ثَانياً ــ النسخ في القرآن

ثَالثاً ــ إجازة التبديل في القرآن

رَابعاً ــ دسّ الشيطان في الوحي

مقدّمة الفصل

في إيمـــان المسلمين أنّ الله تولّى ويتولّى بنفسِه شؤونَ كتـــابه الكريم. فهـــو الـــذي « أوحاه » ، وهو الذي « نزّله » من الأفق الأعلى، وهو الذي « أنزله » على محمّد منجّماً، وهو الذي « جَمَعَه » ، و « رتّبه » ، و « قرأه » لمحمّد، وهو الذي « يَحْفَظُه » ، ويعمـــل على « بَيَانه » ... وبالتالي، لا شأن فيه لمحمّد : فلا ذاكرةُ محمّد تفيدُ في حفظِه، ولا علمُـــه يزيدُ القرآنَ علماً ... لا اتّقادُ ذاكرةِ النبيّ حفظتِ الكتابَ، ولا ضَعفُها أثَّرَ على صيانتهِ ...

ولئن كان اللهُ يتدبّر أمرَ القرآن فأحرى به أن يتدبَّر محمّداً لكي يحفظَه ويبلِّغَه بأمانـــةٍ ودقّةٍ متناهية. وهكذا عَصَمَ اللهُ النبيّ من نقيصةِ « النسيان » ، وعَصَمَه من الأهواءِ والنَزَعَاتِ الشخصيةِ، وعَصَمَه من أن يُبدّلَ ويُحرّفَ في الكتاب، وعَصَمَه من أن يُنقِصَ منه أو يزيـــد، وعَصَمَه من دسائسِ الشيطانِ وحِيَلِه ... لقد أنعَم اللهُ على نبيّه بالعصمةِ لأنّه تعالى حَمَّلَه حِملاً ثقيلاً : « أنا سَنُلقي عليكَ قولاً ثقيلا »[1].

ولكنَّ عصمةَ الله هذه لم تمنعِ الرسولَ من أن يَنعمَ بكل ما له مـــن عواطـــفِ الحـــبِّ والغضبِ، وأميالِ النفسِ والجسد، ونزعاتِ القلب والشهوات، ووهنِ الطبيعة ومتطلبّاتها : لقد عرفَ النبيّ الحبَّ والشهوةَ، واختارَ له نساء، وميّزَ بينهنَّ، فأحبَّ واحدة أكثرَ من واحدة، وكانَ له أولاد، وهَمُّ تربية الأولاد، وكان له أصحاب أوفياء، وأعداءُ نَزَّلَ عليهم اللعنات. كان كسائرِ البشَر في كل شيء : في تَعَبِهِ ومَرَضِهِ وآلامِه وأَكْلِهِ وشربِه ومَشيه في الأسواق[2] ... في هذه كلِّها لم يَعصمِ الله نبيَّه، ولم يقيِّدْ حريّتَه ...

الاّ انّ الله عَصم نبيَّه من ارتكابِ الفواحشِ والأخطاءِ والأغلاط وكلِّ ما يمـــتّ إلـــى الأخلاق بصلة. وعصَمه أيضًا وخاصّةً فيما يتعلّق بتبليغ كتابهِ وكلامه. وهذه العصمة هي أمرٌ قديم جدّاً في تاريخِ الله مع الأنبياء : لقد كانَ النبيّون في إسرائيل معصومين؛ وفي المســـيحية عصمةٌ تمتدُّ بعيداً؛ بل كلُ صاحبِ عقيدةٍ أو نفوذٍ أو قيادةٍ يتمتّع، عندَ أتباعه، بعصمةٍ مـــا ... ويبدو أنّ الإنسانَ، في ضياعِه في خضمِّ هذا العالم المضطرب، يحتاجُ إلى بعـــض العصـــمة يجدُها في مكانٍ ما، ليطمئنّ. بل كل امرئٍ يَسعى لأن يكونَ في مسعاه معصوماً ...

وكم في التاريخِ عُصِمَتْ أنبياءُ وأولياءُ وقدّيسون وأئمّةٌ وأصـــحابُ عقيـــدةٍ وزعمـــاءُ سياسيون وثوّارٌ ومنظّرون ومنظّمون... وكم عُصِمَتْ شـــرائعُ وقـــوانينُ وكتـــبٌ ووســـائلٌ

---

[1] سورة المزمل ٧٣ / ٥.
[2] سورة الفرقان ٢٥ / ٧ ، وغيرها.

ومبادئ... فَمَنْ يستطيعُ تغييرَ حرفٍ واحدٍ من كتبِ السماءِ دونَ أن تنهالَ عليه ويلاتُ الأرضِ وأوهالُ السماوات! ومَنْ يمكنُه ألاّ يرى حتى في كتابهِ كلَ عصمةٍ وكلَ حقّ! ومَنْ يتمكّنُ من إزالةِ حرفٍ واحدٍ من الناموس، حتى ولو كانَ كلُ حرفٍ من الناموس من صنعِ رجالٍ تعساء!

لكأنَّ العصمةَ هي، عندَ البشر، نزعةٌ نحوَ الأبديّة : والحقيقةُ هي أنَّ كلَّ شيء على الأرضِ يَمُوج؛ والأرضُ كلُّها تموج بكلِ شيء، والحياةُ غيرُ مستقرّة، وعواملُ الكونِ في تغييرٍ مستمرّ، ومعالمُ البشريّةِ تُمْحَى سريعاً، وعلومُ الإنسان تَنقلِبُ من عصرٍ إلى آخر، والأمرُ الواحد حقيقةٌ هنا وضلالٌ هناك، ودُوَلٌ تَدول، ومجتمعاتٌ تَزول، وعالَمٌ يبور، والكلُ في اضطراب. وليسَ على الأرضِ ثابتٌ الاّ ما لا يَثبت ... تجاهَ هذا الواقع المائِج، خَلَقَ الإنسانُ له حَبْلاً متِيناً رَبَطَ بهِ الأرضَ المائِجَةَ بِعُمُدِ السماءِ الثابتة، فكانتِ العصمةُ خيرَ ما أَوْجَد.

ملايينُ الكتبِ في المكتباتِ حاوَلَ أصحابُها وَضْعَ بعضِ العصمةِ فيها. وليسَ في الأرضِ مَن مفكّرٍ أو صاحبِ رأي أو مُنظِّرٍ الاّ ويَدمَغُ ما عندَه بالعصمة. بل ليسَ من ساعٍ نحو عصمةٍ ما لديه الاّ ويريدُ دَفْعَ الآخَرينَ إلى عصمتهِ دفعاً. وبات الجميعُ ينوءُ تحت عبءِ ثقلِ العصمةِ وأصحابِها. وقد لا تكونُ مشاكلُ الأرضِ والإنسانيةِ الاّ من هذا القبيل. فلولا خَفَّفَ الإنسانُ عن أخيه ضَغْطَ عصمتهِ لَهَانَتْ بين الناسِ سُبُلُ المحبةِ والوِفاق والسلام. ولكنّ ميلاً في عمق كل انسان يَجْمَعُ بهِ نحوَ العصمة. فلهذا كان في الأرض حروبٌ وثوراتٌ وبغضٌ وكفرٌ وبلبال. وأجلى صُوَرِ العصمةِ رُقِّمَتْ في الدين. فلا الدينُ يزول، ولا العصمةُ فيه تَخِفُّ حِدّتُها؛ لا المؤمنُ يتزحزحُ عن عصمةِ دينه، ولا لاعِنُ الأديان يستطيعُ النجاةَ من دغدغةِ عصمته!

يهونُ الإيمانُ بالعصمة في ما يتعلّقُ بأمور السماء والأديان ... ولكن كيف يهونُ معَ رجالٍ عَصَمُوا أنفسَهم وعصَمَهم الناس ؟ وقد يهونُ الأمرُ أيضًا إذا تمتّعَ هؤلاءِ الرجالُ بعصمةِ أهلِ زمانهم، ولكن كيف يهونُ متى انقلبَ ذاك الزمان، وتَبَدَّلَتْ معالمُ الحضارة، وانقلبَ التاريخُ على نفسِه، وقَلعَ مجتمعٌ حضاريٌّ مجتمعًا بدائيًا بدويًّا، وأطاحتِ الأرضُ الخضراءُ بالصحراءِ المتلهبة، وأخذتِ الطائراتُ تملأُ آفاقَ البرِّ والبحرِ مكانَ الابلِ والحمير...

متى حدث كلُ هذا، نسأل : هل تبقى العِصمةُ في مجدِها ؟ وهل نبقى تحتَها رازحين إلى الأبد ؟ هل يبقى الرجالُ أحياءَ بعصمتِنا لَهم، وقد أماتَهمُ اللهُ رحمةً بنا ؟ هل يتسنّمُ كلُ معصومٍ بمجدِه على رؤوسِنا وفي عرشِ قلوبنا، وعظامُه في الترابِ بُلِيَتْ وصيّرتْها الأرضُ

الحنونةُ هَبَاءَ ؟ هل يحقُّ لنا تخليدُ رجالٍ أفنـــاهُمُ الله ؟ ... ليتَ الوثنيةَ تعودُ بوجهِها الصريح من أن تكونَ على مثلِ هذا الوجهِ الخبيث!!!

مَن هو الكافرُ بالله، أَعابِدُ الأصنامِ الذي بها يَسعى نحوَ الله، أم الذي يســرقُ مــن اللهِ عصمتَه ليغرّزَها في رَجُلٍ مائتٍ كالرجال ؟ مَن هو المشركُ بالله، ذاكَ الذي أطلقَ سَرَاحَ الله، أم ذاكَ الذي حصَرَ اللهَ في هيكلٍ من حجارةٍ أو في كتابٍ من وَرَقٍ وحروف!؟

ومع هذا يجب أن يبقى عند بعضِ الناسِ لبعضِ الرجالِ بعضُ العصمة. لولاها لَضَاعَ الناسُ في ضَياعٍ محتوم. بعضُ العصمة يخلّصُ الإنسانَ من القلق، ولكنَّ العصمةَ كلَّها تُــرِيحُ العقلَ الذي خُلِقَ حرًّا باحِثًا متحرِّكًا ناشِطًا عامِلاً في كل أمرٍ من أمورِ الخَلقَ. بعضُ الاتّــزانِ يكفي لبعضِ الخلودِ على أرضِ الفناء. وبعضُ الحرّيّة من معصوميّ السماء يَكفلُ لنا أَجْرَين : أجرِ الباحثِ، وأجرِ مَنْ يحافِظ على كرامة الإنسان. فأطلِقوا الحرّيّةَ، وقيّــدوا اتســاعَ رقعــةِ العصمةِ والمعصومين، ولكم منّي، بعد هذا، نشيدُ الظفر.

ونشيد الظفر هو هذا : أن تحرّرَ اللهَ، وأن تتحرّرَ بفضلِ الله. أن تسأل : كيف عَصَــم اللهُ نبيَّه محمّداً من النسيانِ ومن أهواءِ الطبيعة ومن دسِّ الشيطان ومن التحريفِ والتصحيفِ في الكتابِ الذي بين يديه. وكيف رُبِطَ هذا الكتابُ بِعُمُدِ السماء، وكيف نزّلَه ملاكٌ من السماء، وكيف يتمتّع هذا الملاكُ بعصمةِ الله ؟ وأن تسأل: هل حَفَظَ محمّدٌ كلَ القرآن، أم نسيَ بَعضَه ؟ هل من حفظِ القرآن معجزةٌ إلهيّة، أم اللهُ تركَ التاريخ يَسعى بموجبِ نظامِه المتــأرجحِ بــين الحق والباطلِ ؟ فلننظر.

أولاً ــ النسيان النبوي

يعترف القرآنُ نفسُه بأنّ كثيراً منه قد نُسِيَ. ولئن كان الأنبياء معصومين في رسالتِهم وأخلاقِهم، فإنّهم، على ما يبدو، لم يُعصَموا من الضعفِ والــوهَن الحاصِــلين فــي الطبيعــة البشريّة. ونجدُ القرآنُ والسنّةَ يُقرّان بهذا الضعفِ النبوي. ولا بدّ للمسلمين أن يُقــرّوا بهــذا الضعف في ذاكرةِ النبي الذي أساء في حفظ كل القرآن.

فمنذ مطلع الوحي حذّر الله محمّداً من نسيان شيء من القرآن، قال : « سَنُقْرِئُكَ فــلا تَنسى إلاَّ ما شَاءَ اللهُ. إنّه يعلَمُ الجهرَ وما يخفى. ونُيَسِّرُكَ لِليُسرى »[1]. وجــاء فــي تفســيرِ الجلالين : سنقرئُك القرآنَ فلا تنسى ما تقرؤُه الاّ ما شاءَ الله أن تَنْسَاه، بِنَسْخِ تلاوتِه وحِكمِــه. وكان الرسولُ يجهرُ بالقراءةِ مع قراءةِ جبريل خوفَ النسيان، فكأنّه قيل له : لا تعجلْ بهــا، انّك لا تَنْسى فلا تُتعِبْ نفسَك بالجهر بها، انّه تعالى يعلم الجهرَ من القولِ والفعلِ وما يخفــى منهما ... »[2].

فإذا كان « الجلالان » يُقرّان بإمكانيّةِ النسيان عند محمّد، فانّ محمّدَ الكلبــي يجيــزُه فيقول : « ان النسيانَ جائز على النبي (ص) فيما أرادَ الله أن يَرْفَعَهُ مِنَ القــرآن، أو فيمــا قضَى اللهُ أن يَنْسَاه، ثم يَذْكره. ومِن هذا قول النبي (ص) حين سَمع قراءةَ عباد بــن بشــير رحَمَهُ الله : لقد أذكرَني كذا وكذا آيةً كنتُ قد نسيتُها »[3].

أمّا تفسير الزمخشري فيتوقّف على معجزة قراءةِ جبريل للنبي لئلا ينساه. « وقيــل : كان يعجلُ بالقراءة إذا لقّنهُ جبريلُ، وقيل : لا تعجل فانّ جبريلَ مأمورٌ بأن يقرأَه عليكَ قراءةً مكرَّرَةً إلى أن تحفظَه ثم لا تَنساه الاّ ما شاءَ الله، ثم تذكّرَهُ بعد النسيان ... وروى انّه أَسْــقَطَ آيةً في قراءتهِ في الصلاةِ فَحَسِبَ أُبَيٌّ (بن كعب) انّها نُسِخَتْ، فسأَله، فقال : نَسِيْتُهَا »[4].

وجاءَ في تفسير الطبري : « أخبر انّه يُنسِي (اللهُ) نبيَّه منه (من القرآن) ما شاء : فالذي ذَهَبَ منه هو الذي استثناه الله »[5]. ونجد أيضا في « كتاب مجموعةٍ مــن التفاســير »

---

[1] سورة الأعلى ٨٧ / ٦ ـ ٨.
[2] تفسير الجلالين على سورة الأعلى، ص ٧٩٥.
[3] محمد الكلبي، كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ١٩٣ ـ ١٩٤.
[4] الزمخشري، الكشاف ٤ / ٢٤٣.
[5] تفسير الطبري ٢ / ٤٨.

للبيضاوي والنَسَفي والخازن وابن عبّاس اقرارا بالنسيانِ النبوي وبحدوثهِ مِرَارًا على ما روى المحدِّثون ومنهم الصحيحان[1].

وفي سورة الكهفِ قوله : « واذكر ربَّكَ إذا نَسِيْتَ. وقلْ : عَسى أَنْ يَهْدِيَني رَبِّي لأَقْرَبَ من هذا رشدا »[2]. فسَّر البيضاوي ذلك بقوله : « إذا فرطَ منكَ نسيانُ ذلك ... اذكر ربَّك وعقابَه إذا تركتَ بعضَ ما أَمرَكَ بهِ، ليبعثَكَ على التداركِ. واذكره إذا اعتراكَ النسيانُ لِيُذْكِرَكَ المَنْسِيَّ »[3].

وفي تفسير الزمخشري اشارةٌ إلى منفعة النسيانِ وضرورتهِ. يقول : « واذكرْ ربَّك إذا تركتَ بعضَ ما أمركَ به ... واذكره إذا اعتراكَ النسيان لِيذكّرك المنسيَّ ... والظاهر أن يكونَ المعنى : إذا نسيتَ شيئاً فاذكرْ ربَّك. وذكرُ ربّك عند نسيانِه أن تقولَ : عَسَى ربّي أن يَهدِيَني لشيءٍ آخرَ بدلَ هذا المَنسيّ أقرب منه « رَشَدًا » وأدنى خيرًا، ولِعُلُوِ منفعةِ النسيانِ خيرة، كقوله ــ أو نُنْسِهَا نأتِ بِخَيرٍ مِنها »[4].

وهو أيضا تفسيرُ النسفي والخازن وابن عباس[5].

وفي سورة البقرة قوله: « وما نَنْسَخُ من آيةٍ أو نُنْسِهَا نأتِ بخيرٍ مِنهــا أو مِثْلِهــا »[6]. نتكلّمُ الآن على فعل « نُنْسِهَا » ونرجئُ الكلامَ على « النَسْخِ » إلى ما يلي. لقد اختلفتْ قراءاتُ فِعْلِ « نُنْسِهَا » ؛ فمِنَ المفسرين من قرأَها بمعنى « نؤخِّرُها فلا نُنزِلُ حكمَها ونَرْفَعُ تلاوتَها، أو نؤخِّرُها في اللوحِ المحفوظ »[7]. ومنهم من رأى « معناها: نُثْبِتُها على قلبِك... (فيكون) الإِنْسَاءُ نَسْخًا من غيرِ إقامةِ غيرهِ مقامِه (من أحكام).

---

[1] انظر « كتاب مجموعة من التفاسير » ، ٦ / ٤٩٤.
[2] سورة الكهف ١٨ / ٢٤.
[3] تفسير البيضاوي للقرآن على سورة الكهف.
[4] الزمخشري، الكشاف ٢ / ٤٨٠.
[5] كتاب مجموعة من التفاسير، ١ / ١٠٠ على سورة الكهف.
[6] سورة البقرة ٢ / ١٠٦.
[7] تفسير الجلالين على ٢ / ١٠٦، مجموعة من التفاسير، ص ١٧٤.

أمّا الرأي المرجَّح فهو : « إنساؤُها : اذهابُها عن القلوبِ » أي نسيانِها، « أي نُنْسِكها: أي نُمْحِها من قلبك »[1]. ويعتبر الطبري أنّ « نسيانَ الوحيِ ظاهرةٌ نبويّةٌ إلهيّةٌ في القرآن »[2].

بأيّ معنى جاءت لفظة « نُنْسِهَا » فلا اعتراضَ عليه. ولكنَّ كُتُبَ الحديثِ والسنّة تعترفُ بظاهرةِ النسيان المحمّدي بما لا يبقى لدينا أيُّ شكّ في ذلك :

لقد نَقَل الطبري عن قتادة قوله : « يَقرأُ نبيُّ اللهِ الآيةَ أو أكثرَ من ذلك، ثم تُنْسَى وتُرْفَع » . وأيضًا : « كانَ الله يُنسِي نبيَّه ما شاء » . وعن مجاهِد : « كان عُبيدُ الله بن عَمير يقول : « نُنْسِهَا، نرفَعُها من عندكم » . وعن الحَسَنِ : « انّ نبيَّكم أُقرِئَ قرآنًا ثم نَسِيَهُ » . وعن الربيع : « نُنْسِها، نرفَعُها. وكانَ الله أنزلَ أموراً من القرآن ثم رَفَعَهَا »[3].

والحقيقة إنَّ ما ورد على لسان المفسّرين من معانٍ لفعل « نُنْسِهَا » تتقارب : فَرَفْعُ أحكامِ آيةٍ ما من آياتِ القرآن، أو تأخيرُها، أو نسيانُها، أو محوُها من قلبِ النبي ... كلُّها تدلّ على طَعْنٍ في صميم العصمة. إنّ الله الذي عَصَمَ نبيّه لِيَعصِمَ بعصمتِه القرآنَ « يَرْفَعُ » الآنَ عصمتَه، وذلك بسببِ تبدّلِ ظروفِ النبيِّ وأحوالِهِ وأحداثِ التاريخ. ويثبتُ ذلك ما سيتّفقُ عليه عامّةُ المسلمين من جوازِ نَسْخِ آيةٍ بآية، كما سيأتي ...

وفي صلاةِ النبيّ لربّهِ خيرُ ما نختمُ به مقالَنا : « اللّهمّ! ذكّرني منهُ ما نَسِيْتُ، وعلّمني منه ما جَهلتْ » . ويعترفُ المحدّثون بأهمّيّةِ هذه الصلاة، فيفسّرون : « ربّما نزَل على النبيِ الوحيَ بالليلِ ونَسِيَهُ بالنهار » .

[1] تفسير الجلالين على ٢ / ١٠٦.
[2] تفسير الطبري، ٢ / ١٠٦.
[3] انظر مقالة : الطبري، في دائرة المعارف بمصر، ٢ / ٤٧٤ ـ ٤٨٠، تخريج الأخوين شاكر ...

ثَانياً ــ النسخ في القرآن

في إيمان المسلمين إنّه « لا يجوز لأحد أن يفسِّرَ كتابَ الله الاّ بعد أن يعــرِفَ منــه الناسِخَ والمنسوخ. وقد قال عَلِيٌّ لِقَاضٍ : أتعرفُ الناسخَ من المنسوخ ؟ قال : لا. قال : هَلِكْتَ وأَهْلَكْتَ »[١].

وللنسخ معانٍ :

« منها معنى الإزالــة، ومنه قــوله : « فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلقِي الشيطانُ، ثــم يُحكِــمُ اللهُ آياتِه »[٢].

ومنها معنى التبديل، ومنه : « إذا بدّلنا آيةً مكانَ آية ».

ومنها معنى التحويل، كتناسخِ المواريثِ بمعنى تحويلِ الميراثِ من واحدٍ إلى واحد[٣].

ومنها معنى النقلِ من موضعٍ إلى موضعٍ، ومنه : « نَسَخْتُ الكتابَ » ، إذا نقلتَ مــا فيه حاكياً للفظِه وخطِّه. وهذا الوجهُ لا يصحّ أن يكونَ في القرآن »[٤].

والنسخُ هو من خصائصِ الأمّةِ الإسلاميّة، وقد خصَّها اللهُ بهِ لِحِكَمٍ منها التيسير، وقد أجمعَ المسلمون على جوازِه، ولكنّهم اختلفوا في وجــوهِه. وأحدُ وجــوهه « إن القرآنَ نَسَخَ جميعَ الشرائعِ والكتبِ القديمةِ كالتوراةِ والإنجيلِ وغيرهما. الوجه الثاني : المرادُ من النســخ هو نَسْخُ القرآن ونَقْلُه من اللوحِ المحفوظ إلى سماءِ الدنيا. والوجهُ الثالث، وهو الصحيح، الذي عليه جمهورُ العلماء، إن المرادَ من النسخِ هو رَفْعُ حِكمِ بعضِ الآياتِ بدليلٍ آخرَ يأتي بعــدَه. وهو المراد بقوله تعالى : « ما ننسخُ من آيةٍ أو نُنسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلِها »[٥].

وبتعبير استساغَه الشيخْ صبحي الصالح : النسْخُ هو « رَفْعُ الحكم الشــرعي بــدليلٍ شرعي » ، وهو، بنظرِه، « أدقّ تحديدٍ اصطلاحيٍ لهذه اللفظة »[٦]. وهو، كغيرِهِ من المسلمين المتأخّرين، يعتمد على أئمّة المفسّرين[٧].

---

[١] السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ٢ / ٢٠.
[٢] سورة الحج ٢٢ / ٥٢.
[٣] نفس المرجع السابق.
[٤] الاتقان ٢ / ٢٠ ـ ٢١، البرهان ٢ / ٢٩.
[٥] سورة البقرة ٢ / ١٠٦، كتاب مجموعة من التفاسير، ص ١٧٥.
[٦] الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٦١.
[٧] انظر فصل في حكم النسخ في كتاب مجموعة من التفاسير، ص ١٧٥.

ثم اختلفَ المسلمون في تعيينِ الآياتِ الناسِخَة والمنسوخَةِ، وفي تعيينِ الأحكام الناسِخَة، فإذا ببعضِهم يغلو فيقول بأنّ معظمَ سُوَرِ القرآن يَجْتَمعُ فيها الناسِخ والمنسوخ؛ وبعضِهم الآخر يفرّ من النسخِ ويقول بأن ليسَ في القرآن ناسِخ ومنسوخ، وذلك خوفًا من أن يقعَ هؤلاء بالقول بـ « البداء » ، وهو القول بأنَّ الله يغيِّرُ أحكامَه ويبدّلُها بحسَبِ الظروفِ والمناسبات، وحاشاه من ذلك؛ إلاّ أن المعتدِلين أجمعوا على القول بأنّ الأصلَ في القرآن هو « الأحكام » ، ولكن يوجَد فيه بعضُ « النَسْخ » ، ولكنّه قليل. وقد عدّ السيوطي إحدَى وعشرين آية ناسَخة ومنسوخة[1] والشيخ صبحي لا يرى أكثر من عشرِ آياتٍ فقط[2].

ثمّ إن النسخ في القرآن على ثلاثة أضرب : أحدها ما نُسِخَ تلاوتُه وحكمُه معاً، أي أنّ آياتٍ، بحسب تعبيرِ أبي موسى الأشعري، « نزلتْ ثمّ رُفعت »[3]. الثاني : ما نُسِخَ حكمُه دونَ تلاوتهِ. وهو قليل جداً، لأنّ من « حقِّ الناسخ والمنسوخ أن تكونَ آيةٌ نَسَخَتْ آيةً »[4]. والضرب الثالث : ما نُسِخَ تلاوتُه دون حكمه، أي إنّ كثيرًا من القرآن قد ذهبَ وَسَقَط وبقي حكمه[5].

أمّا الحكمة، برأي المسلمين، في معرفة الناسِخ والمنسوخ « تظهرنا على جانب من حكمة الله في تربيةِ الخلق، وتقفنا على مصدر القرآن الحقيقي : وهو الله ربّ العالمين، لأنه يمحو ما يشاء ويثبتُ، ويرفع حكماً ويبدّلُ آخر، من غير أن يكونَ لأحدٍ من خلقِه عملٌ في ذلك ولا شأن، حتى ولا خاتَمُ النبيين نفسه »[6].

وحكمة ذلك من وجهين : أحدهما إنّ القرآن يُتلى، ولو كانتْ بعضُ أحكامِه منسوخةً، لكونهِ كلامَ الله فيثابُ الإنسان على هذه التلاوة؛ والثاني : إن النسخَ، غالباً، يكون للتخفيفِ، فأُبقيتِ التلاوةُ تذكيراً للنعمةِ وَرَفْعَ المشقّة »[7].

انّ المهمّ بالنسبة إلينا الآن هو الاعتراف بأنّ الله، نظرًا لاختلاف الحال ووضع الناس وتبدّل المجتمع من مكّي إلى مدني، ومن بدوي إلى حضري، ومن دعوة بالسلمِ إلى دعوة

---

[1] السيوطي، الاتقان، ٢ / ٢٣، وقد نظمها في أبيات شعر.
[2] الشيخ صبحي، مباحث ...، ص ٢٧٤.
[3] السيوطي، الاتقان، ٢ / ٢٢.
[4] السيوطي، الاتقان، ٢ / ٢٢.
[5] السيوطي، الاتقان، ٢ / ٢٢ ـ ٢٥.
[6] الشيخ صبحي الصالح، مباحث ...، ص ٢٥٩.
[7] السيوطي، الاتقان، ٢ / ٢٣.

بالجهاد، ومن وعظٍ وتبليغٍ إلى سنِّ شرائع وقوانين ...، إن الله أجازَ لمحمّد تبديلَ مواقِفه، كما أجازَ له، تبريراً لهذا التبديل، أن يَرْفَعَ الأحكامَ ويبدّلَها بغيرِها. فيكون معنى ذلك :

إنّ « اللهَ سبحانه وتعالى يعلّمنا أنّ تغيُّر الزمن والظروف يقتضي تغيُّر الأحكام. فليستِ المسألةُ متعلّقةً بعلمِ الله شيئاً الآن لم يكنْ يعلمُه من قبل. حاشا الله. ولكنَّ المسألةَ أنَ الحِكمَ يتّفقُ مع الظروفِ في فترة من الفترات فيقضي الله به، ثم تتغيّرُ الظروفُ أو يريدُ الله التخفيفَ عن عبادهِ فيتغيّرُ الحكم. فالمسألةُ لا علاقةَ لها بعلمِ اللهِ الواسعِ الشاملِ، ولكن علاقتُها بحاجةِ الناسِ من جهة، وبتعليمهِم التطوّرَ حسبَ الظروفِ من جهة أخرى ... »[1].

ولكنّنا نسأل : إذا كان الله أجازَ لمحمّد نسخَ بعضِ الأحكام في مدّة ثلاث وعشرين سنة من البعثة النبويّة، نظراً لتبدّلِ الظروفِ وحال الناسِ وللتخفيفِ عن المؤمنين ... أفلا يُجَوِّزُ لنا الدكتورَانِ أحمد الشلبي وصبحي الصالح وصاحبا الاتقان والبرهان وكلُّ المسلمين نَسْخًا آخر! وكل شيء يدعو إلى ذلك! إنّ تبدّلَ ظروفِ البشر، وتطوّرَ العلمِ، وتغييرَ وجهِ الكون، وانقلابَ نظريّاتٍ كثيرة في العالَم رأسًا على عقب ... تستحقّ نسخاً آخر قد يكون أوسعَ وأشملَ من النسخِ الأوّل!

إذا كان أهل مكّة والمدينة استحقّوا خلالَ ثلاث وعشرين سنة أحكامًا تَنسخَ أحكامًا، وآياتٍ تُبدِّلُ آيات، بسببِ أوضاعٍ جديدة وأحوالٍ مستجدّة، ألا نستحقُّ نحن، في مدةٍ تزيدُ على الثلاثِ وعشرينَ سنةٍ بأكثر من ألفٍ وأربع مائةِ سنة وسنتين، رحمةً من اللهِ تَرْفَعُ عنّا أحكامًا وسنَنًا بُلِيَتْ كما بُلِيَ المجتمعُ الصحراوي!

إذا كانت أحكامُ القرآن وسننُه في متناولِ بَدْوِ الحجازِ، وقد آمنَ بها مَن فهِمَها منهم، وأنكرَها من فهِمها منهم أيضاً، وقد نُسِخَتْ وتَغَيَّرَتْ بالنسبةِ إلى تبدّلِ أحوالِهم، ألا يستحقُ متحضِّرو العصرِ الخامسَ عَشر أن يكونَ لهم أحكامٌ وسننٌ هي في متناولِ حضارتِهم!! أيعقلُ ألاّ يكونَ متحضِّرو هذا الجيلِ أكثرَ وعيًا وعلمًا ومعرفةً من بدائيي الصحراء!! وكيف كان لهؤلاءِ أحكامٌ تُنْسَخُ ولأولئك أحكامٌ تبقَى مدى الدهر!!

[1] الدكتور أحمد شلبي، هل هناك قرآن منسوخ ؟ في كتاب « القرآن نظرة عصرية جديدة » ، لجملة مؤلّفين، ص ١٥٠.

أيحكمُ القرآن على الناس بأنّهم مهما علا كعبُهم في العلمِ والمعرفة يظلّون بمستوى ما فهِمَه البدوي منه! إذا كان الفرقُ بين المدني والمكّي من القرآن واسعاً إلى هذا الحدّ الذي يقرُّه المسلمون، ألا يكون هناك فرقٌ أوسع بين المدنيّ اليثربي والحضريّ الرياضي أو النَجَدي!!

لقد كان النبيُّ أرحمَ بالنسبةِ إلى أهلِ زمانه منه بالنسبةِ إلينا اليوم! لقد أنزلَ إليهم أحكامًا، ثم رَفَعَهَا، ثم أنزلَ أحكامًا أخرى، ثمّ نَسَخَهَا ... على أن استقرّتِ الأحكامُ وجُمّدتْ ووَصلتْ إلينا وستصِلُ مِن بعدنا إلى أبنائنا في الجيلِ الألف للبشريّة ... فلا نبيَّ يأتي بعد خاتم النبيين، ولا حكمٌ يصدر من جبريل يوقِفُ به حكَمَا آخر ... وسنظلُّ مع أهل مكّة والحجاز بمستوى واحد من العلم والمعرفة، وهم أخواننا في كلّ حال!!

لقد أقرّ المسلمون النسخَ في القرآن، وأجازوا لمحمّد أن يبدّلَ في أحكامِ الله. وفي هذا معجزةٌ لا مثيلَ لها : إنّ اللهَ يسايرُ نبيَّه المختارَ ليكون على مستوى الرسالةِ التي دعاهُ إليها. وبَدَلَ أن يُقال إنّ هناكَ تناقضًا في الأحكام والشرائع قيل : هناك آياتٌ تَنْسَخُ آيات. وأقول مع الدكتور أحمد شلبي : « لا أفهم معنى لآيةٍ أنزلَها اللهُ تُفيدُ حكمًا، ثم يرفَعُها مع بقاءِ حكمها، لأنَّ القرآن يقصد افادةَ الحكمِ والاعجازَ بنُظُمِه. فما هي المصحة في رَفْعِ آيةٍ منه مع بقاءِ حكمها! إن ذلك غير مفهوم. وفي رأيي إنّه ليس هناكَ ما يلجئني إلى القول به »[1].

ومن غير المفهوم أيضًا رفعُ الحكمِ معَ بَقاءِ آياته! ولا رفعُ الحكم والآياتِ معاً. كما قالت عائشة وكما قال المكّي : « فيه المنسوخ غيرُ متلوٍّ والناسخُ أيضًا غيرُ متلوّ »[2] ... واختلط علينا بهذا المعتقد كل شيء. ولكن يبقى ــ الإيمانُ بالله الذي أرادَ الإنسانَ حرّاً، لا تقيّدهُ شريعة، ولا ينحصِرُ في عصمةِ الأنبياء.

[1] أحمد شلبي، هل هناك قرآن منسوخ ؟ ص ١٥٤.
[2] السيوطي، الاتقان ٢ / ٢٢.

ثَالثاً ــ إجازة التبديل في القرآن

يتأرجح المسلمون في إيمانهم بين وجود تعديل في القرآن وعدم وجوده. فمن جهة يؤمن المسلم بأن « لا تبديل لكلمات الله »[1]، « ولن تجد لسنّة الله تبديلاً »[2]. ومن جهة ثانية يعترف القرآن بإمكانيّة تبديل آية مكان آية، ويقول : « إذا بدّلنا آيةً مكانَ آيةٍ. والله أعلم بما ينزّل ... »[3].

والأرجح عند المسلمين عامّة ألاّ يكونَ في القرآن شيءٌ من التبديل أو التحريف أو التناقض. ولذلك أجمعَ المفسّرون على أنّ التبديلَ في الآية السابقة يُفَادُ منه النَسْخ، فيكون معناها إذاً : « إذا بدّلنا آية ناسِخَة بآيةٍ منسوخة » .

ولكنّ الآية بكاملها : « وإذا بدّلنا آيةً مكانَ آية ــ والله أعلم بما ينزّل ــ قالوا : انّما أنتَ مُفْتَرٍ ــ بل أكثرُهم لا يعلمون ــ. قل : نزّلَه روحُ القدس من ربّك بالحقّ، لِيُثَبِّتَ الذين آمنوا، وهُدَى وبُشْرى للمسلمين » . إنّها تعني، بحسب أهل التفسير : « بأنّ المشركينَ مِن أهل مكّة قالوا إنّ محمّداً يَسْخَر بأصحابه، يأمرُهم اليومَ بأمرٍ، وينهاهُم عنه غدًا، ما هو الاّ مفترٍ يتقوّلُه من تلقاءِ نفسه. فأنزلَ الله هذه الآية »[4].

ولكنّ يبدو أنّ هذه التهمة في التبديل والتحريف قد لاحقت محمّداً طيلةَ رسالته. ونحن مع القرآن حَيارى بين تهمةٍ وَرَدِّ تهمةٍ، وبين طعنٍ وطعنٍ مضاد. وانّنا لنجدُ آياتٍ كثيرةً يجهدُ محمّدٌ بها في رفعِ التهمة والطعنِ عنه. منها قوله :

« قال الذين لا يرجون لقاءنا : ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا، أو بدّلْه ... قل : ما يكونُ لي أن أبدّلَهُ من تلقاءِ نفسي...»[5]. وقال أيضًا: « لا تبديلَ لكلماتِ الله. ذلك هو الفوز العظيم »[6]. وقال : « سنّةُ الله في الذين خَلَوا من قبل. ولن تجدَ لسنّةِ الله تبديلاً »[7]. وقال : « فلن تجدَ لسنّةِ الله تبديلاً، ولن تجدَ لسنةِ الله تحويلاً »[8] ... الخ.

---

[1] سورة يونس ١٠ / ٦٤، انظر أيضًا : ٦ / ٣٤ و ١١٥ ، ١٨ / ٢٧.
[2] سورة الأحزاب ٣٣ / ٦٢، وأيضًا : ٣٥ / ٤٣ ، ٤٨ / ٢٣ وغيرها.
[3] سورة النحل ١٦ / ١٠١ ـ ١٠٢.
[4] كتاب مجموعة من التفاسير، ٣ / ٦٤١.
[5] سورة يونس ١٠ / ١٥.
[6] سورة يونس ١٠ / ٦٤، انظر : ٦ / ٣٤ و ١١٥ ، ١٨ / ٢٧.
[7] سورة الأحزاب ٣٣ / ٦٢.
[8] سورة فاطر ٣٥ / ٤٣، انظر أيضًا : الفتح ٤٨ / ١٥ و ٢٣، البقرة ٢ / ٥٩ و ١٨١.

وممّا يرجّح صحّةَ تهمةِ التبديلِ أيضًا ما قرّره القرآنُ نفسُه في تخفيفِ سنّة اللهِ التي أصبحتْ فيه مبدأً قرآنيّاً وعقيدةً اسلاميّة في يُسْرِ الشريعةِ وخفّتِها على الناس. وانّنا نجدُ آيات كثيرة تشير إلى ذلك. قال :

« الآنَ خفّف اللهُ عنكم، وعَلِمَ أنَّ فيكم ضعفًا »[1]. وقال : « ويُريدُ اللهُ أن يخفّفَ عنكم، وخُلِقَ الإنسانَ ضعيفاً »[2]. وقال أيضًا : « ويريدُ الله بكم اليُسْرَ، ولا يُريدُ بكم العسرَ »[3] الخ... الخ...

وحجّة ذلك انّ محمّداً هو رسول لأمّة معيّنة، لها ظروفها وأوضاعها الخاصّة : « لقد بعثنا في كل أمّة رسولاً »[4]، ورسول العرب الأميّين يجب ألاّ يكونَ كرسولِ أهلِ الكتاب الراسخينَ في العلم ... وليستْ قصّةُ الإسراء والمعراج الاّ سعيَ محمّد إلى اللهِ يطلبُ منه تخفيفَ الصلاة عن أمّته، لتكون ثلاثَ مرّات في النهار، لا خمسينَ مرّة كما هي حال أمّة موسى... سأل موسى محمّداً، بعد رجوعه من عند الله : « ما فَرَضَ ربُّكَ على أمّتِك ؟ فقلتُ: خمسينَ صلاة في كل يوم وليلة. قال موسى : ارجِعْ إلى ربّك، فاسألْه التخفيفَ. فانّ أمّتَك لا تطيق ذلك ... فرجعتُ إلى ربّي فقلتُ : أي ربِّ خفّفْ عن أمّتي. فحطَّ عنّي خمسًا. فرجعتُ إلى موسى. قال : ما فعلتَ ؟ فقلتُ : قد حَطَّ عني خمسًا ... الخ »[5]. ولم يزل محمّد يرجِعُ إلى إلى الله ويلتقي بموسى حتى حَطَّ اللهُ عنه كلَ الصلاةِ ما عدا ثلاثاً ...

وهكذا جَرى بين الله والأمّةِ الإسلامية نوعٌ من التعاطفِ والرحمةِ بسبب ضَعفِ الإنسان ... والمسلمون، اليوم، يفتخرون ويتباهون أمام شعوبِ الأرض وأديانهم، عندما يعلنون باستمرارٍ سهولةَ الشريعةِ الإسلاميةِ وخفَّتها ويُسرَها ومسايَرتها الطبيعةَ البشريةَ وأميالَها، حتى غدا « الإسلامُ بنظرهم دينَ الفطرة، والفطرةُ دينَ الإسلام »[6]. وهذا من قول الله: « فطرةُ الله التي فَطَرَ الناسَ عليها »[7].

---

[1] سورة الأنفال ٨ / ٦٦.
[2] سورة النساء ٤ / ٢٨.
[3] سورة البقرة ٢ / ١٨٥.
[4] سورة النحل ١٦ / ٣٦، انظر أيضا : يونس ١٠ / ٤٧.
[5] انظر قصة الاسراء والمعراج في تفسير الجلالين على سورة ١٧.
[6] محمد جواد مغنّية، الإسلام بنظرة عصرية، ص ٥١.
[7] سورة الروم ٣٠ / ٣٠.

ومن مسايرة أميال الطبيعة وأهوائها ما نجده في الإسلام من تحريمه للرهبانيّة، اذ هي بدعة نكراء[1]. وفي الحديث : « لا رهبانيّة في الإسلام » ، ومن حبٍّ شهيٍّ للطعام والشـــرب ولكن دونَ الاسراف[2]، ومن حبِّ الشهوات من النساء والبنين[3]، إذ هي زينة الحياة الدنيا.

وفي الأحاديث ما روى عن النبي : « ليس خيرُكم من تَرَك الدنيا للآخرة، ولا الآخرةَ للدنيا، ولكن خيرُكم من أخذَ من هذه وهذه » . وأيضاً « انّما حبّبَ إليَّ مـــن دنيـــاكم النســـاءَ والطيب، وجعلتُ قرّةَ عيني في الصلاة » . وقال لرجل ابتغى العزوبة : « فأنـــتَ اذن مـــن أخـــوانِ الشياطين. إن كنتُ من رهبـــانِ النصارى فألحقْ بهـــم. وإن كنتَ منّا فمـــن ســـنّتِنَا النِكاح » ... الخ.

مهما حاول المسلمون من إبعادِ شبهة التبديلِ والتحويلِ في القرآن، فانّ شريعةَ الإسلام بَدَّلَتْ وحَوَّلتْ في شرائعِ الأنبياءِ السابقين. ولئن كانَ محمّدٌ يفتخرُ بالانتماءِ إليهم فانّه أعجـــزَه الأخذُ بشريعتِهم التي حرَّفَ فيها وبدَّل. وأيضًا : لم يبدِّلْ محمّد في شرائع الأنبياءِ وحَسبُ، بل بدّلَ فيما أُنزِلَ عليه بين مكّة والمدينة. ولذلك اتّهمَه المتّهمون بالغشِّ والافتراءِ على الله. وكان، بالطبعِ، يردّ كلَ تهمة، وحجّتُه إنّه رسولُ أمّةٍ أميّةٍ بدائيّةٍ، يعجزُهـــا اللحـــاقُ بأهـــلِ الكتـــاب وشرائعهم.

[1] انظر سورة الحديد ٥٧ / ٢٧.
[2] سورة الأعراف ٧ / ٣١.
[3] سورة آل عمران ٣ / ١٤.

رَابعاً ــ دسّ الشيطان في الوحي

هناك في القرآن ظاهرةٌ عجيبةٌ غريبةٌ مثيرةٌ فريدةٌ من نوعها من الكتب السماوية، وهي إمكانيّة تُدخّلِ الشيطانِ في إِلْقَاءِ التحريفِ والفسادِ على لسانِ النبي بغيرِ علمهِ. يقول :

« وما أرسلنَا من قبلِك (يا محمّد) من رسولٍ ولا نبيٍّ الاّ إذا تمنّى (قرأ) ألقى الشيطانُ في أمنيّته (قراءته ما ليس من القرآن) ثم يُحكِمُ اللهُ آياتِه. والله عليم حكيم. ليَجعَلَ ما يُلقي الشيطانُ فِتنَةً (محنة) للذين في قلوبِهم مَرَضٌ (شقاق ونفاق) والقاسيةِ قلوبُهم. وإن الظالمينَ لَفِي شِقَاق بعيد. وليعلمِ الذينَ أُوتُوا العلمَ أنّه (القرآن) الحقُّ من ربِّك فيؤمنوا به فَتُخْبِتَ له قلوبُهم (تطمئنّ) »[1].

في تفسير الجلالين لهذه الآيات ما يثبت دسَّ الشيطان هذا : « قرأ النبي في سورةِ النجمِ بمجلسٍ من قريش بعد « أفرأيتمُ اللاتَ والعزّى ومناة الثالثة الأخرى »[2] بالقاء الشيطانِ على لسانِه من غيرِ علمه به : تلكَ الغرانيق العُلا، وان شفاعتَهنّ لَتُرتجى، ففرِحوا بذلك، ثم أخبرَه جبريلُ بما ألقاهُ الشيطانُ على لسانِه من ذلك، فَحزِنَ، فَسُلِّيَ بهذه الآية (من سورة الحجّ) »[3].

وفي القرآن أيضًا قوله : « ... وامّا يُنسِيَنَّكَ الشيطانُ، فلا تَقْعُدْ بعدَ الذِكرى »[4]. معنى ذلك : وان أنساكَ الشيطانُ بعضَ ما أُنزِلَ عليك، فلا تَقْعُدْ حتى يذكّرَكَ الله بهِ ... ويفسّر الزمخشري بقوله : « إن شِغلَكَ يا محمد بوسوسةِ الشيطانِ حتى تَنْسَى النهيَ عن مُجالَسةِ المستهزئين من قريش، فلا تَقْعُدْ معهم بعد أن تذكر النهي »[5].

إلاَّ أنّ بعضَ المسلمين المعاصرين لا يقبلون بحالٍ من الأحوال أن يكونَ للشيطانِ سلطانٌ أو تدخّلٌ في حياةِ النبي وفي وحيِ اللهِ إليه. لهذا يعلِّقُ خالد الحمصي الجوجا على مثلِ هذه التفاسير لأئمّةِ المفسرين بقوله : « وهذا الحديث، من ناحيةِ موضوعهِ، يصادِمُ أصلاً من أصولِ العقيدةِ الإسلاميّة، وهو عصمةُ النبي من أن يَدِسَّ عليه الشيطانُ شيئًا في تبليغِ

---

[1] سورة الحج ٢٢ / ٥٢ ـ ٥٤.
[2] سورة النجم ٥٣ / ٢٠.
[3] انظر الزمخشري ٣ / ١٩، وكتاب مجموعة من التفاسير ٤ / ٣١٥ ـ ٣١٩.
[4] سورة الانعام ٦ / ٦٨.
[5] الزمخشري، الكشاف ٢ / ٢٦ ـ ٢٨.

رسالته »[1]. وهو يحيلنا إلى تفسيرٍ معاصر لسيدِ قطب في « ظلالَ القرآن » حيث يعصم النبي من دسائس الشيطان وحيَلِهِ.

ولكنّ محمّدًا كان يَعي تدخّلَ الشيطانِ في ضميرهِ ووجدانِه، فكان يلجَأ مراراً وتكراراً إلى خديجة لتفسّرَ له عمّا إذا كانَ ما يحدثُ له من الله أم من الشيطان[2]. وقد تعجزُ خديجةُ عن تفسيرِ كل شيء، أو قد لا تطمئنُّ كثيرًا إلى تفاسيرها، فكانتْ تذهبُ بابنِ عمّها إلى القسِّ ورقة[3]، وكان القسُّ ورقة يتدبّرُ بعلمهِ ومعرفتهِ النبيَّ وما يحدُثُ له. وكم مرةً رجَعَ النبيُ إلى منزلهِ مطمئنّا »[4].

تجاه هذا الواقع المحزن الذي كان يتعرّضُ النبي له، أمرَ اللهُ رسولَه بالاستعاذة، قبل كلِ عملٍ وكلِ صلاة. ولقد يَفْتُكُ الشيطانُ بالنبيّ فَتْكاً، ويطعنُه طعنًا، ويَنخَسُه، ويُفسِدُ عليه الوحيَ والتنزيل، ويستحثُّه على صنعِ الشرّ والمفاسد، ويحملُه على المعاصي ... وقل مع القرآن وبأسلوبه : ينزغنّه نزغاً، أي يلقى الفسادَ فيه ... قال : « وامّا (ان ما) يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشيطانِ نَزْغٌ فاستعِذْ باللهِ انه هو السميعُ العليم »[5].

وعلى النبي، حيالَ أمرِ الشيطان معه، أن يصلّي إلى الله لينجّيَه من تجاربِ الشيطان : « قلْ : ربِّ، أعوذُ بكَ من همزاتِ الشياطين »[6]. وعند قراءة القرآن لا بدّ من الاستعاذة من الشيطان : « فإذا قرأتَ القرآن فاستعذْ بالله من الشيطانِ الرجيم »[7]. والأمر بالاستعاذة جاء قبلَ الأمرِ بالاستفتاحِ باسمِ الله الرحمن الرحيم. وحتى اليوم يستهلُّ القارئ قراءَته بـ« أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيم » ، ثم يكمّلُ البسملة ...

وخشيةُ تدخّلِ الشيطانِ في الوحيِ لم تكنْ عندَ النبي وَهْمًا، فمحمّد يردُّ التهمةَ عنه باستمرارٍ، ويَدْفَعُ عن القرآنِ تهمةَ دسائسِ الشيطان فيه. يقول : « وما تنزلّتْ به الشياطينُ، وما ينبغي لهم، وما يستطيعون. إنّهم عن السمْعِ لَمَعْزولون »[8]. ويقول أيضًا : « وما هو بقولِ بقولِ شيطانٍ رجيم »[9]، وأيضًا : « وكذلك جَعَلنا لكلِّ نبيّ عدوًا شياطينَ الإنسِ والجنّ، يوحي بعضُهم إلى بعضٍ زخرفَ القولِ غروراً. ولو شاءَ ربّك ما فَعَلُوه »[10].

---

[1] تعليق الجوجا على تفسير الجلالين، ص ٤٤٧.
[2] انظر كتاب قس ونبي والمراجع على ذلك، ص ٥٢ ـ ٦١.
[3] نفس المرجع، وانظر ص ٥٢ من هذا البحث.
[4] سيرة ابن هشام ١ / ٢٢٢، تفسير الطبري ٢ / ٤٩ ...
[5] سورة فصّلت ٤١ / ٣٦.
[6] سورة المؤمنون ٢٣ / ٩٧.
[7] سورة النحل ١٦ / ٩٨.
[8] سورة الشعراء ٢٦ / ٢١٠ ـ ٢١٢.
[9] سورة التكوير ٨١ / ٢٥.
[10] سورة الانعام ٦ / ١١٢.

لو أنّ للشيطان سلطاناً على النبي وَحَسْبُ، لَهَانَ الأمرُ، فالنبيّ إنسانٌ كسائرِ الناس، له أميالُه وشهواتُه ورَغَباتُه وأهواؤه الطبيعيّةُ كلُّها كاملةٌ. إنّه أيضًا كسائرِ الأنبياء والرسل، يتعرّضُ لمفاسدِ الشيطان وحِيَلِهِ، فالملائكة في الجنّةِ نَزَغَ الشيطانُ بينهم، وآدمُ أسقطَه الشيطان في حبائِله، وداوودُ وسليمانُ وأيّوبُ ومعظمُ النبيين حثَّهم الشيطانُ إلى المعاصي ... والمسيحُ، فيما هو بنظر المسيحيين إلهٌ كلّيُ الكمال، جَرَّبَهُ الشيطانُ في البرّيّة ... ومحمّد لن يكونَ أحسنَ حالاً منهم ... إنّه أمر واقعٌ لا محالة.

الاّ أنّ للشيطانِ تدخّلاً في القرآن! له كلامٌ مدسوس في كلام الله! أو أقلّه يُخْشَى أن يكونَ له ذلك، لأنّ النبيَّ نفسَه خشيَ ذلك ... وخشيتُنا اليومَ أكبر. أهيَ محنةٌ لنا منَ الله لكي نعملَ باستمرارٍ على تمييزِ الحقِّ من الباطلِ! أهيَ رِفعَةٌ للإنسانِ لكي يكونَ متأهِّبًا حَذِرًا! أهيَ فضيلةٌ للإنسان بأنْ يَسعى إلى طردِ الشيطانِ كلَّ مرّة قامَ للصلاة!

ما رأيُ المسلمين اليوم إذا كانَ هذا الشيطانُ المسكينُ هو نفسُه الإنسانُ المتشيطِن! أليسَ الإنسانُ بحِيَلِهِ أمهرَ من أمهرِ شيطان! الحقيقةُ إن ذكاءَ الإنسانِ أوجَدَ الشيطانَ ليريحَ صاحِبَه. بهذا رفعَ عنه مسؤوليّةَ كلِ شرٍّ وفساد. ولعلَّ الشيطانَ الرجيم أسودَّ وجهُهُ لكثرةِ ما حَمَّلَهُ الإنسانُ من شرورِه! مَنْ يَدري إذا لم يكنِ الشيطانُ قابعًا في نفس كلّ إنسانٍ يُدغدِغُه ليتحمَّلَ عنهُ مسؤوليّةَ شرّهِ! في ظنّي أنَّ أجملَ ما خلقَ الله هو الإنسان، وأجملَ ما خلقَ الإنسانُ هو الشيطان. وقد يتحمّلُ محمّدٌ نفسُه ما دسَّهُ الشيطانُ في كتابِ الله.

خاتمة الفصل

إنّ مَن يستعرضُ حياةَ النبيّ محمّد في صَخَبِها ونشاطِها وكثرةِ التحرّكِ فيها لَيَعجَبْ تمامَ العجَب من رجلٍ « أمّيٍّ » يجهلُ الكتابة والقراءة ــ على ما يقوله المسلمون ــ كيفَ استطاع حِفْظَ ٦٦٣٦ آية مؤلّفة من ٧٧٩٣٤ كلمة ومن ٣٢٣٦٧١ حرفًا ... لو لم يكن هناك معجزةٌ من السماءِ لما استطعنَا فهمَ حَدَثٍ هو بهذه الأهمّيّة في التاريخِ البشري!

لقد تمّتِ المعجزةُ رغمَ صعوباتٍ عديدة. ولكثرةِ الصعوبات كانت المعجزة. فبعد الذي رأيناه من ضَعفٍ في ذاكرةِ النبي وعقلهِ، ومِن نَسخِه بعضَ الآيات ليأتي بغيرها، ومن تدخّلِ الشيطانِ ودسِّه في الوحي الإلهي، ومن إجازةِ محمّد للتبديلِ في الوحي بحسبِ ضَعفِ الإنسانِ العربي ووهنِ طبيعتهِ وكثرةِ أهوائها وأميالها ... كلّ هذه جعلتِ المعجزةَ جائزةً بل واجبةً على اللهِ، لكي يتمكّنَ محمّدَ من حفظِ كل الوحي.

وبعد حياة كانت مليئةً بالحروبِ والغزوات والجهادِ والمغانم والأسرى والسبايا... وبعد حياة بيتيّة فقيرةٍ تعيسة، تتعدّد فيها الزوجاتُ والنساءُ فتتعدّدْ طبعًا المشاكلُ والخصومات... وبعد هجراتٍ إلى الحَبَشة مرّتين وإلى الطائفِ ثم إلى المدينة، والهربِ ليلاً بخدعة ماكرةٍ لكفّار قريش... بعد كلَ هذا الصَخَب لا بدّ من معجزة لكي يتمكّن النبيّ من حفظ ما يوحي الله إليه...

إنّ مثل هذه المعجزة اقتضت من الله أن يُفَرِّغَ جبريلَ من كلِ عملٍ أو رسالةٍ أو مهمّة ليتفرّغَ لمحمّد. وقد اقتضَى لجبريل ثلاثٌ وعشرون سنة ينزّلُ القرآن فيها منجّماً، آيةً آيةً، ليتمكّنَ محمّدٌ من حفظها. وكم نَحْسدُ صَبْرَ جبريل وتَصَبُّرَه على رجلٍ أمّيّ يُلَقَّنُ كلامَ الله ويَتعلَّم كلَّ ما عند الله من علوم وقوانين ...

ليس منَّا مَن ينكر قولَ الله تعالى : « إنّا نحنّ نزّلنا الذكرَ وانّا له لحافظون » (١٥ / ٩)، ولكن هل هذا يعني أنّ محمّدًا حفظَ الذكَر كلَّه بقوّةِ عقلهِ واتّقادِ ذاكرته، أم إنّ اللهَ استحفظَه ايّاه، فكان محمّدٌ وفيّاً لما استحفظَه من جبريل، ولم يبدّلْ فيه، بمعجزةٍ لا مثيلَ لها، أمرًا من أمور الوحي! إنّ المعجزةَ تمّت ولكن لا نعرف كيف وأين!

هناك معجزة وهي ذاك « اللوح المحفوظ » . ولكن هذا اللوح يحفظ الوحي حفظاً تامّاً كاملاً. وكل مرّة كانتِ الذاكرة تخونُ محمّداً كان محمّد يرجع إلى ذلك اللوح، فيقرأ وينزّل منه ما يناسب ... ومن السهل على المسلمين القول بأن هذا اللوح موجود في « الأفق الأعلى » ،

ولكن ليس من السهل علينا الوصول إلى « الأفق الأعلى » قبل البحث في هذا الأفق التاريخي الأدنى لنرى حقيقةَ معجزةِ حفظ القرآن!

وبتعبير أوضح : إن المسلمين المؤمنين يستطيعون رؤيةَ المعجزة أينما أرادوا : أكانَ الله هو الذي حفظَ القرآن! أم جبريل! أم محمّد! أم استحفظَ اللهُ وجبريلُ محمّداً وسهَرا عليــه! كلّ هذه معجزة. والمعجزة الكبرى أن يكونَ القرآنُ محفوظاً، لا في ذاكرةِ النبيّ وعقلهِ، بل في كتابٍ سابقٍ وُجِدَ في مكّة بينَ يدي القس ورقة بن نوفل وهو « الإنجيل العبراني » . فالثقــة بالكتاب في مجال حفظِ الوحي هي أفضل من الثقة بذاكرة إنسانٍ ضعيفٍ ...

الفَصْلُ الرَّابِعُ

مُعْجزَة حفظ الصَحَابَة للقرآن

أَولاً ــ تخلّف الصحابة عن كل القرآن

ثَانياً ــ حديث الأحرف السبعة

ثَالثاً ــ حفّاظ القرآن

مقدّمة الفصل

في اعتقاد المسلمين أنّ القرآنَ الذي أُنزلَ بمعجزة، وحُفظ بمعجزة، سيَستمرّ في التاريخ بمعجزة : فالصحابةُ حَفِظوا القرآنَ، كلَّ القرآن، لم يُضيّعوا منه آية، ولم يَنسوا منه كلمة، ولم يُبدّلوا فيه حرفاً، ولم يَتَدخّلِ الشيطانُ بحِيَلِهِ ليَدسَّ عليهم شرَّه، كما تدخّلَ في النبيّ؛ لأنّ الشياطينَ أخذتْ نصيبَها من النبيّ، واستطاعَ النبيُّ عليها الغلَبَة، وهو لها؛ فيما الصحابةُ قد نَجَوا من مداخلةِ الشيطانِ خشيةَ سقوطِهم بتجاربِه وحِيَلِهِ، وليستْ لهم عليه قدرة ... لهذا استحقَّ الصحابةُ والتلاميذُ مِن اللهِ عصمةً قد توازي عصمةَ النبي نفسِه. وبهذه العصمةِ حَفظُوا القرآنَ من كل تبديلٍ وتصحيف ...

إنّ معجزةَ حفظِ الصحابة للقرآنِ توازي معجزةَ التنزيلِ وحفظِ النبي نفسه. ولا فضلَ للنبي إن كانَ على الوحي أميناً وفيّاً صادِقاً، انّما كل الفضل يعودُ لناسٍ ضعفاء، لهم أميالُهم وخلافاتُهم السياسية، ويَحفظون كتابَ الله من غيرِ تحريفٍ أو تزييف ... ومع هذا فانّ اللهَ يضمن عصمةَ هؤلاء ويصطفيهم من خيرةِ العبادِ ويورثُهم كلمتَه ليؤدّوها بأمانة. جاءَ في الآية: « ثم أورثْنَا الكتابَ الذي اصطفَينا من عبادِنا »[1]. هؤلاءِ الوَرَثة يحافظون على القرآنِ حفاظَهم على أولادِهم ومقدّساتِهم. وكلّما سمِعوا منه آيةً انحنوا أمامها ساجدين : « انّما يؤمن بآياتِنا الذين إذا ذُكِّروا بها خَرّوا سُجَّداً، وسَبّحوا بحمدِ ربّهم »[2].

هذه القدسية لن تبرحَ، في نفوسِ المسلمين، نشيطةً وقّادةً مدى الدهر، لأنّ « القرآنَ سرُّ السماء، فهو نورُ الله في أفقِ الدنيا حتى تَزول، ومعنَى الخلودِ في دولةِ الأرضِ إلى أن تَدول »[3]. ولئن كانتْ معجزةُ القرآن الأولى في بَيَانِه وسحرِهِ، فمعجزتُه الثانية هي بخلودِه واستمراريّتِهِ[4].

ولكنّنا، إذا تخطّينا هذا السحرَ الخالدِ، وتوقّفنا على سرِّ حفظِ القرآن وكيفيته، لا بدّ لنا أن نسأل : هل حفظَ الصحابةُ كلَ القرآن ؟ أم نَسوا منه شيئاً! هل أجمَعوا على ما حفظوا، أم انّهم اختلَفوا فيما جَمَعُوا! وبمعنى آخر : هل عَصَمَ اللهُ الصحابةَ من التحريفِ والتبديلِ والزيادةِ والنقصان، كما عَصَمَ الرسول، أم انّ الأهواءَ البشريّةَ والمصالحَ السياسيّةَ والأميالَ الشخصيةَ استبدَّتْ بهم وساهمتْ في عمليةِ حفظِ القرآن ؟

---

[1] سورة غافر ٤٠ / ٢ ـ ٣.
[2] السجدة ٣٢ / ١٥ ، انظر : ١٩ / ٥٨ ، ٢٥ / ٧٣ ، ١٧ / ١٠٧.
[3] الدكتور مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن، ص ٣١.
[4] ابراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ٤٤.

إنّ جوابَ الإيمانِ والوحي والأتقياء من المسلمين لا مشكلَة فيه : اللهُ عملَ ويعملُ على حفظِ كتابهِ. ولكنَّ جواب التاريخِ يَضَعُنَا أمامَ عصمةِ أكثرِ مِن أربعين رجلاً متَّعهم المسلمونَ بالعصمة. هؤلاء، رغم خلافاتِهم المعروفة، وانتماءاتِهم القَبَلِيَّةِ المتنافِسة، واتّقادِ العصبيّاتِ فيما بينهم ... يَنعَمون بعصمةِ الله، ويُجري اللهُ على ألسنتهِم وأيديهم معجزةً لا مثيلَ لها في تاريخ العالم ... كلُّ شيء في الإسلام معدٌّ لأن يحفظَ اللهُ كتابَه، مهما كلّفَه الثمن من المعجزات والعجائب ... فالأمرُ في غاية الأهمّيّة. ولننظر :

أَولاً ــ تخلّف الصحابة عن كل القرآن

في إيمان المسلمين أنّ الله حفظَ القرآنَ من كل نقصٍ أو زيــادة، ومــن كــل عِــوج واختلاف ... ولكنّ في تاريخِ المسلمين إشاراتٍ واضحةً صريحةً إلى ما في القرآن من نقصٍ وزيادة ونسيان وتصحيف وتغيير ... واحتكمَ المسلمون، لحلِّ هذا الخلاف، إلى معجزةٍ أجراها اللهُ في الصحابة فعصَمهم من كل ما يَتّهِمُهم به التاريخُ من نواقصَ في كتابِ الله العزيــز ... وليس لنا، أمامَ مشكلةٍ عويصةٍ ودقيقةٍ كهذه، أيُّ حلٍّ يُرضي الإيمانَ والتاريخَ معاً. جلّ ما لدينا استعراضُ المسألة، من وجهتِها التاريخيّة، التي يجهلُها معظمُ المسلمين، والتي يُخفِيها علمــاءُ الشريعةِ ببراعةٍ لا مثيلَ لها، وقد يفسّرون ما فيها بحنكةٍ ترى معها وفاقاً تامًّا بــين مــا فــي الإيمان ومعطياتِ التاريخ ... ولن يُعجزنَا الرجوعُ إلى النصوصِ كما هي، فهي الحَكَم، وإليها الاحتكام. ومَن يقرأْ ويفهمْ يُدرِكْ بُعْدَ المعجزة.

عن نافع عن ابن عمر قال : « لا يقولنَّ أحدُكم قد أخذتُ القرآنَ كُلَّهْ. وما يدريه مــا كُلُّهْ! قد ذَهَبَ منْهُ قُرآنٌ كَثِيْر. ولكنْ لِيَقُلْ قد أَخَذْتُ منهُ مَا ظَهَر »[1].

* قال عمر لعبد الرحمن بن عوف : « ألم تجدْ في ما أُنزِلَ علينا : أن جاهدوا كمــا جاهدتم أوّل مرّة! فانّا لا نجدُها! قال : أُسْقِطَتْ فيما أُسْقِطَ مِنَ القُرآن »[2].

* وعن ابن سفيــان الكلاعي أن مسلمة بن مخلد الانصاري قــال لهــم ذاتَ يــوم: « أخبروني بآيَتَينِ في القرآنِ لَمْ يُكْتَبَا في المصحف. فلم يُخْبِرُوه »[3].

* وروي عن أُبَيّ بن كعب، باخراجِ الحاكم، أن رسولَ اللهِ قالَ لي : ان اللهَ أمرني أن أقرأَ عليكَ القرآن، فَقَرأَ ... ومن جملةِ ما قرأَ ــ مَا لا نجدُه في المصحفِ اليوم ــ : « لو أنَّ ابن آدم سألَ واديًا من مالٍ فأعطيه. سأله ثانياً. وإن سألَ ثانيًا فأُعطيه. سأله ثالثاً. ولا يمــلأُ جَوفَ ابنِ آدم الاّ التراب. ويتوبُ الله على مَن تاب ... »[4].

---

[1] السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ٢ / ٢٥.
[2] الاتقان في علوم القرآن ٢ / ٢٥.
[3] نفس المرجع.
[4] نفس المرجع.

* وروي عن أبي موسى الأشعري، قال : « كنّا نقرأُ سورةً نشبّهها بإحدى المُسبحَات ممّا نَسيْنَاهَا. غير أنّي حفظتُ منها : يا أيّها الذين آمنوا! لا تقولوا ما لا تفعلون، فتكتب لكم شهادةٌ في أعناقِكم، فتُسألون عنها يوم القيامة »[١].

* وجاء عن مسلم « إنّ أبا موسى الأشعري قال مرّة لخمسمائة من القراء بالبصرة : انّا كنّا نقرأُ سورةً بطولِ السَهم وحدَها. أمّا الآن فَقَدْ نَسِيْتُهَا ما عدا بعضَ آياتٍ منها... »[٢].

* عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : « كانتْ سورةُ الأحزابِ تُقْرَأُ في زمن النبيّ مائَتَي آية. فلمّا كتَبَ عثمانُ المصاحفَ لم نقدر منها الاَّ مَا هو الآن » (أي ٧٣ آية فقط)[٣].

* وعن أُبيَّ بن كعب أنّه سأل درَّ بن حُبيش : « كم تَعُدُّ سورةَ الأحزاب ؟ قال : اثنتين وسبعين آية، أو ثلاثة وسبعين آية. قال : ان كانتْ لَتَعدِلَ سورةَ البقرة (أي ٢٨٦ آية). وانّا كنّا لنقرأ فيها آيةَ الرجم. قال : وما آيةُ الرجم ؟ قال : « إذا زَنَى الشيخُ والشيخةُ فارجموهما البتة نكالاً من الله. والله عزيز حكيم ... »[٤].

* وعن حميدة بنت أبي يونس قالت : « قرأَ عَلَيَّ أبِي وهو ابنُ ثمانين في مصحفِ عائشة : « إن الله وملائكَتَه يُصلّونَ على النبي : يا أيّها الذين آمَنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً وعلى الذين يُصلّون في الصفوفِ الأولى » ... قالت: وذلكَ قَبْل أَنْ يُغيِّرَ عثمانُ المَصَاحِف »[٥].

* أمّا مجموعُ سُوَرِ القرآن، فهي الآن ١١٤ سورة؛ ولكنّها كانت في مصحف ابن مسعود مائة واثنتي عشرة سورة، « لأنّه لم يكتبِ المعوذَتَين » ، وفي مصحف أُبَي بن كعب مائة وستّ عشرة سورة، « لأنه كتبَ في آخره سورَتَي الحَفْدِ والخَلْع »[٦]، وفي مصحفِ عليّ بن أبي طالب زيادة سورة « النُورَين » وتغييرٌ في موضعِ السُوَرِ والآياتِ ... الخ[٧].

---

[١] نفس المرجع.
[٢] أوردها الأستاذ الحداد في القرآن والكتاب ٢ / ٢٠٥.
[٣] الاتقان ٢ / ٢٥.
[٤] انظر ما جمعه محمد دروزة عن نصوص آية الرجم المختلفة، في كتابه القرآن المجيد، ص ٥٨.
[٥] الاتقان ٢ / ٢٥.
[٦] الاتقان ١ / ٦٥ ، انظر فيها نصّي سورتي الحفد والخلع.
[٧] انظر نص سورة النورين في دروزة، القرآن المجيد، ص ٦٠ ـ ٦١. وانظر أيضًا فصلي الاتقان ١ / ٦٤ ـ ٧٠ و ٢ / ٢٢ ـ ٢٦.

* وهكذا أيضًا نجد اختلافًا واسعًا في قراءة كثيرٍ من الآياتِ التي نعجزُ عن حصرِها. ومن أرادَ اثباتًا وتبيانًا فليرجع إلى السيوطي في كتابه الاتقان في علوم القرآن. ومن أراد مثلاً بسيطًا عليها سهلَ المنالِ فليقرأ محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٦١ ــ ٦٢ ... الخ.

لم يُعجز المسلمين وجودُ حجّةٍ إلهيّةٍ لتفسير هذا الخلاف الكبير في كتاب الله! لقد فسّروا ذلك بقولهم : بالنسْخِ، وقد أشرنا إليه، وبأنّ الله تدخّلَ في ذاكرةِ الصحابة فأنساهم ما يجب أن يَنسوا. ومن ذلك قول أبي بكر الرازي الذي أكّد بأنّ الله يُنسِي الصحابةَ ما يُريد أنْ يُنسيَهم إيّاه، ويَرْفَعَهُ من أوهامِهم، ويأمُرَهم بالإعراضِ عن تلاوتِه، وكَتْبِهِ في المصاحف، فيندَرس على الأيامِ كسائرِ كتبِ اللهِ القديمةِ التي ذكرَها في كتابه في قوله : « إن هذا لَفِي الصحفِ الأولى صحفِ ابراهيم وموسى »[1]، ولا يُعْرَفُ اليومَ منها شيءٌ »[2].

لئن كان النسيان نقصًا في ذاكرة البشر، فانّه، لدى الصحابةِ، نعمةٌ الهيّةٌ ومعجزةٌ من السماء. يتدخّلُ اللهُ ليُنسيَهم ما يجبُ أن يَنسوه، ويَرْفَعُ من أوهامِهم ما يجب أن يُرْفَع! إنّ ذلك أمرٌ لا يُدرَكُ بعقلٍ بشريٍّ محدود الآفاق! وحدَه الله يجعلُ من النقصِ فضيلةً، ومن النسيانِ معجزةً، ومن التخلّفُ رقِيًّا، ومن النسخِ والتحريفِ حِكْمةً، ومن الضعفِ قوّةً ... وليس علينا، نحنُ المساكين العاجزين، الاّ التمسّكُ بالإيمانِ والخضوع!!!

[1] سورة الأعلى ٨٧ / ١٨ ـ ١٩.
[2] الاتقان ٢ / ٢٦.

ثَانياً ــ حديث الأحرف السبعة

بسبب نسيان صحابة النبي بعضِ آيات القرآن، وبسببِ ضعفِ ذاكرتهم، وبسببِ تخلّفهم عن كثيرٍ ممّا نُسِخَ وبُدِّلَ، وبسببِ بعضِ التحريف والتصحيف ... أَوْجَدَ المفسّرون للقرآنِ والمحدِّثون بأحاديثِ النبيّ حديثًا طريفًا وخطيراً على لسانِ محمّد، وأجمعوا على صحّته. جاء فيه قوله : « أُنْزِلَ القرآنُ على سبعةِ أَحْرُف » . وهو حديثٌ شائعٌ متواتر، نقلته جميعُ كتبِ الحديثِ والتفسيرِ والتاريخ، وأجمعَ عليه أحدُ وعشرون صحابياً ثقة[1].

وأُضيفَ على هذا الحديثِ توضيحاتٍ متعددةً ومختلفة. فمنهم مَن زادَ عليه: « ... فاقرأوا ما تيسَّر منها » . ومنهم : « ... كلُّها شافٍ كافٍ ... أيّها قَرَأْتَ أَصَبْتَ. فمن قرأَ منها حرفًا فهو كما قرأ. فأيّما حرفٍ قرأوا فقَد أصابوا ... كلّها شافٍ كافٍ ما لم يختمْ آيةَ عذابٍ برحمةٍ، أو آيةَ رحمةٍ بعذاب ... » الخ[2].

ويبدو أنّ جميعَ العلماءِ المسلمين يأخذون بحديثِ الأحرفِ السبعة، ويعتمدون عليه في شرحٍ ما تعسَّر تفسيرُه، وفي تفسيرِ ما اختُلِفَ فيه. وقال القاضي أبو بكر بن الطيّب الباقلاني في ذلك : « الصحيحَ أن هذه الأحرفَ السبعةَ ظهرتْ واستفاضتْ عن رسولِ الله (ص) وطبطَها عنه الأئمّة، وأثبتَها عثمانُ والصحابةُ في المِصحَف، وأَخبَروا بصحتِها، وانّما حَذَفوا منها ما لم يَثْبُتْ متواتِراً »[3].

لكنّ اتّفاق الصحابة على صحّة حديثِ الأحرف السبعة لم يُظْهِر، من حيث معناه، الاّ خلافًا واسعًا وتناقضًا بيّنًا في تفسيرهِ وشرحه. وقد رفَعَ السيوطي نحوًا من أربعين قولاً متبايناً في معنى الأحرفِ السبعة. فيقول مثلاً : إن الحرفَ هو « من المشكلِ الذي لا يُدرى معناه، لأنّ الحرفَ يصدقُ، لغةً، على حرفِ الهجاء، وعلى الكلمةِ، وعلى المعنى، وعلى الجهة » .

---

[1] يعدد السيوطي أسماء من أجمعوا على صحة الحديث : أبيّ بن كعب، أنس، حذيفة بن اليمان، زيد بن أرقم، سمرة بن جندب، سلمان بن صرد، ابن عباس، ابن مسعود، عبد الرحمن بن عوف، عثمان بن عفّان، عمر بن الخطاب، عمرو بن أبي سلمة، عمرو بن العاص، معاذ بن جبل، هشام بن حكيم، أبي بكرة، أبي جهم، أبي سعيد الخدرى، أبي طلحة الانصاري، أبي هريرة، أبي أيوب. (الاتقان ١ / ٤٥).

[2] انظر الطبري في تفسير ١ / ٢٠ ـ ٤٥، والشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ١٠٢، والحواشي في الصفحات ... وغير كتب حديثة.

[3] الزركشي، البرهان ١ / ٢٢٤.

ثمّ انّه « ليسَ المراد بالسبعةِ حقيقةَ العدد، بل المرادُ التيسير والتسهيلُ والسَعَة. ولفظُ السبعة يُطلق على إرادةِ الكثرة ... ولا يُراد العدد المعيّن » . وهكذا ...[1].

ومع اختلاف الصحابةِ في معنى الأحرفِ السبعة نرى المسلمين مُجدّين في البحثِ عمّا جعلَهم يختلفون في فهمِ القرآن وقراءتهِ على أوجهٍ عديدة، وكلّها صحيحة. وبذلك فسّروا تعدّدَ القراءاتِ وأجازوها، رغم تصريحِ القرآن بأنّه نزلَ بلسانٍ عربيّ مبين، وباعجازٍ لا مثيل له. وعندنا، في كتب التفاسير والأحاديث، أمثلةٌ واضحةٌ كثيرةٌ عن اختلافِ القرّاء بحضرة النبيّ نفسِه في مختلف طرق القراءة وقد أجازها النبيّ كلَّها.

* ويعطينا البخاري ومسلم صورةً عن هذا الخلاف، فيقول البخاري : « إن عمر بن الخطاب (ر) قال: « سمعتُ هشامَ بن حكيم يقرأُ سورةَ الفرقانِ في حياةِ رسول الله (ص)، فاستمعتَ لقراءته، فإذا هو يقرؤها على حروفٍ كثيرةٍ لم يُقْرِئْنِيْهَا رسول الله (ص)، فكدتُ أساورُه في الصلاة، فانتظرتُه حتى سلّم، ثم لَببتُه بردائه أو بردائي، فقلتُ : من أَقْرَأَكَ هذهِ السورةَ ؟ قال : أَقرأنيها رسول الله (ص). قلتُ له : كَذِبْتَ، فوالله ان رسولَ الله (ص) أقرأني هذه السورةَ التي سمعتُك تقرؤُها، فانطلقتُ أقودُه إلى رسولِ الله (ص)، فقلتُ : يا رسولَ الله، إنّي سمعتُ هذا يَقرأُ بسورةِ الفرقانِ على حروفٍ لم تُقْرِئْنِيَها، وأنت أقرأْتَني سورةَ الفرقان! فقالَ رسولُ الله (ص) : أَرسِلْهُ يا عمر، إقرأْ يا هشام. فقرأَ هذهِ القراءةَ التي سمعتُه يقرؤُها. قال رسولُ الله (ص) : هكَذا أُنزِلَتْ. ثم قالِ رسول الله (ص) : إنّ هذا القرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أحرفٍ. فاقرؤوا ما تَيسَّر منه »[2].

يعلّقُ الأستاذُ الحداد على هذا الحديث بقولهِ : « هذا الحديثُ يُشعِرُ بأنَّ الاختلافَ في النصِّ بلغَ مبلغًا كادَ منه عمر أن يقتلَ صاحبَه، ويشهدُ بأن الاختلافَ في القراءة، ليسَ فقط من القرّاءِ، بل هو أيضًا من النبيّ نفسِه الذي يثبت قراءَتَين ونصَّين معًا. وهذه القصةُ تجري مع عمر نفسِه الذي سوفَ يُشيرُ بتوحيدِ النصِ عند استفحالِ الأمرِ في زمنِ أبي بكر. فالاختلافُ في النص يعودُ إلى النبي وأركانِ صحابته »[3].

---

[1] السيوطي، الاتقان ١ / ٤٥ ـ ٤٩.
[2] صحيح البخاري ٦ / ١٨٥، انظر تفسير الطبري ١ / ١٠، ومسند أحمد ١ / ٢٤، والبرهان١ / ٢١١، والاتقان ١ / ٤٩ ...
[3] الاستاذ الحداد، القرآن والكتاب ٢ / ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

* وينقل إلينا الطبري عن زيد بن أرقم هذه الرواية : « جاءَ رجلَ إلى رسول الله (ص)، فقال : أقرأَني عبدُ الله بن مسعود سورةً، أَقرأَنيها زيدٌ، وأَقرأَنيها أُبيَّ بن كعب، فاختلفتْ قراءتهم. فبقراءةِ أيِّهم آخذ ؟ قال : فسكتَ رسولُ الله (ص)، وعَلِيٌّ إلى جنبهِ، فقالَ عَلِيٌّ : لِيَقْرأْ كلُ انسانٍ كما عُلِّمَ. كلٌّ حَسَنٌ جَمِيْل »[1].

* وروي عن أُبيّ بن كعب قال : « دخلتُ المسجدُ فصلّيتُ فقرأتُ (سورةَ) النحلِ. ثم جاءَ رجلانِ فقرآهَا خِلافَ قراءتِنا، فدخلَ نفسي مِن الشكِّ والتكذيبِ أشدُّ ممّا كنتُ في الجاهلية. فأخذتُ بأيديهما، فأتيتُ بهما النبيّ (ص)، فقلتُ : يا رسولَ الله، استقرِئ هذين. فقرأَ أحدّهما فقال : أَصبتَ. ثم استقرأَ الآخر، فقال : أَصَبْتَ. فدخلَ قلبي أشدُّ ممّا كان في الجاهليّة من الشكِّ والتكذيب. فضربَ رسولُ الله (ص) صدري، وقال أعاذَك الله من الشكِ وأَخْسَأَ عنكَ الشيطان »[2].

*****

هذا قليل جدّاً ممّا رواه مسلم والبخاري والطبري والسيوطي وأحمد في مسنده والزركشي وغيرهم في اختلاف الصحابة في قراءة القرآن. وقد كرّسَ حديثُ « الأحرف السبعة » ، الذي أوجدوه على لسانِ النبيّ، هذا الخلافُ بينهم. كما اعتمدوا، على النبيِّ نفسِه، لتكريس هذا الخلاف. فمحمّد نفسُه أجازه، وسمحَ لصحابتهِ بتعدّدِ القراءات.

فجاء على لسان أَبي العالية حديثٌ قال فيه : « قرأَ على رسول الله (ص) من كلِ خمسةٍ رجلٌ، فاختلفوا في اللغةِ، فرضيَ قراءَتهم كلِّهم »[3]. ويبدو أن بعضَ الصحابة قرّروا هذا الخلافَ ورضوا به وحَرّضوا على البقاء عليه. روي عن ابن مسعود قوله : « مَنْ قَرَأَ منكم على حرفٍ فلا يتحوّلنَّ منه إلى غيره »[4]. ويبدو أيضًا أن رسولَ الله توسّعَ في تغييرِ بعض كلماتٍ وتبديلِها عندما سأله سائل ماذا يكتب : « أعزيزٌ حكيم ؟ أو سميعٌ عليم ؟ » ، فقال الرسول : « أيّ ذلك كتبتَ فهو كذلك »[5].

كل هذا « يفيد أنّ القرآنَ لم يكنْ في كتابتهِ ومصاحفِه وصُحُفِهِ المتداوَلةِ، وفي قراءتِه، محَرّرًا، بحيثُ يؤمن معه ذلك الخلاف »[6]. ويفيد أيضاً أنّ الاحتكامَ إلى النبيّ لم يُجْدِ الصحابةَ

[1] تفسير الطبري ١ / ٢٥.
[2] نفس المرجع ١ / ٢٥.
[3] تفسير الطبري ١ / ٥٤.
[4] نفس المرجع ١ / ٥١ و ٥٢.
[5] نفس المرجع ١ / ٥٤.
[6] محمد دروزة، القرآن المجيد، ص ٦٢.

المختلفين نفعًا، لأن الرسولَ « أمَرَ كلَ امرئٍ منهم أن يقرأ كما عُلِّمَ حتى خالَط بعضُهم الشكَّ في الإسلام لما رأى من تصويبِ الرسولِ قراءةَ كلِ قارئٍ على خِلافِها مع غيرِها »[1].

وتفيدُ أيضاً، على ما علّقَ الطبري على الآية : « أفلا يتدبّرون القرآن »[2]، بأنّ الخلافَ كانَ بين الصحابة لا على الألفاظِ والمباني بل على المعاني والأحكامِ. قال : إن هذه الآية إنّما « تقصد اختلافَ المعاني والأحكام، لا اختلافَ الألفاظِ والتعابير، بدليلِ اختلافِ الصحابة، كلٌّ في قراءتِه، وتصويبِ النبي لهم جميعًا »[3]. ولو كان الاختلافُ في الألفاظِ وحسب، لِمَا « خالَط بعضُهم الشكَّ في الإسلام »[4]، ولِمَا اقتتلوا فيما بينهم[5]، ولِمَا « اختُلِفَ اختُلِفَ في معنى هذا الحديثِ على نحو أربعين قولاً »[6]...

ومع هذا الاختلاف الواضح والخطير، لا بدّ من التنبيهِ إلى موقف بعضِ العلماء المسلمين الذين يصرّون على أن الاختلافَ هو في الألفاظِ والتعابير، لا في المعاني والأحكام. وعبّروا عن ذلك بقولهم : إن اختلافَ اللفظِ لا يحدّه سوى تناقض المعنى، مثل أن تجعلَ المغفرةَ عَذَابًا، والعذابَ مغفرةً. فيكونُ المقصودُ، عندهم، المحافظةَ على سلامةِ المعنى ولو اختلفتِ الألفاظ ...

ولكنّنا نسأل : كيف يتفق حديثُ الأحرف السبعة، بمعانيه المختلفة، مع معجزةِ إعجاز القرآن، ومعجزة حفظهِ ؟ ثم، لئن سلّمْنا بصحّةِ الأحرفِ السبعة ونسبتِها إلى النبيّ، فلماذا، اذن، أسقَطَها عثمان بن عفّان، ومنع تلاوتَها ؟ ويؤكّدُ الطبري بقوله : « إن الأحرفَ الستة الأُخُر أسقَطَهَا عثمان، ومنعَ تلاوتَهَا، ولا حاجةَ بنا إلى معرفتِها » ، « لأنّ الحكمة في جميع الناس على حرفٍ واحد، والصوابَ ما فَعَلَ عثمان »[7].

ولو كانتِ الأحرفُ السبعةُ رُخْصةً نبويّة، فلماذا اقتتلَ الناسُ بسببها ؟ ونحن نسمعُ عن أنسِ بن مالك هذه الرواية، قال : « اختلفوا في القرآن على عهدِ عثمان حتى اقتتلَ الغلمان والمعلّمون. فبلغ ذلك عثمانَ بن عفّان فقال : « عندي تَكذِبون به، وتَلحنون فيه ؟! فَمَنْ نأى

---

[1] تفسير الطبري، ١ / ٤٨ ـ ٤٩.
[2] سورة النساء ٤ / ٨٢.
[3] تفسير الطبري ١ / ٤٨.
[4] تفسير الطبري، ١ / ٤٧ و ٥٣.
[5] الاتقان ١ / ٥٩.
[6] الاتقان ١ / ٤٥.
[7] تفسير الطبري، ١ / ٦٦، و ٦٣.

عنّي كانَ أشدَ تكذيباً، وأكثرَ لَحْنًا. يا أصحابِ محمّد اجتمعوا، فاكتبُوا للناسِ إِمَامًا. فـاجتمعوا فكتبوا. فكانوا إذا اختلفوا وتدارءوا في أيّ آية قالوا : هذه أقرأها رسـولُ الله (ص) فلانـاً، فيُرْسَلُ إليه، وهو على رأسِ ثلاثٍ من المدينة، فيُقال له : كيف أقرأَك رسولُ الله (ص) آيةَ كذا وكذا، فيقولُ : كذا وكذا، فيكتبونها، وقد تركوا لذلك مكانًا »[1].

ثم أيضًا لو كانتِ الأحرفُ السبعةُ مرخّصةً من النبي، فلماذا تخوّفَ حُذَيفَة و « قـال لعثمان أَدْرِكِ الأمّةَ قبلَ أن يختلِفوا اختلافَ اليهودِ والنصارى »[2].

وبالنتيجة، لا بدّ من التسليمِ بصحة هذا الحديث، لإجماعِ المسلمين عليه؛ ولا بدّ أيضًا من إيجاد معنىً له يَتّفقُ فيه جميعُ المسلمين؛ لأنّ مثلَ هذا الحديث هو « بـلا ريـبٍ أخطـرُ نظريةٍ في الحياة الإسلاميّة، لأنها أسلمتِ النصَّ القرآني إلى هوى كلِ شخصٍ يثبتُه على مـا يهواه »[3].

وفي رأي المسلمين اليوم، إن الرسول « وسعَ على المسلمين في أوّلِ الأمر، وراعَى التخفيفَ على العجوزِ والشيخِ الكبير، وأَذِنَ لكلٍ منهم أن يقرأَ على حرفهِ، أي على طريقتهِ في اللغةِ، لِمَا يجدُه من المشقةِ في النطق بغيرِ لغته ... فالمرادُ من هذه الأحرف السـبعة ــ واللهُ أعلم ــ الأوجهَ السبعة التي وسع بها على الأمّة. فبأي وجهٍ قرأ القارئُ منها أصاب. ولقد كادَ النبي يصرّحُ بهذا كلَ التصريح حينَ قال : « أقرأَني جبريلُ على حرفٍ، فراجعتُه فلـم أَزَلْ أستعيدُه حتى انتهى إلى سبعةِ أحرف »[4].

وهكذا يرى الشيخ صبحي الصالح أنّ هذا الحديث « يبرز الحكمةَ الكبـرى ... ففيـه تخفيفٌ وتيسيرٌ على هذه الأمّة التي تعدّدتْ قبائلُها، فاختلفتْ بذلك لهجاتُهـا، وتبـاينَ أداؤُهـا لبعضِ هذه الألفاظ، فكان لا بدّ أن تُراعى لهجاتُها وطريقة نطقها. أمّا لغاتُها نفسُها فلا موجب لمراعاتِها، لأن القرآنَ اصطفَى ما شاءَ بعد أن صهرَه في لغة قريش التي تمثّلتْ فيها لغـاتُ العربِ قاطبةً لا لغاتُ قبائلَ معيّنة ... »[5].

---

[1] الاتقان ١ / ٥٩.
[2] نفس المرجع، ١ / ٥٩.
[3] Régis Blachère, Introduction au Coran, p. 69.
[4] صحيح البخاري ٦ / ١٨٥، الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ١٠٨ ـ ١٠٩.
[5] الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ١١٣.

وفي رأي ابن الخطيب أن الله « أرادَ بلطفهِ ورحمتهِ أن يجعلَ لهم متّسَعًا في اللغـــاتِ ومتصرّفًا في الحركاتِ كتيسيرهِ عليهم في الدين » ... وقال أيضًا : « والقراءاتُ انّما جُعِلَتْ على ألسنةِ القبائل ولهجاتِها تلطّفًا بالناسِ وتسهيلاً عليهم وتقريبًا لأذهانهم »[1].

ولكنّنا نسألُ الشيخَ وابنَ الخطيب : كيف توحّدتِ اللغاتُ في لغةِ قريش ؟ وكيف يكونُ اختلافُ اللهجات ؟ ولماذا وحَّد عثمانُ الأحرفَ على حرفٍ واحد ؟ وكيف يكونُ الاعجازُ في رخصةِ تبديلِ الألفاظِ في النصّ ؟ وكيف نزلَ القرآنُ « بلسانٍ عربي مُبين » ؟ وكيفَ نفهـــمُ تحدّي القرآنَ للإنسِ والجنِّ بأنْ يأتوا بسورةٍ مثل سوره ؟ وبسؤالٍ واحدٍ بسيط : كيف يكـــونُ الاعجازُ في القرآن وهو على هذا الاقرارِ الصريحِ بالاختلافِ والتباين ؟!

انّ جوابَ الشيخ الوحيد هو : إن لطفَ اللهِ ورحمتَه خفَّفا على هـــذه الأمّـــةِ الأمّيّـــةِ الضعيفةِ المفككةِ المختلِفةِ في لغتها ولهجاتها ... وهو جوابٌ، فيه من مداراةِ أحـــوالِ البشـــر أكثرُ ممّا فيه من فهمِ حقيقةِ الوحي والنبوّة. والحقُ يقال : إن مثلَ هذا الحديثِ النبوي « يبعثُ إشكالاً ضخمًا على وَحْدَةِ القرآن مع تعدّدِ نصوصِه إلى سبعة، وعلى صحّةِ النصِّ العثمـــاني بعدَ إسقاطِ الحروفِ الستة، وعلى أفضليةِ إعجازِ الحرفِ العثماني دون سواه. وهذا الاشـــكالُ الضخمُ تنبّهَ له أدباءُ العصر، فكانَ أهونُ ما عندهم انّهم نفوه أو كادوا »[2].

لذلك قال محمّد صَبيح : إن « التوفيقَ بين هذه الأحاديث الكثيرةِ التي تكادُ تتفقُ فـــي معناها، وما ذكرنا من تفسيرٍ للأحرفِ السبعة عسير. ولكنّ لِتُفْهَمِ الأحاديثُ على أيِ وجهٍ شاء الناس؛ امّا الذي نعتقدُ انّ مِنَ الخيرِ فهمَه هو عدمُ جَوازِ هذا التبديلِ والتعديلِ فـــي القـــرآن : فاختلافُ الناسِ في شأنِ أحاديثٍ جمعَها المتأخّرون من المسلمين أهونُ بكثيرٍ من اختلافِهم في شأنِ نصوصِ القرآن »[3].

هذا الموقف الأخير هو أيضًا خطيرٌ جدا : إنّ مثلَ اجماعِ المســـلمين علـــى حـــديثِ الأحرف السبعةِ لم يَحْدُثْ في الإسلام. على مثلِ هذا الحديث بُنِيَتْ فـــي الإســـلام نظريّـــاتٌ مرتبطةٌ بعضُهـــا ببعض، إن أَلْغَيْـــتَه أو شَككتَ بصحتهِ، لم تعدْ تعرِف كيفَ تفسِّـــرُ آيـــاتٍ

[1] ابن الخطيب، الفرقان، ص ١٣١، ٩٨.
[2] الاستاذ الحداد، القرآن والكتاب ١ / ٢١٥.
[3] محمد صبيح، بحث جديد في القرآن، ١٢٦.

كثيرةً في القرآن، ولم تَعدْ تعرف كيف تفسّرُ « العقيدةَ والتـــاريخَ واللغة ... وحقيقةَ القـــرآن العظيم »[1] ...

لئن « لم تُثِرْ مشكلةً من مشكلاتِ البحثِ في تاريخِ القرآن ما أثارتْه الأحرفُ السبعة، ولم يختلفِ العلماءُ في موضوعٍ مثلما اختلفوا في تفسيرِ هذه الأحرف السبعة »[2]، فانّ قبـــولَ هذا الحديثِ، مثلُ رفضِه، فيهما خطرٌ جسيمٌ على معجزةٍ الهيّةٍ أقرَّها المســـلمون قاطبـــة، ألا وهي معجزةُ حفظِ القرآن واعجازِه. ومهما تفادى العلماءُ المشكلةَ واســـتهانوا أمرَهـــا فـــانّهم لواقعون في فخِّ التاريخِ الذي لا يَرحمُ لا النبيَّ ولا جبريله ...

وأيّ موقفٍ نتّخذُه من هذا الحديث، في قَبولِه أم في رَفضِه، فإنَّ معجزةَ الصحابةِ فـــي حفظِ القرآن لن تسلمَ. في قبولهِ تسليمٌ باختلافِ النص، وفي رفضهِ رفضٌ لمـــا أجمـــعَ عليـــه المسلمون. ولن نبقى، بين هذين الموقفين، حَيارى. والذي يقرّر موقفَنا النظرُ في حفّاظِ القرآن وجمّاعِه، هؤلاء الذين استعانَ بهم عثمانُ بن عفّان، ليحلَّ مشكلةَ الأحرفِ السبعة، مَن هم، وما هي كفاءاتهم، وما علاقته بهم ؟

فان كانَ الدافع عند عثمان حصرَ الخلاف فهو اقرارٌ بالخلاف، وان كان الدافعُ استباقَ ما يمكن ان يحدثَ من خلاف، فعثمان نبيٌّ آخر يستحقّ منّا التقديرَ والاعجاب. وبهذا لا يزال جبريلُ مستمرّاً في عملهِ ونشاطِهِ وسهرِهِ على كتابِ الله العزيز.

---

[1] الدكتور بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ص ٧٧.
[2] نفس المرجع.

ثَالثاً ــ حفّاظ القرآن

في معتقد المسلمين أنّ النبيّ « كان عليه السلام سيّدَ الحفّاظ وأوّلَ الجمّاع، وتيسّرَ ذلك لنخبةٍ من صحابتهِ على عهدِه »[١]. هؤلاء النخبة اختُلِفَ في أسمائِهم وعددِهم وأهليتِهم. وعند البخاري نفسِه « سيّدِ المحدّثين وطبيبِ الحديثِ في عَالَمِه »[٢] ثلاثُ رواياتٍ مختلِفَة :

ففي روايةٍ أولى قال البخاري نقلاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص : « سمعتُ النبي (ص) يقول : خذوا القرآنَ من أربعة : من عبدِ الله بن مسعود، وسالمٍ، ومَعَاذ، وأُبَيّ بن كَعْب »[٣].

وفي روايةٍ ثانية نَقل البخاري عن قتادة قال : « سألتُ أنسَ بن مالك : مَن جَمَعَ القرآنَ على عهدِ رسولِ الله (ص) ؟ فقالَ : أربعةٌ كلّهم من الانصارِ : أُبيّ بن كعب، ومَعاذ بن جَبَل، وزَيد بن ثَابت، وأبو زيد. قلت : من أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتي »[٤].

وفي روايةٍ ثالثة روى البخاري من طريق ثابت عن أنسٍ قال : « مات النبي (ص) ولم يَجْمَعِ القرآنَ غيرُ أربعة : أبو الدرداء، ومَعاذ بن جبل، وزَيد بن ثابت, وأبو زيد »[٥].

فالأسماء الواردة في هذه الروايات الثلاث سبعة، هم : عبد الله بن مسعود، وسالم بن مَعقل، ومَعاذ بن جبل، وأَبَيّ بن كعب، وزيدَ بن ثابت، وأبو زيد بن السَكن، وأبو الدرداء. والظاهر أن هذا العدد يعود إلى حديث نبوي يقول : « لا يعرِفُ القرآن الاّ سبعة »[٦]. ولكنّ بعضَ العلماء يرون لعددِ سبعة معانٍ غير محصورة. فالسيوطي، مثلاً، يذكر من المهاجرين. الخلفاءَ الأربعة وطلحة وسعد وابن مسعود وحذيفة وسالماً وأبا هريرة وعبد الله بن السائب والعبادلة[٧] وعائشة وحفصة وأم سلمة. ومن الأنصار : عبادة بن الصامت ومعاذ الذي يكنّى أبا حليمة ومجمع بن جارية وفضالة بن عبيد ومسلمة بن مخلد ... »[٨].

---

[١] الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٦٥.
[٢] مقدمة صحيح البخاري، جزء ١، القول لمسلم صاحب الصحيح.
[٣] السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ١ / ٧٠.
[٤] نفس المرجع. انظر صحيح البخاري، الباب ١٧ من مناقب الانصار.
[٥] السيوطي، الاتقان ١ / ٧٠.
[٦] عن الماوردي المتوفّي سنة ٤٥٠ هـ.
[٧] هم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير.
[٨] السيوطي، الاتقان ١ / ٧٢ ـ ٧٣.

ويذكر القرطبي انّه « قد قُتِلَ منهم يومَ بئرِ مَعونة سبعون، وقتل في عهدِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مثلُ هذا العدد »[1] ... وفي كتب الحديثِ والسيَر أسماءٌ عديدة يختلفُ عدُّها باختلافِ الراوين[2].

هذا الخلاف يدعو إلى التحفّظ والريبة أكثر ممّا يدعو إلى الارتياح بكثرتهم. وعلى كثرتهم نسأل : إلى أيّ مدى يمكننا الثقة بهم ؟ وإذا كنّا نمحضُ ثقتَنا بعضَهم فهل بالثقةِ نفسِها يمكننا أن نأخذَ بما حفِظَه عبدُ الله بنُ أبي سرح ؟ وهو الذي بدّلَ وحرّف! وابنُ داوود يخبرنا عن كاتبٍ آخر، دون ذكر اسمه، وقد بدّل في الوحي وحرّف[3].

ورغم كل ضعف أو نقيصة فإنّ حفظَ القرآن كانَ فضيلةَ المسلمين منذ بدء الدعوة. وقام الحفظُ على أساسين : حفظ القلوب، والتدوين في الرقاع. ويؤكّد ابن الجزري « إنّ الاعتمادَ في نقلِ القرآن كان على حفظِ القلوب والصدور، أكثر ممّا كان على خَطِّ المصاحِف والكُتبِ. وحفظُ القلوب هو أشرفُ خصيصة من الله تعالى لهذه الأمّة »[4].

ويبدو أنّه، في زمن النبي، كانتِ الذاكرةُ هي المعتمَدَ الأساسي، لأنّ صاحبَها لا يحتاجُ « إلى النظرِ في صحيفةٍ كُتبتْ بالمدادِ الذي ينطمسُ ويزول إذا غُسِلَ بالماء »[5]، وهذا معنى الحديث المرويّ عن مسلم قال : « قال النبي إنّ ربّي قال لي إنّي منزلٌ عليكَ كتابًا لا يغسلُه الماءُ، تَقْرَؤُهُ نائمًا ويقظانَ »[6] ... ولكننّا نعلم ما للذاكرةِ من أوهان.

لهذا نسأل : هل الذين حفظوا القرآنَ قد حفظوهُ كلَّه ؟ إن أمثلةً عديدةً في كتبِ الحديث تشيرُ إلى وَهَنِ الاعتمادِ على الذاكرةِ. فالنبيُّ نفسه، عندما كان مارّاً بالقربِ من مجتمعٍ، سمع واحدًا يتلو مقطعًا من القرآنِ فذُهِلَ وعَرَفَ أنه كان قد نَسِيَه، وعادَ إلى ذهنِهِ بفضلِ تلك المناسبة. وهناك خبرٌ عن ابن مسعود يقول : في زمن النبي كنّا نتلو سورةً تُشَابِهُ سورةَ التوبة، وإنني لا أعرفُ منها غَيبًا الاّ آيةً واحدة. تأمّل آيةً واحدة ممّا يقرب من ١٣٠ آية!! ونعرف أيضا قصةَ آيةِ الرجمِ التي كانَ عمر وحدَه يعرفُها ... وغير ذلك[7].

---

[1] انظر في الاتقان ١ / ٧١.
[2] انظر تذكرة الحفاظ ٢ / ٥، وتهذيب التهذيب ٧ / ٣١٥ وغيرهما.
[3] سنن ابن أبي داوود ٣.
[4] هو صاحب كتاب « النشر في القراءات العشر » ، انظر الاعلام ٣ / ٩٧٨.
[5] الزرقاني، منافع العرفان ١ / ٢٣٥.
[6] خرّجه أبو مسلم في صحيحه.
[7] انظر ما سبق في « النسيان النبوي » وفي « تخلّف الصحابة عن القرآن » .

وممّا يقطع بسوء الاعتماد على الذاكرة الشعورُ بضرورةِ كتابةِ القرآنِ وتدوينهِ. فلولا مفاسدُ الحفّاظِ لِمَا ألحَّ عمرُ بن الخطابِ على أَبِي بكر الصديق في الإسراعِ على جمعِ القــرآن وتدوينهِ، ولِمَا تجرّأ عثمانُ على تأليفِ اللجانِ لوضعِ مصحفٍ واحدٍ واحراق سائر المصاحف رغم انتسابِها إلى خيرةٍ من الصحابة! فلولا اختلافُ الحفّاظِ، وموتُ الكثيــرِ مــنهم، وتعــدّدْ المصاحفِ، وكثرةُ الأحرفِ والقراءات ... لما أقدَم أبو بكر الصديق وعمــر بــن الخطــاب وعثمانُ بن عفّان على صنعِ ما لم يصنعْه رسولُ الله!!!

******

خاتمة الفصل

ما زالت معجزةُ الله وملاكِه الأمين جبريل مستمرّة : فمِن معجزةِ تنزيلِ القرآن، إلـــى معجزةِ حفظِ النبيّ رغم نسيانهِ لبعض الآياتِ أحياناً وتدخّلِ الشيطان مراراً، إلى معجزةِ حفظِ الصحابةِ رغم كثرتهِم واختلافِهم السياسي والطبقِي والاجتماعي والثقافي ... نحـــنُ مـــع الله القديرِ الذي لن تُعجزَه الحِيَلةُ في الحفاظِ على كتابه العزيز. ونحنُ مع جبريـــل روحِ القـــدس الأمين، صاحبِ البعثةِ النبويّة وساعي البريد النبويّ الطاهِر، الذي لن يتخلّى عن النبيّ لحظةً واحدةً، ولن يتركَ كتابَ الله عرضةً لأهواءِ صحابةٍ قد تتحكّمُ بهم فضائِلُ أعـــرابٍ يُحرِقـــون مدينةً بأمِّها وأبيها في سبيلِ كلمةِ حقٍّ صدفتْ على اللسان؛ فكيفَ بهم وهم في سبيلِ الدفاعِ عن كلامِ الله!!!

لو كانتْ مهمّةُ جبريل محدّدةً في زمنٍ معيّنٍ لَهَانَ الأمرُ عليه، ولكنّه مُلزَمٌ مـــن قِبَـــلِ وجدانِه المَلَكي ولقدسيّةِ الكتابِ أن يبقى معنا حتى النهاية ...

الفَصْلُ الخَامِسْ

مُعجزَة تَدوين القرآن وجَمْعَه

أَولاً ــ جمع الرسول للقرآن

ثَانياً ــ جمع أبي بكر الصديق للقرآن

ثَالثاً ــ مصحف عثمان بن عفّان

مقدّمة الفصل

يجمع المسلمون على أنّ « القرآنَ كُتِبَ كلُّه في عهدِ رسول الله، ولكن غيرُ مجموعٍ في موضعٍ واحد، ولا مرتّبُ السور »[1]. ويُجمعون أيضًا على القولِ بأنّ القرآنَ جُمِعَ ثلاثَ مرّات : إحداها بحضرةِ النبيّ، والثانية بحضرةِ أبي بكر الصديق، والثالثة في زمنِ عثمان بن عفّان[2].

ولكن، كم من الأسئلة تُطرح علينا في هذا المجال! وكم من علاماتِ استفهامٍ يَرْسِمُها المتبصّرُ بأمور الكتابِ العزيز ونشأتِه أمامَ وجهه! وكم من صعوباتٍ باتتْ مسلّماتُ الإيمانِ عنها غبيّة!

هل كُتِبَ القرآنُ كلُّه في عهدِ النبيّ، أم بعضُه ؟ وما هو هذا البعض، ومَن كتبه ؟ ومتى كُتِبْ ؟ وإذا كان النبيّ « أمّيّاً » لا يعرفُ القراءةَ ولا الكتابةَ، فهل الذين سمِعوا القرآنَ مِن فمِ الرسولِ كانوا يكتبونه حرفيّاً، أم إنّ خلافاً بين كاتبٍ وآخر حدثَ بعلمِ الرسولِ أو بجهلهِ ؟ ثم هلْ رُتّبِتْ سُوَرُ القرآنِ وآياتُه أيّامَ محمّد، أم أنّها من عملِ الصحابةِ؛ والمسلمون يقرّون بترتيبٍ زمنيٍ للقرآن يَختلفُ عن ترتيبه الحالي ؟

وهناك سؤال آخر يمكننا افتراضُه، وقد يكونُ مناسباً أكثر من سواه، وهو : هل يُعقَل أن يكونَ القرآنُ، أو بعضُه، سابقًا لمحمد ؟ وإذا كان قسمٌ من القرآنِ سابقاً على النبي فما هو هذا القِسمَ ؟ ومَن كَتبه ؟ وهل من دليلٍ عليه ومرجع ؟ وإذا ثبتَ ذلك، أيكونُ قرآنُ محمّد نقلاً أو ترجمةً له ؟ وما هو مَدى مطابقةِ هذه الترجمة للأصل ؟ وهل يتعيّنُ لدينا هذا الأصل ؟ وبأيّةِ لغةٍ كان ؟ ومَن وَضعَه بلسانٍ عربي مبين، في حالِ كان بلغةٍ أعجميّة ؟

كلّها أسئلة خطيرة، لا يجابُ عليها الاّ بمعجزةٍ أخرى يكمّلها لنا جبريل. واللهَ لا يعجزه مثل هذه المعجزة، وهو الذي تولّى ويتولّى أمرَ كتابه. ولا نحنُ غيرُ أهلٍ لمثلِ هذه المعجزة، لأنَّ الدين يجبُ أن يقوم مهما كلّف الأمر، إن لم يَكنْ بالإقناعِ واللينِ فبالسيفِ والجهاد المقدس.

يبقى عندنا سؤال أخير : ما هي نيّات الذين استجمعوا قِواهُم، وألَّفوا اللجان، واختاروا الرجال، ومَوّلوا المشروع، وتجرّأوا على إحراق الكتب والمصاحف ... ما هي نيّاتهم الأخيرة في جَمْعِ القرآن في مصحفٍ واحد ؟ هل في البالِ وضعُ حدٍّ للاختلاف، أم محاولةٌ لصدِّ

---

[1] السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١ / ٥٧.
[2] نفس المرجع، ١ / ٥٧ و ٥٩.

خلاف ؟ وما وراءَ ذلك ؟ هل توحيدُ العقيدةِ والشريعة، ومن ثمّ توحيدُ الشِيَع والأحزاب والقبائل والعصبيات ؟؟؟

إن ثبتَ ذلك يكونُ المسلمون الأوّلون قاموا بمشروعٍ عظيم يستحقّون عليه تهنئةَ الأجيالِ ومجدَ التاريخ والنصرَ المظفّر ... ولكن، هل بهكذا جرأةٍ على تمزيقِ مصاحفِ الصحابةِ يُقضى على التشيّعِ والتحزّب والعصبية ؟ وهل، فعلاً، قُضِيَ على الشرّ ؟ يقول لنا المخبرون : ما إن توفّي رسولُ الله حتى اختلفَ المسلمون فيما بينهم : « وأوّل خلافٍ وقع منهم اختلافُهم في موتِ النبي (ص)، فزعَم قومٌ منهم انّه لم يمتْ ... ثم اختلفوا بعدَ ذلك في موضعِ دفنهِ، فأرادَ أهلُ مكةَ ردَّه إلى مكّة، وأرادَ أهلُ المدينة دفنَه بها ... ثم اختلفوا بعد ذلك في الإمامة ... ثم في مَن يَرثُ الأنبياءَ ... ثمّ وجوبُ مقاتَلَةِ مانِعي الزكاة ... الخ[1] ثمّ بعد ذلك افترقَ المسلمون ثلاثاً وسبعين فرقة، وبعد ذلك تقسّموا دُوَلاً ودويلاتٍ وأحزابًا وأشتاتاً ... ولم يزلِ الخلافُ قائماً إلى اليوم. لكأنّ الجهادَ الذي وصّى به النبيُّ على المشركين والكفارِ أصبح جهادًا فيما بين المسلمين، وقتالَ بعضهم لبعض!

فلئن كانَ مشروعُ تمزيقِ المصاحفِ و « توحيدِ الكتاب » قد تمّ، فانّ مشروعَ وَحدةِ الأمّة ما يزالُ في البال. فما هو سببُ الفشلِ إذن ؟ ونحن نعلم أن السعيَ نحو الوَحدةِ، بأيٍّ شكلٍ كان، هو مطلوبُ المسلمين إلى دهر الدهور!!! إنّ شرَّ عثمان في تمزيقِ المصاحف باتَ عبئاً على ضمير هذه الأمّة. فلا المصاحفُ التي كانتْ تشيرُ إلى صورةِ المعلّمِ المحبوب تعود، ولا الوحدةُ المشتهاةُ يمكنها أن تتحقّق! لقد حدَث في التاريخ تزويرٌ وشرّ لن تتخطّاهما الأمّةُ لتعودَ إلى حقيقتِها المرجوّة كما كانتْ أيّامَ النبيّ العظيم ...

هذه أسئلةٌ وأمورٌ يجب أن تعالَجَ في الأساس، أي منذُ أن شرَعَ النبيُّ والخلفاءُ الراشدون في القيامِ بجَمْعِ القرآنِ وتوحيدِ الكتاب وتدوينِ المصحف. فلننظر :

[1] البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٤، « في بيان كيفيّة اختلاف الأمّة وتحصيل عدد فرقها الثلاث والسبعين » ، وأيضًا : مقالات الإسلاميين للأشعري، ص ٣٤ وما بعدها، ثم التبصير لأبي المظفر الاسفرائيني، ص ١٢وما بعدها، والبدء والتاريخ للمطهر المقدسي ٥ / ١٢١ وما بعدها، والملل والنحل للشهرستاني ١ / ٢١ وما بعدها ... الخ.

أَولاً ــ جمع الرسول للقرآن

في إيمان المسلمين إنّ « القرآن كان يُدَوّنِ، وتُرتَّب آياتُه وسُوَرُه في حياةِ محمّد وبأمرهِ »[١]. وذلك عندما « اتّخذَ النبيُّ (ص) كتّابًا للوحي ... وكان يأمرُهم بكتابةِ كلِ ما يُنزِلُ في القرآن، حتى تُظاهِرَ الكتابةُ جَمْعَ القرآنِ في الصدور »[٢]. وكان يأمرُهم بترتيبِ السُوَرِ بعضِها أثر بعض، ويوضعِ الآياتِ في مكانِها من السورِ. وبذلك يكونُ ترتيبُ القرآن « تَوقِيفِيّاً » ، أي وَقْفًا على النبيّ، لا « تَوفِيقِيّاً » ، أي بتوفيق الصحابة.

وعلى هذا المعتقد الإسلامي رواياتٌ وروايات في كتبِ الأخبار والحديث : لقد أخرجَ الحاكِم بسَنَدِ شرط الشيخينِ عن زيد بن ثابت قال : « كنّا عندَ رسولِ الله (ص) نُؤلّفُ القرآنَ من الرِقَاع » . وقد علّقَ البَيْهَقي على ذلك بقوله : « يُشْبِهُ أن يكونَ المُرادُ به تأليفَ ما نَزلَ منَ الآياتِ المفرَّقَةِ في سُوَرِها، وجَمْعَهَا فيها، بإشارةِ النبيّ وبحضرتهِ »[٣].

وروى البخاري حديثاً عن فاطمة أنّ النبيَّ أَسَرَّ إليها بأنّ جبريلَ يُعَارِضُه بالقرآنِ كلَ سنة، وأنّه عَارَضَه في العامِ الذي تُوفيِّ فيه مَرّتين. وقال لها : ولا أراهُ إلاّ حَضَرَ أَجلِي[٤].

وقال البغوى في شرح السنّة : « يُقال إن زيد بن ثابت شهد العُرْضَةَ الأخيرة التي بيّنَ فيها ما نُسِخَ وما بَقي، وكتبَها لرسولِ الله، وقرأَها عليه، وكان يُقرئُ الناسَ بها حتى مات. ولذلك اعتمدَه أبو بكر وعمر في جَمْعِه، وولاّهُ عثمان كتْبَ المصاحف »[٥].

« وهذا يفيد انّ النبيّ كان يستعرِضُ القرآن جميعَه في رمضان، وانّه استعرَضَه مرّتين في رمضان الأخير، وان المصحَفَ الذي كتَبهُ زيدٌ في عهد أبي بكر انّما كان وفاقًا لذلك نصًّا وترتيباً »[٦].

وهناك روايات لا حصرَ لها في ترتيب السور والآياتِ كما هي اليوم في القرآن، على انّها توقيفٌ من النبي. وكلُّ المسلمين يُجْمِعُ. على أنّ ترتيبَ الآياتِ توقيفيّ لا شبهةَ في

---

[١] محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٦٤.
[٢] الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٦٩.
[٣] السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١ / ٥٧.
[٤] نفس المرجع ١ / ٥٠، وقد أخرجه أيضاً ابن اشتة عن ابن سيرين.
[٥] السيوطي، الاتقان ١ / ٥٠.
[٦] محمد دروزة، القرآن المجيد، ٦٩ ـ ٧٠.

ذلك »[1]. وقد روَى الزركشي : « أمّا الآياتُ في كل سورةٍ، ووضعُ البسملة أوائلَها، فترتيبُها توقيفيّ بلا شكٍّ ولا خلاف فيه »[2].

وعن الإمامِ أحمد وابن أبي داوود والترمذي والنسائي وابنِ حيّان والحاكِم عن ابن عبَّاس عن عثمان قال : « فكانَ (الرسول) إذا نزلَ عليه شيءٌ دعا بعضَ مَن كانَ يكتبُ له، فيقول : ضَعُوا هذه الآياتِ في السورةِ التي يُذْكَر فيها كذا ... »[3].

وكذلك أخرج أحمد عن عثمان بن أبي العاص، قال : « كنت جالسًا عند رسول الله (ص) إذ شَخَصَ ببَصَرِه، ثمّ صوّبَه، ثمّ قال : أتَاني جبريلُ، فأمرَني أن أضعَ هذه الآيةَ هذا الموضعَ من هذهِ السورة ... »[4] وعن القاضي أبي بكر في الانتصار : « لقد كانَ جبريلُ يقول : ضَعُوا آيةَ كذا في موضعِ كذا »[5]. وأخرج البخاري عن ابن الزُبَيْرِ عن عثمان قال: قال: « لا أُغَيِّرُ شيئًا من مكانِه »[6].

وقال القاضي أبو بكر : « الذي نذهبُ إليه إنَّ جميعَ القرآن الذي أنزلَهُ اللهُ وأمرَ بإثباتِ رَسْمِهِ ولم يَنسخْه ولا رَفَعَ تِلاوتَه بعدَ نزولِه، هو هذا الذي بينَ الدفتين الذي حواه مصحفُ عثمان، وإنه لم يَنقُصْ منه شيءٌ، ولا زيْدَ فيه. وإنّ ترتيبَه ونَظْمَه ثابتٌ على ما نَظَّمَهُ اللهُ تعالى ورَتَّبهُ عليه رسولُه من آي السُوَر، لم يُقدِّمْ من ذلك موخَّر، ولا أَخَّر منه مُقدَّم. وإنّ الأمّةَ ضَبَطتْ عن النبي (ص) ترتيبَ آي كلِ سورةٍ ومواضِعِها وعَرفتْ مواقعَها » . وبهذا المعنى أيضًا نَقَل البَغَوي في شرحِ السنة، وابن حصّار، وغيرهم[7].

ولكن، إذا كنّا نجدُ اختلافًا في ترتيبِ الصحابةِ لمصاحفِهم الخاصّة، فهذا، بحسبِ الشيخ صبحي الصالح « كانَ اختيارًا شخصيًا لم يحاولوا أن يُلزِمُوا به أحدًا ... إذ لم يكتبوا تلكَ المصاحفَ للناس، وانّما كتبوها لأنفسِهم »[8]. والرأي الراجح عند المسلمين كافّة هو أنّ النبيّ « اهتمَّ بكتابة القرآن، وإنّ القرآنَ كُتِبَ في عهدِه وحَضرتِه بكلِ إتقانٍ وضبط »[9]. و« ترتيبُ السُوَرِ، ووضعُ الآياتِ مواضِعَها انّما كانَ بالوحي. كان رسولُ الله يقول : ضَعُوا

---

[1] السيوطي، الاتقان ١ / ٦٠.
[2] الزركشي، البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٥٦.
[3] السيوطي، الاتقان ١ / ٦٠.
[4] السيوطي، الاتقان ١ / ٦٠.
[5] نفس المرجع، ١ / ٦١.
[6] نفس المرجع، ١ / ٦٠، صحيح البخاري ٦ / ٢٩.
[7] انظر السيوطي، الاتقان، ١ / ٦١ ـ ٦٢.
[8] الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ٧١.
[9] الزنجاني، تأريخ القرآن، ص ٤٣.

آيةَ كذا في موضعِ كذا. وقد حصلَ اليقينُ من النقلِ المتواترِ بهذا الترتيب »[1]. وإذا كانَ للصحابةِ من سعيٍ فهو يعودُ إلى جمعِ القرآنِ من المصاحفِ وصدورِ الرجال، لا في كتابتهِ وترتيبهِ.

ويبدو، بحسبِ المسلمين، إنّ جَمْعَ القرآنِ لم يتمّ في عهدِ النبيّ بسببِ انتظارِ محمّد آياتٍ جديدةً تنزلُ عليه. لهذا « لم يُكْتَبْ في عهد النبي مصحفٌ لئلا يُفضيَ إلى تغييرهِ في كل وقت. فلهذا تأخرتْ كتابتُه إلى أَنْ كَمُلَ نزولُه بموتِه »[2]. وهذا معنى قولِ زيد بن ثابت : « قُبِضَ النبيُّ (ص) ولم يكنِ القرآنُ جُمِعَ في شيء »[3]. وبهذا المعنى قال الخطابي: « انّما انّما لم يَجْمَعِ النبيُّ القرآنَ في المصحفِ لِمَا كانَ يترقّبُه من ورودِ ناسخٍ لبعضِ أحكامه، أو تلاوتِه. فلما انقضَى نزولُه بوفاتِه أَلْهَمَ اللهُ الخلفاءَ الراشدين ذلك وفاءً بوعدِه الصادقِ بضَمان حِفْظِهِ على هذه الأمّة. فكان ابتداءُ ذلك على يدِ الصدّيق بمشورةِ عمر »[4]. وفي ذلك أيضًا قال قال السيوطي : « إن القرآنَ كُتِبَ كلّه في عهدِ رسولِ الله (ص) لكن غير مجموعٍ في موضعٍ واحدٍ ولا مرتَّبِ السُوَر »[5].

[مصادر القرآن]

إنّ المشكلة مع القرآن ليست هي في جمعِه أو حفظِه أو كتابتِه وتدوينه، بل هي في امكانيّةِ وجودِه قَبْلَ محمّد، وجودِه، لا في « اللوح المحفوظ » ، بل في مصادرَ تاريخيّةٍ نُقِلَ القرآنُ عنها. والحقيقة، إنّنا لن نعتمدَ لا على القرآنِ نفسه لنحدّدَ مصادرَه، فهو يعترفُ بوضوحٍ انَّ له مصادرَ ومراجعَ أَخَذَ عنها واستَنَدَ إليها واستقَى منها :

١ ــ إنّ القرآنَ يقول عن نفسِه أنّه موجودٌ في الصُحُفِ الأُولَى وزُبُرِ الأوّلين، في صحفِ موسى وابراهيم؛ وعلماءُ بني إسرائيلَ يَعلمونَه تمامًا. قال : « إنّ هذا (القرآنَ) لَفِي الصُحُفِ الأولى، صُحُفِ ابراهيم وموسى »[6]، وقال : « أَوَلَمْ يُنَبَّأْ بما في صُحْفِ موسى وابراهيم الذي وَفَّى، ألاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وأنْ ليسَ للإنسانِ الا ما سَعى ... نَذِيرٌ من

[1] السيوطي، الاتقان ١ / ٦٢.
[2] الزركشي، البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٦٢.
[3] السيوطي، الاتقان ١ / ٥٧.
[4] نفس المرجع ١ / ٥٧.
[5] نفس المرجع ١ / ٥٧.
[6] سورة الأعلى ٨٧ / ١٨ ـ ١٩، انظر سورة طه ٢٠ / ١٣٣.

النُذُرِ الأُولى »[1]. وقال : « إنّه لتنزيلُ ربِّ العالَمين، على قلبِكَ لتكونَ منَ المُنذِرين، بلسانٍ عربيٍ مُبين، وإنه لَفِي زُبُرِ الأَولين، ألم يكنْ لهم آيةٌ أن يَعْلَمَه علماءُ بني إسرائيل »[2]، أي « إنَ ذكرَ القرآنِ المنزَلِ على محمد لفي كتبِ الأولين كالتوراةِ والإنجيل »[3] ...

٢ ــ يعترِفُ القرآنُ بأنَّ له « إمَامًا » سابِقا عليه، هو كتابُ موسى، وقرآنُه يصدِّقُ كتابَ موسى. قال : « ... وشهدَ شاهِدٌ من بني إسرائيل على مِثْلِهِ، فآمنَ واستكبرتُم ... وإذ لم يَهْتَدُوا به فسيقولون: هذا أفْكٌ قديمٌ. وَمِنْ قَبْلِهِ كتابُ مُوسى إمَامًا ورحمةً. وهذا كتابٌ مصدِّقٌ: لسانًا عربياً، لِيُنْذِرَ الذينَ ظَلموا، وبُشرَى للمحسنين »[4]. وقال أيضًا : « أفمن كان على بيّنةٍ من ربّه، ويتلوه شاهِدٌ منه، ومن قَبْلِهِ كتابُ موسى إمَامًا ورحمة، أولئك يؤمنون به ... فلا تكُ في مريةٍ منه، إنه الحقُ من ربّك »[5].

٣ ــ ويعترفُ القرآنُ بأنّه ذكرٌ من الله مُحْدَثٌ : فيه ذكرُ الأولين وقَصَصُهم وتعاليمُهم. وما هو إلاّ للتذكيرِ بما أَتوا به. قال : « لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه ذكُركم، أفلا تعقلون ؟ ... وما يأتيهم من ذكرٍ من ربّهم مُحْدَث ... فاسألوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمون ... هذا ذكرُ مَن معي وذكرُ مَنْ قَبْلِي ... »[6].

٤ ــ ويستشهدُ القرآنُ بأهلِ الكتابِ وبعلمِهم ومعرفتِهم بالكتب، وهو يسألُهم عن صحّةِ ما فيه، ويدعو أصحابَه لأن يسألوهم بدورِهم ليكونَ في نفوسِهم اطمئنانٌ : قال « فاسأَلوا أهلَ الذكرِ إن كنتم لا تعلمون »[7]. وقال أيضًا : « فاسألوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبيّناتِ والزُبُر. وأنزلنا إليك الذكرَ لتبيّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم. ولعلّهم يتفكّرون »[8]، وقال : « فإن كنتَ كنتَ في شكٍ ممّا أنزلنا إليكَ فاسألِ الذينَ يقرأون الكتابَ من قَبْلِكَ »[9].

٥ ــ ويبدو أنّ أهلَ الكتاب هم على مُستوى اطمئنانِ المسلمين في الردّ على سؤالهم. فهم يعرفون القرآنَ تمامَ المعرفة، يعرفونه كما يعرفون كتابَهم الذي بين أيديهم، ويعرفونه كما يعرفون أبناءَهم. قال : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم »[10]. وقال: « والذي أوحينا إليكَ مِنَ الكِتابِ هو الحقُّ مُصَدِّقًا لما بين يديه ... ثم أورثنا الكتابَ الذي

---

[1] سورة النجم ٥٣ / ٣٧ ـ ٤٠ و ٥٦.
[2] سورة الشعراء ٢٦ / ١٩٦، انظر ٥٤ / ١٧ و٢٢ و٣٢ و٤٠ و٥١ ـ ٥٣.
[3] تفسير الجلالين على ٢٦ / ١٩٦.
[4] سورة الأحقاف ٤٦ / ٩ ـ ١٢.
[5] سورة هود ١١ / ١٧، انظر السجدة ٣٢ / ٢٣ ـ ٢٤.
[6] سورة الأنبياء ٢١ / ٢ و١٠ و٢٤ و٢٥.
[7] سورة الأنبياء ٢١ / ٧ وما بعد.
[8] سورة النحل ١٦ / ٤٣ ـ ٤٤.
[9] سورة يونس ١٠ / ٩٤.
[10] سورة الانعام ٦ / ٢٠.

اصطفينا من عبادِنا »[1]، ويوضح : « أورثَنا بني إسرائيلَ الكتــابَ »[2]. « والــذينَ آتينــاهُمُ الكتابَ (بني إسرائيل) يعلمونَ أنّه (القرآن) مُنْزَلٌ من ربّكَ بالحقّ »[3].

٦ً ــ ويبدو أيضًا أنّ القرآن هو « تصديقَ » للتوراة والإنجيل. ومراراً ذكّر محمّــد بذلك : « إني رسولُ الله إليكم مُصدِّقًا لما بينَ يديَّ من التوراة »[4]. والكتابيون يعرفونَ ذلــك تمامَ المعرفة « لمّا جاءَهم كتابٌ من عندِ اللهِ مصدِّقٌ لما معهم »[5]، ويدعوهم القرآنُ بقولــه: « يا أيها الذين أوتُوا الكتابَ آمِنوا بما نزّلْنا مُصدِّقًا لما معكم »[6]. وهكذا يظهــرُ القــرآنُ بكــل وضوحٍ بأنّه تصديقٌ للتوراةِ والإنجيل، فيكونُ الإنجيلُ كما التوراةُ مصدرًا من مصادرِه التي لا يتنكّرُ لها أحدٌ من المسلمين الطيبين.

٧ً ــ ومن جملةِ الإشارات إلى مصادر القرآن كونهُ مترجَمًا عن « كتابٍ (أعجمي) فُصِّلَتْ آياتُه قرآنًا عربياً »[7]، و « كتابٌ أحكِمَتْ آياتُه ثمّ فُصِّلَتْ من لدنِ حكيمٍ خبير »[8]. وممّا وممّا يشيرُ إلى وجودِ مصدرٍ أعجميٍ للقرآن هو تمنّي العرب أن يكونَ لهم كتــابٌ بلغــتِهم، وتلبيةُ محمّد (؟) لهــذا التمنّي، من قــوله: « ولو جعلنــاهُ قرآنًا أعجمياً، لقــالوا: لــولا فُصِّلَتْ آياتُه! »[9]... فيكونُ القرآنُ العربي « تفصيلَ الكتابِ (الأعجمي)، لا ريبَ فيه »[10].

٨ً ــ وفي تسميةِ الكتاب بالقرآن دلالةٌ على أنّه قراءةٌ عربيةٌ لكتابٍ هو في الأصــلِ بغيرِ لغة العرب. وقــد وُضِعَ بلسانٍ عربيٍّ ليعقلَهُ العرب : « وأنزلناه قرآنًــا عربيًــا لعلّكــم تعقلون »[11]، و « انّا جعلناه قرآنًا عربيّاً لعلّكم تعقلون. وإنّه في أمِّ الكتاب لدينا »[12]، وليتبيّنوا تفاصيلَه : « كتابٌ فُصّلتْ آياتُه قرآنًا عربياً لقومٍ يعلمــون »[13]، ويتعَرّفــوا علــى أخبــاره وقَصَصِه: « نحنُ نقصُّ عليكَ أحسنَ القَصَص بما أوحينَا إليكَ هذا القرآن »[14]، ويهتدوا بهِ من كلِ عِوَجٍ وضلال : « وقرآنًا عربيًا غيرَ ذي عِوَجٍ لعلّهم يتّقون »[15].

---

[1] سورة فاطر ٣٥ / ٣١.
[2] سورة غافر ٤٠ / ٢ ـ ٣.
[3] سورة الانعام ٦ / ١١٤.
[4] سورة الأحقاف ٤٦ / ٣٠، انظر ٣ / ٥٠، ٥ / ٤٦ الخ ...
[5] سورة البقرة ٢ / ٨٩ و ٩١ ...
[6] سورة النساء ٤ / ٤٧.
[7] انظر كتاب قس ونبي، ص ٧٦ ـ ٧٧.
[8] سورة هود ١١ / ١.
[9] سورة فصّلت ٤١ / ٤٤. انظر « قسّ ونبيّ » ، ص ٧٥ ـ ٧٦.
[10] سورة يونس ١٠ / ٣٧.
[11] سورة يوسف ١٢ / ٢.
[12] سورة الزخرف ٤٣ / ٣ ـ ٤.
[13] سورة فصّلت ٤١ / ٣.
[14] سورة يوسف ١٢ / ٣.
[15] سورة الزمّر ٣٩ / ٢٨. انظر : « قسّ ونبيّ » ، ص ٧٤ ـ ٧٥.

٩ ــ هذه الإشارات السريعة تفيدنا أنّ للقرآنِ العربي مصدرًا في غيرِ لغة العرب. بل إن هذا المصدر هو القرآنُ الأعجمي الذي نرى له في كتبِ السِيَر اسمًا لامَعًا، وفي تاريخِ الكتابِ المقدس وتاريخِ الكنيسة اسم « الإنجيل العبراني » الذي كانَ القسُّ ورقة بن نوفل، ابنُ عمّ خديجة يَنْقُلُهُ إلى العربيّةِ بحَضرةِ النبيّ محمّد. ولقد عالجْنا صلةَ القرآن العربي بالإنجيل العبرانيّ في كتابِ قسّ ونبيّ مطولاً؛ فَلْيُعَدْ إليه[١].

١٠ ــ ولكنَّ في القرآنِ العربي إشاراتٍ إلى مقتَبَسَاتٍ أخرى، لا نجدُها في « الإنجيلِ العبراني » ؛ ولكنَّ العارِفَ بالتاريخِ الكنسي وبعلومِ الكتابِ المقدس، في عهدَيهِ الجديدِ والقديمِ، يعلمَ تمامَ العلم أنّ القرآنَ اعتمدَ عليها، وأَخَذَ منها، واقتَبَسَ عنها. كما نجدُ تقاليدَ منتشرةً على ألسنةِ المرسَلين والوعّاظِ في جزيرةِ العرب، استلهمها القرآن وسجّلها بين صفحاته. وعلى ذلك مراجع سهلة المنال؛ فلْيُعَدْ إليها[٢].

بعد هذا العرض كلهِ لمصادر القرآن، ماذا يَبقى من قولِ أهل الأخبار والمحدِّثين بأنَّ القرآنَ جُمِعَ كلَّهُ في عهدِ محمّد! أليسَ في ذلك دلالةٌ على أنّه مجموعًا قَبْلَ محمّد!؟ ولكنّ لذّةَ خَلْطِ تاريخِ الله بتاريخِ البشر جعلتِ الناسَ مطمئنّين لمعجزاتٍ يُحدِثُها اللهُ في كلِّ شيء. وفيما الناسُ تُعوزِهُمُ معجزةٌ، جعلوا اللهَ لا تُعجِزُه معجزة. بهذا يطمئنّ كلْ حَيرانٍ، ويستريحُ كلُ ذي بالٍ قَلِقٍ، وينامُ الكلُّ في رَاحةِ المُعجزة.

---

[١] انظر كتاب قسّ ونبيّ حيث يعالج موضوع الإنجيل العبراني وصلته بالقرآن العربي. وفيه كل قصّة مصادر القرآن المباشرة ...

[٢] انظر : د. فلهلم رودلف، صلة القرآن باليهودية والمسيحية، ترجمة عصام الدين حفني ناصف، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٤.

D. Masson, Monothéisme coranique et monothéisme biblique. Doctrines comparées. DDB. 1976.

Tor Andrae, Les origines l'Islam et le christianisme, Adrien-Maisonneuve, 1955…

ثَانياً ــ جمع أبي بكر الصديق للقرآن

في السنة الأولى من خلافةِ أبي بكر الصديق، ظَهَر مُسَيلَمة النبيّ الكــذّاب باليَمَامــة، فجهّزَ أبو بكر لقِتالِه جيشًا من المسلمين، وفيهم كثيرٌ من القرّاء والحفّاظ، فَقُتِلَ مُسَيْلَمة، واشتدَّ القتلُ على قرّاءِ القرآن، حتى قُتِلَ منهم أكثرُ من سبعين قارئًا، فأحسَّ عمــر بــن الخطــاب بضرورةِ جَمْعِ القرآن، ودعا أبا بكر الصديق ليفعَل[1].

وجاء في سُنَنِ ابن أبي داود « أنَّ عُمَر سألَ عن آيةٍ من كتاب الله، فقيل : كانتْ مــع فلان قُتِلَ يومَ اليمامة. فقال : إنَّا لله. فأمرَ بجَمْعِ القرآن. فكان أوّلَ مَنْ جَمَعَهُ في المصحف ... أي أشارَ بجمعِه »[2].

وروى البُخاري عن زيد بن ثابت قال : « أرسلَ إليّ أبو بكر، بعد مقتلِ أهلِ اليَمَامة، فإذا عُمَرُ بن الخطّاب عنده؛ فقالَ أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القَتْلَ اسْتَحَرَّ يومَ اليمامةِ بقرّاءِ القرآن، وإني أَخشَى أن يَستَحِرَّ القتلُ بالقرّاءِ في المواطِنِ (بسائر البلاد)، فَيَذْهبُ كَثِيرٌ من القرآن. وإنّي أرى أن تأمرَ بجَمعِ القرآن. فقلتُ لعمر : كيفَ تفعَلُ شيئًا لم يفعلْه رسولُ الله (ص). قال عمر : هُوَ وَاللهِ خيرٌ. فلم يَزَلْ يراجِعْني حتى شَرَحَ اللهُ صدري لذلك. ورأيتُ في ذلك الذي رأى عُمَر. قال زيد : قال أبو بكر : إنّك شابٌ عاقل، لا نَتَّهِمُكَ، وقد كنــتَ تكتــبَ الوحيَ لرسولِ الله (ص)، فَتَتَبَّعِ القرآنَ وأجمَعْهُ. فوالله، لو كلّفوني نَقْلَ جَبَلٍ من الجبالِ ما كانَ أثقل عليَّ ممّا أَمَرَني به من جَمْعِ القرآن. فقلتُ : كيفَ تفعلانِ شيئًا لم يفعلْه رسولُ الله (ص). قالَ : هو واللهِ خيرٌ. فلم يَزَلْ أبو بكر يراجعني حتى شرحَ اللهُ صدري للذي شرحَ اللهُ له صدرَ أبي بكر وعمر. فتتبّعتُ القرآنَ أَجمعُه من العُسُبِ (جريدة من النخل) واللخَــافِ (حجــارة بيض رقاق) وصدورِ الرجال، حتى وجدتُ آخرَ سورةِ التوبةِ مع أبي خُزيمَةِ الأنصاري لــم أجِدْها معَ غيرِهِ... فكانتِ الصحفُ عندَ أبي بكر حتى توفّاه الله، ثم عند عُمر حياتَه، ثم عنــد حفصة بنتَ عمر »[3].

[1] السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١ / ٥٩.
[2] نفس المرجع، ص ١ / ٥٨.
[3] الاتقان ١ / ٥٧، انظر : البرهان ١ / ٢٣٤، تهذيب التهذيب ٣ / ١٤٠.

لقد استعجلَ أبو بكر وعمر في جَمْعِ المصاحف، لأنّ هناك خطرًا مُداهِمًا يتأتّى من مصاحفِ أخرى مختلفةٍ بعضُها ببعض. وقد كان أصحابُها من صحابةِ النبيّ المشهورين بالعلمِ والفضيلة ومن أمّهاتِ المؤمنين اللواتي عايَشْنَ النبيّ وعرفنَه في حالاتهِ الخاصّةِ والعامّة. وكان عددُ المصاحفِ كبيرًا، وخطرُها أكبر، والخلافُ بينها واسعًا، والثقةُ بها أوسع :

١ ــ فهناك مصحفُ سَالِم بني معقل مَولى أبي حُذَيْفَة الذي حرّره النبيّ. ولكنّ سالمًا ماتَ بعدَ النبيّ بسنة[١]. وقد أخرجَ ابن أشتة في كتابِ المصاحفِ عن ابن بريدة قال : « أوّلُ مَنْ جَمَعَ القرآنَ في مصحفٍ سَالِمٌ مَولى أَبِي حُذَيفة، أَقسَمَ : لا يرتدي برداءٍ حتى يجمَعَه. فَجَمَعَهُ »[٢].

٢ ــ وهناك مصحفُ عبد الله بن عبّاس، توفّي سنة ٦٨ هجرية. ولابن عبّاس مكانٌ في الإسلام مرموق. تخصّصَ في تفسيرِ القرآن، وكان تلميذًا لعليّ بن أبي طالب. ذكر الشهرستاني له مصحفًا يختلف بترتيبهِ عن مصاحف الصحابة[٣].

٣ ــ وهناك مصحف عقبة بن عامر (+ ٦٠ هـ) من صحابة النبي، وقد حَكَم مصرَ فيما بعد. له مصحَفٌ وجِدَ سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م. ولكنّه لم يعدْ يوجَد اليوم[٤].

٤ ــ وهناك مصحف المقداد بن عمر (+ ٣٣ هـ) من صحابة النبي المشهور بتقواه وشجاعته. لقد كان مصحفُه منتشِرًا في حمص بسوريا[٥].

٥ ــ ومصحف أبي موسى الأشعري (+ ٥٢ هـ) من شيعةِ علي. انتشر مصحفه في بصرى. وكان شبيهًا إلى حدٍّ بعيد بمصحَفَي ابنِ مسعود وأُبَيّ ابن كعب. عُرِفَ بمخالفته لمصحفِ عثمان الإمام[٦].

٦ ــ ومصحف أُبَيّ بن كعب (+ ٢٣ هـ) من المدينة. استخدَم النبيُّ أُبَيًا لتدوينِ الوحي، ولكتابةِ الرسائلِ إلى القبائل. اشتهرَ باتّقادِ ذاكرته، وهو بين القلائلِ الذينَ حَفظُوا كلَ القرآن. يختلفُ بمصحفهِ عن مصحفِ عثمان، بعددِ سُوَرِهِ وبترتيبهِ. ففيه ١١٦ سورة بدل ١١٤. والسورتان الزائدتان هما : سورة الخَلْعِ وسورة الحَفْد[٧].

---

[١] تفسير الطبري ١ / ٦٣.
[٢] الاتقان ١ / ٥٨ عن كتاب المصاحف لابن أشتة.
[٣] انظر الاصابة ١ / ٩٤، وانظر ترتيب مصحفه في كتاب « تاريخ القرآن » للزنجاني، ص ٧٦.
[٤] نولدكه، تاريخ القرآن، ٣ / ٩٧، حاشية ١.
[٥] نولدكه، تاريخ القرآن، ٢ / ٢٩ ـ ٣٠.
[٦] تاريخ القرآن لنولدكه، ٢ / ٢٨ و ٣٠، الانسكلوبيديا الإسلامية ٤٨٨.
[٧] انظر : الإصابة ١ / ١٦، الفهرست ٤٠، الزنجاني ٧٢ حيث ترتيبه.

٧ ــ مصحف عبد الله بن مسعود (+ ٣٠ هـ). نشأ راعِياً، وأسلم باكِراً، وخدَم النبي بورَعٍ. نَقَلَ عنه البخاري قولَه : « باللهِ، ليسَ من سورةٍ في الكتابِ أُوحِيتْ إلاّ وعرفتُ أينَ أوحِيَتْ وبمناسبةِ مَنْ أوحِيَتْ »[١]. ينقص من مصحفهِ سورةٌ الفاتحة والمعوذتَان. ويختلف ترتيبُه عن سائر المصاحف[٢].

٨ ــ مصحف عائشة، جمعَه لها مولاها أبو يونس. وروَى عنها عروةُ ابنُ الزبير أنها قالتْ : « إن سورةَ الأحزابِ كانت تُقرَأ في زمنِ النبي مئتي آية. فلما كتبَ عثمانُ المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن »[٣].

٩ ــ مصحف حفصة، جمعَهُ لها مولاها عُمر بن رافع. ولكن لا نستطيعُ أن نعرفَ عمّا إذا كان هو نفسه مصحف زيد بن ثابت الذي أودَعه عندها أم غيره.

١٠ ــ مصحف علي بن أبي طالب (+ ٤٠ هـ). كَلَّمنا عنه اليعقوبي وابن النديم والسيوطي وغيرهم. عَرَفَ الامامُ محمدُ الباقِر هذا المصحفَ ونَسَبَهُ إليه[٤]. سمَّى عليٌّ بـ« الناسخِ والمنسوخ »[٥] وقسَّمَه إلى سبعةِ أجزاء، وكلُ جزء من ١٥ أو ١٦ سورة. ولا يُستبْعَد أن يكونَ مصحفُ عليّ فاقَ سائرَ المصاحفِ لمكانةِ عليٍّ في الإسلام. ولا يستبْعَدُ أيضًا أنْ يكونَ مصحفُه مغايرًا لسائرِ المصاحفِ ومختلِفًا عنها، لاختلافِ موقِفِه من مواقفِ أهلِ السنة وجماعةِ الخلفاءِ الذين اغتصَبوا منه الخلافة. ومن الطبيعي أن نجدَ لعليٍّ مصاحِفَ كثيرة تَنتَسِبُ إليه لِكثرةِ الشِيَعِ التي تفرّعتْ عن شيعته.

والغريب في الأمر أن يشرَعَ عليٌّ، بعد موت النبي مباشرة، وعند بيعة أبي بكر، بجمعِ القرآن! والغريب أيضًا أن يَرى عليٌّ، منذ تلكَ اللحظة، أنّ القرآنَ يُحَرَّفُ فيه ويُزَادُ عليه. قال عكرمة : « لمّا كانَ بعدَ بَيعَةِ أبي بكر، قعدَ عليّ بنُ أبي طالب في بيته. فقيل لأبي بكر : قد كَرِهَ بَيْعَتَكَ، فأرسلَ إليه. فقالَ : أكَرِهْتَ بَيعَتي ؟ قالَ : لا والله. قال : ما أقعدَكَ عنّي ؟ قال : رأيتُ كتابَ الله يُزادُ فيه. فحدّثتُ نفسي أن لا ألبَسَ ردائي إلاّ لصلاةٍ حتى أجمَعَهُ. قالَ له أبو بكر : فإنّك نِعْمَ ما رأيت »[٦].

وعن ابن أبي داود قال : « سمعتُ عليّاً يقول : أعظمُ الناس في المصاحفِ أجرًا أبو بكر، رحمةُ الله على أبي بكر، هو أوّلُ من جَمَعَ كتابَ الله »[٧]. وعن ابن سيرين قال: «

---

[١] عن نولدكه، تاريخ القرآن ٣ / ٥٢٧، رابعاً.
[٢] انظر ترتيبه في « تاريخ القرآن » للزنجاني ٧٤ ـ ٧٥.
[٣] السيوطي، الاتقان ٢ / ٢٥.
[٤] تفسير القمي، ٤١٩ ـ ٤٢٠.
[٥] الاتقان ١ / ٥٨.
[٦] السيوطي، الاتقان ١ / ٥٧ ـ ٥٨.
[٧] نفس المرجع، ١ / ٥٧.

قالَ عليّ لمّا ماتَ رسولُ الله، آليتُ أن لا آخذَ عليَّ ردائي الاّ لصلاةِ جُمْعَةٍ حتى أَجْمَعَ القرآنَ فَجَمَعْتُهُ »[1].

لنا حولَ هذه المعطياتِ أكثرُ من تساؤل : لماذا يُشيدُ المحدِّثون برضى عليٍّ على صنيعِ أبي بكر وعمر ؟ هل يُعقَل أن يباشِرَ عليٌّ بوضعِ القرآن ولم يَمضِ على موتِ النبيّ ساعات ؟ وهل منذ هذه اللحظةِ ابتدأتِ الزياداتُ تَظهَرُ في القرآنِ حتى يقولَ عليٌّ « رأيتُ كتابَ اللهِ يُزاد فيه » ؟ وإذا كانتْ غَيرَةُ عليٍّ كبيرةً إلى هذا الحدّ فلماذا لم يأخذْ أبو بكر وعمر بمصحَفِه ؟ ولماذا فضّلَ أبو بكر وعمر مصحفَ زيد بن ثابت على مصحفِ عليّ ؟ وعليٌّ هو المسلمُ الأوّل والمجاهِد الأكبر، ابنُ عمِّ النبيّ وصهرُه وربيبُه وحامِلُ لواء الإسلام!!

ثمّ ما الذي دفَع أبا بكر الصدّيق وعمر بن الخطّاب إلى جَمْعِ القرآن ؟ ولماذا اختارا زيدًا بنَ ثابت لهذه المهمّة ؟ والمعروفُ أن زيدًا لم يزلْ في بطنِ أمّهِ عندما ابتدأ النبيُّ بالرسالة والنبوّة ؟ بل إن عُمْرَ زيدٍ لم يكنْ أكثرَ من عَشْر سنين عندما هاجَرَ النبيُ إلى المدينة. فهناكَ اذن اكثرُ مِن ثِلْثَي القرآن نزل على النبيّ ولم يكنْ زيدٌ يَعِيهَا لِصِغَرِ سِنِّهِ! وما معنى قولِ أبي بكر لزيد : « انّك شابٌ عاقِلٌ لا نتّهِمُك » ؟ فهل من اتّهامٍ لغيرِ زيد من كَتَبَةِ الوحي ؟ ولماذا ؟ ولماذا فُضِّلَ زَيدٌ على عبدِ الله بن عبّاس، وقد مَدَحَه النبيّ بأنّه خيرُ مَنْ عَرَفَ القرآنَ وفَسَّرَهُ، وعلى أُبَيّ بن كعب صاحبِ الذاكرةِ الوقادة، وعلى عبدِ الله بن مسعود المسلِمِ الورع ؟ ولماذا وَضَعَ زيدٌ المصحف الذي جَمَعَهُ عندَ حفصة بنتِ عُمَرْ وزوجةِ النبيّ وليسَ عند أمّ سَلَمة مثلا، أو غيرهما ؟

إنّها أسئلة كثيرة تخطر على البال، وليسَ عليها من التاريخِ جواب. الإيمانُ وحده يستطيعُ نَقْلَ الجبال. ونحنُ بنقلِ الجبالِ، ولو بأظافِرِنا، مُلْزمون. فهل رواياتِ أهلِ الأخبارِ غيرُ صحيحة، وتاريخَهم تتحوّلُ أحداثُه بإيمانِهم. ولم يُعَبِّرْ أهلُ الاخبارِ عن هذا الإيمان الاّ بعدَ ما يَزيدُ على المائةِ سنة من موتِ النبي. وليسَ مَنْ يفصلُ بين التاريخِ والإيمانِ سوى التنقيبِ في رمالِ مكة وآثارِ الكعبة وبيتِ الله الحرام. ولكنّ حُرْمَةَ البيتِ تمنعُ عن القلقين البحث المتعِبَ المضني. ولم يبقَ أمامَنا الاّ الإيمانُ بمعجزةٍ إلهيّةٍ أخرى تُقَدِّمُ لنا المصحَفَ الجليلَ على راحتَي جبريلَ المُباركَتَين!

[1] نفس المرجع، ١ / ٥٧.

ثَالثاً ــ مصحف عثمان بن عفّان

في إيمان المسلمين إنّ القرآنَ المتداولَ اليومَ قد جمعَه عثمانُ بن عفّان من الرقاعِ وصدورِ الرجال، وقد ألّفَ من أجلِ ذلك لجنةً من عدّة قرّاءٍ فوضعوا ما وضعوا متَّفِقين. ولمّا انتهتِ اللجنةُ من أعمالِها، أمرَ الخليفةُ بنسخِ المصحفِ عدّةَ نسخ، أربعةً أو سبعةً، ووزَّعَ النسخَ على الأمصارِ الاسلاميّة، ثمّ أتلفَ كلَ المصاحفِ الخاصّة.

لقد باتَ كل شيء معدّاً، إلى الآن، ليتدخّلَ الخليفةُ الثالث عثمان بن عفّان (٢٣ ــ ٣٥ هـ / ٦٤٤ ــ ٦٥٥ م) ليحسمَ موضوعَ جَمْعِ القرآنِ ببطشٍ وسلطان. زيد بن ثابت لا يزالُ حيّا يُرزق. والفتوحاتُ الإسلاميّة تتوالى. والقتلُ بين الصحابة يزداد. والاختلافاتُ بين القرّاء تزدادُ هي أيضاً. والاقتتالُ بين الناس يشتدُّ بسبب هذا الاختلاف. لقد « اقتتلَ الغلمانُ والمعلمون »[1]، وتوزّعَ الحفّاظُ والقرّاءُ في الشامِ والعراقِ واليمنِ وأرمينيا وأذربيجان، ولَحَنَ العربُ في لغتهم لمجاورتِهم أممًا غيرَ عربية، أو عربيةً غير مَضَرِيَّة، وفسدتِ اللغةُ فدخلَ فيها ألفاظٌ أعجميّة، وفُقِدَتْ منها ألفاظٌ أخرى ... كلُ هذا دعا الخليفةَ إلى التدخّلِ المباشَر، لأن القرآنَ أصبحَ في خَطَرِ التحريفِ والتصحيفِ والزيادةِ والنقصان ...

يخبرنا البخاري في صحيحه عن ابن شهاب عن أنس بن مالك حدّثه « أنّ حُذَيفةَ بن اليمان قَدِمَ على عثمان، قَبْلَ الذهابِ إلى فَتْحِ أرمينيا وأذربيجان (سنة ٣٠ هـ / ٦٥٠ م) وقال له : « يا أميرَ المؤمنين، أَدْرِك » هذه الأمّةَ قبلَ أن يختلِفوا اختلافَ اليهودِ والنصارى. « فأرسلَ عثمانُ إلى حفصة أَنِ أَرسِلِي إلينا الصُحُفَ ننسخُها في المصاحفِ ثم نردُّها إليكِ. فأرسلتْ بها حفصةٌ إلى عثمان. فأمرَ زيدَ بن ثابت وعبدَ الله بن الزبير وسَعِيدَ بن العاص وعبدَ الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمانُ للرهطِ القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن فاكتبوه بلسانِ قريش، فإنّه إنما نَزَلَ بلسانِهم. ففعلوا، حتى إذا نَسخُوا الصحفَ في المصاحفِ ردَّ عثمانُ الصحفَ إلى حفصة. وأرسلَ إلى كلِ أفقٍ بمصحفٍ ممّا نَسَخُوا. وأمرَ بما سواه من القرآنِ في كلِ صحيفةٍ أو مصحفٍ أن يُحْرَق »[2].

وعن أنسٍ بن مالك أيضًا قال : « اختلفوا في القرآنِ على عهد عثمان حتى اقتتلَ الغلمان والمعلمون، فبلغَ ذلك عثمانَ بن عفّان، فقال : عندي تكذِبون به وتلحنون فيه! فمن نأى

---

[1] السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١ / ٥٩.

[2] صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، الباب الثاني والباب الثالث، السيوطي، الاتقان ١ / ٥٩، ابن أبي داود ١٨، الطبري ١ / ٢٠ ـ ٢١.

عنّي كانَ أشدَ تكذيبًا وأكثرَ لحنًا. يا أصحابَ محمّد اجتمِعوا فاكتُبوا للناسِ إمَامَـا. فـاجتمعُوا فكتبوا فكانوا إذا اختلفوا وتدارءوا في أيِّ آيةٍ قالوا : هذه أقرأَها رسولُ اللهِ فلانًا فيُرسَلُ إليـه وهو على رأسِ ثلاثٍ من المدينةِ، فيُقال لَه : كيفَ أقرأكَ رسولُ الله آيةَ كذا وكذا، فيقولُ : كذا وكذا، فيكتبونها، وقد تركوا لذلك مكاناً »[1].

لنا حول رواية البخاري الذي « ما عَرفَ التاريخُ مَنْ يُضَارعُه في الثقـةِ والضـبطِ والأمانة »[2] عدّةُ تساؤلات :

لماذا زيد بن ثابت ؟ ومن المعروف أنّ بين الصحابة وكَتَبةِ الوحي من هو أكثر ثقـةً وعلمًا وبلاغةً منه ؟ وانّه لم يَسمَعْ من النبيّ سوى آياتٍ قليلةٍ من القرآن، وانّه، بالنسبةِ إلـى أُبَي وابنِ عبّاس وعليٍّ بن أبي طالب، لا يُعْتدُّ بورَعِهِ أو بعلمهِ أو بوعيهِ أو بجهـادِه، ورفـع لواء الإسلام! ولماذا فضّلَ عثمانُ أيضًا، كأبي بكر وعمر، أن يكونَ زيدٌ رئيسًا على جمّـاعِ القرآن وحفّاظه! ثمّ على أيّ دين كان زيد ؟ هل حقّا كان يعرِفُ العبريةَ والسريانية[3]، وإن كان ذلك فعلاً، فأين تعلّمهما ؟ وعلى يدِ مَن أخذهما ؟

ثمّ لماذا أحرقَ عثمانُ المصاحف ؟ وكيفَ أحرقها ؟ هل أحرِقَتْ، أم مُزِّقتْ، أم طُرِحَتْ في الماء ؟ التقليدُ يختلف في ذلك. وكيف تجرّأَ المؤمنون على إتلافِ هذه المصاحف، وهـي تحملُ في طيّاتِها صورةَ المعلم المحبوب، وهي من أيدي صحابةٍ أجلاّءَ محترَمِين مَوفـوري الوَقارِ والكَرامة!

وكيف تألّفتِ اللجنةُ ؟ ومِمَّنْ ؟ التقليد على خلافٍ ظاهر. فمنه ما يشير إلى اثنين فقط: زيد وسَعيد بن العاص؛ ومنه ما يشيرُ إلى ثلاثة : زيد وسعيد وعبد الرحمن بن هشام؛ ومنه ما يشير إلى أربعة[4]، ومنه ما يشير إلى لجنة اثني عشرية[5] ... ومن المعروف أيضًا أن سَعيدًا بن العاص كان إبّانَ تأليفِ اللجانِ والياً على الكوفة، فكيف يكونُ من أعضائها ؟ وثالثة من اللجنة الرباعية كانوا مكيّين من قريش ومن الطبقة الارستقراطيّة ومن أقرباء عثمان بن عفّان، وبين بعضهم بعضاً صلاتُ مصاهَرَةٍ ومصالحُ مشتركة. وزيدَ وحدَه كان مدنِيًا من الأنصار. ومـع هذا كان رئيسا على اللجنة وفي نصيحة عثمان للجنة : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فـي

---

[1] نفس المرجع ١ / ٥٩.
[2] الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٧٩.
[3] طبقات ابن سعد ١١، ٢ / ١١٥.
[4] يضاف إلى الثلاثة المذكورين ابن الزبير، انظر البخاري وابن أبي داود.
[5] ابن أبي داود، كتاب المصاحف، ص ٢٢، ٢٤ و ٢٥.

شيء من القرآن فاكتبوه بلسانِ قريش »[1] ما يشير إلى إمكانية الخلاف، وإلى مداخلة الخليفة وإشرافه وسلطانه.

هل لعثمان نيّات وخفايا فيما صَنع ؟ الحقيقةُ إنه كانَ يعرفُ مدى خطورةِ مصحفِ عليّ بن أبي طالب خصمهِ وعدوّهِ السياسي، وكان يعرفُ انّ هناك مصاحفَ دُوِّنتْ أيّامَ النبيّ ولها قدسيَّتُها وأهمّيتها، وكان يعرفُ أنّ مصاحفَ الصحابةِ المعروفَة آنذاك كانتْ تنتمي إلى المدينةِ وسائرِ المواطن الإسلامية، وهو يريد لمكَّةَ السَبَقَ في هذا المجال ... لعلّها العصبيّة القبلية تحكّمتْ بعثمان ؟ وليستْ هذه العصبية مختفيةً في غير هذا الموضع في كل حال. فالعصبيةُ الأموية والعصبيةُ العباسية والعصبيةُ العلوية كانتْ باقيةً وقد أخذتْ مجراها في الخِصام والاقتتالِ والثوراتِ حتى الدم الغزير ...

ثمّ ما هو موقفُ عليّ ؟ وقد وضعَ المحدِّثون على لسانهِ كلَ الرِضى، تمامًا كما أظهروا رضاه على ما صَنع أبو بكر وعمر. لقد « أخرَج ابنُ أبي داود بِسَنَدٍ صحيحٍ عن سُوَيد بن غَفلة قال : قال عليّ : لا تقولوا في عثمانَ الاّ خيرًا، فواللهِ ما فعلَ الذي فعلَ في المصاحفِ إلا عن ملأ منّا »[2]. هل رضِى عليّ هو حقيقة ؟ إن لعليٍّ مصحفًا دَوَّنَهُ بيدهِ ومباشرةً عن النبيّ، وهو كما يجب أن يكونَ أكثرَ أَصالة من مصحفِ زيد أو سواه، وقد أتلفَه عثمان، فهل هذا يوجِبُ من عليّ سخطًا أم رضى ؟

لماذا ردّ عثمانُ المصاحفَ لحفصة ؟ إن الخليفةَ مروان بن الحكم سنة ٦٤ حاولَ أن يأخذَها منها ليحرقَها فأَبَتْ. فلمّا توفّيتْ أخذَها وأتلَفها، وقال مدافِعًا عن صنيعه : « انّما فعلتُ هذا لأنَّ ما فيها قد كُتِبَ وحُفِظَ بالمصحفِ الإمام، فخشيتُ ان طالَ بالناسِ زمانٌ أن يَرتابَ في شأنِ هذه الصحفِ مُرتاب »[3]. السؤال : أكانت مصاحف حفصة تختلف عن مصحف عثمان، حتى يتصرّف مروان هكذا ؟ إذا كان كذلك، فما صحّة علاقة مصحف عثمان بما جمعه أبو بكر اذن ؟!

الحقيقة إن اعتمادَ عثمان على جمعِ أبي بكر هو عملٌ ذكي، بل عملُ سياسيٍ ماهِر. لقد كانَ يعرفُ إنه إذا اعتمدَ مصحفَ ابنِ مسعود مثلاً لكانَ أثارَ عليه حَنَقَ السوريين وأهلِ بصرى الذين كانوا يقرأون بمصحفِ أُبَي بن كعب وبمصحفِ الأشعري، ولكان شَتَم عملَ سَابِقَيْهِ في الخلافة أبي بكر وعمر، وقد كان يعرفُ بذكائه إنّ المسلمينَ لن يختلفوا كثيرًا إذا ما رَفَعَ من شأن الخليفتَين اللذَين سَدَّدا خطواتِ الإسلامِ وفتحَا البلادَ وأعليَا العمران.

---

[1] السيوطي، الاتقان ١ / ٥٩.
[2] نفس المرجع ١ / ٥٩ ـ ٦٠.
[3] ابن أبي داود، كتاب المصاحف، ص ٢٤.

ثمّ أيضًا ما هو موقفُ ابن مسعود من مصحفِ عثمان ؟ إن دلائلَ كثيرةً تشيرُ إلى عدم رضاه؛ لقد رفضَ رفضًا قاطِعًا ما جمَعَه عثمان، وقال : « كيفَ تأمرني أن أتّبعَ قراءةَ زيد في الوقتِ الذي كنتُ أقرأ القرآنَ سبعين مرّة، وأسمعُه من فمِ النبي، وزيدٌ كان لا يزالُ في صلبِ أبيه يحملُ لُعَبَ الأولاد ويلعبُ بالمكانس! »[1]. ومرّة أخرى قال : « سأتركُ مصحفَ عثمان لأنّه من عمل إنسانٍ. فعندما كنتُ قد أصبحتُ مسلِماً، كان زيدٌ في أحشاءِ أمّه »[2].

قد تكون هذه الأقوال المنسوبة إلى ابن مسعود صحيحة أو غير صحيحة، ولكنّ عدم رضاه فيها واضح. ومُبرِّرُ عدمِ الرضى واضحٌ أيضاً. وقد يكونُ هذا موقفُ أبيّ بن كعب أيضاً، ولكن لا علمَ لنا به على طريق الوضوح، فيما الذين يتّبعون مصحفه أظهروا عدمَ رضاهم برفضِهم مصحفَ عثمان الذي حَكَم على إتلافِ كل المصاحف. ولا شيءَ يمنعُ من القولِ بعدم رضى عليّ بن أبي طالب، بدليلِ ما وُضِعَ على لسانه من رضى، ظنّاً أنّ في قلبِه غيرّ هذا الرضى.

ومع هذا كلّه، ورغم حسنِ نيّات عثمان في توحيدِ الكلمة بني المسلمين وفي توحيدِ كتاب الله، لم تُحَلِّ المشكلة من أساسها، بل قد يكون عثمان عقَّدَها أكثر، لأنّ المصاحفَ القديمةَ كان يقرؤُها الناسُ بِيُسْرٍ وسهولة، ولأنّ بعضَهم كان يحفُظها عن ظهرِ القلب. وأمّا مصحفُ عثمان فليسَ هناك مَنْ يحفظْه، أو مَن يقرؤُه. وليس فيه نقَطٌ لتمييزِ الحروف. وليس فيه حركاتٌ لتعيين مواقعِ الكلمات وإعرابها. وليس فيه حروفُ علّةٍ لتعيين طبيعةِ الكلمة وتمييزِ الكلمات المتشابهةِ بعضها عن بعض ...

بهذا دخل في مصحف عثمان قراءاتٌ من مصاحفَ سابقة، وتصحيفٌ من قرّاءٍ غير قرشيين أو مضريين أو حتى غير عرب. فكل شيء فيه يدعو إلى القلق اذن. وما يزيد القلقَ في صحّةِ قرآنِ عثمان هو انتسابُ مصاحفَ قديمةٍ وخاصةٍ إليه، وذلك بعدَ مقتلِهِ الذي أضفى عليه المسلمون معنَى الاستشهاد والمَلَكوتي. فبعدَ أن عرف الناسُ عثمانَ ظالمًا محتالاً، عرفوه الآن بعد استشهادِه، شهيدًا وليّا طاهِراً. وبفضلِ هذا أصبحَ لمصحفهِ مكانٌ فريد. وأصبحَ كلُ قرآن مجبولٍ بنقطةِ دمٍّ من عثمان قرآنًا لا يُقَدّرُ بثمن. وكلُ صاحبِ قرآن، لكي ينفذَ بكتابِه إلى قلوبِ الناس، نَسَبَه إلى عثمان. وهكذا أصبحَ مصحفُ عثمان سحرًا أفاضَه عليه الخليفةُ الأموي عبد الملك بن مروان ووزيرُه الحجّاج بن يوسف، كما سترى.

---

[1] نفس المرجع، ١٧، ابن سعد ٢ / قسم ٢ ص ١٠٥.
[2] نفس المرجع، ص ١٧ سطر ١٥.

وممّا يزيدُ الأمور تعقيدًا اختلافُ أهلِ الأخبار والمحدِّثين في عددِ النسخِ التي أرسلَها عثمانُ إلى الأمصار، فمنهم مَن يجعلُها أربعةً، ومنهم سبعةً، أرسلَ كلَ واحدة منها إلى قطر : « إلى مكّة، والشام، واليمن، والبحرين، والبصرة، والكوفة، وحبسَ بالمدينة واحدة »[1].

ثم لماذا لم يعدْ عثمانُ راضيًا بمصحفِ زيد بن ثابت الذي جَمَعَ لأبي بكر وعمر ؟ هل من خلافٍ بين مصحفِ زيدٍ الأوّل، وما يجمعُه لعثمان الآن ؟ ثم لماذا فضّل عثمانْ حرفًا واحِدًا من الأحرفِ السبعة ؟ ومِنَ المسلَّم به أنَّ الله « أنزَلَ القرآنَ على سبعةِ أحرف. فرأى عثمان أن يزيلَ منها ستّةً، وأن يجمعَ الناسَ على حرفٍ واحد، فلم يُخالِفْه أكثرُ الصحابة، حتى قال عليّ : لو كنتُ موضِعَه لفعلتُ كما فعل ... كانوا يقرأون القرآنَ على سبعةِ أحرف، فوقَع بينَهم الشرُّ والخلافُ، وأرادَ عثمانُ أن يختارَ من السبعةِ حرفًا واحِدًا هو أَفْصَحُهَا، ويُزيلَ الستَةَ. وهذا من أصحِّ ما قيل فيه لأنّه مرويّ عن زيد بن ثابت »[2].

لكنّنا نسأل : ما هو الحرفُ الصحيح، بل ما هو « أفصحُ الحروفِ الستة » ؟ وأيضًا : « ألا يعني اختيارُ « الأفصح » منها انّه كانَ في النصوص السبعةِ فصيحٌ وأفصح ؟ »[3]، والمسلمون يعتقدون بأنّ حروفَ القرآنِ جميعَها هي في مُنتهى البلاغةِ والفصاحة!

---

[1] السيوطي، الاتقان ١ / ٦٠.
[2] أبو جعفر النحاس، الناسخ والمنسوخ، ص ٣٧ ، انظر ١٥٩.
[3] الاستاذ الحداد : القرآن والكتاب ١ / ٢٤٣.

خاتمة الفصل

ليست المعجزة احتيالاً من الله على نِظام الكون وقوانينه، ولا احتيالاً من الإنسان على التاريخ ومعطياته. يستطيعُ اللهُ القادر القديرُ على تبديلِ كلِ نظامٍ دونَ أي مكرٍ منه عليه، ويستطيعُ الإنسانُ الإيمانَ دون أن ينالَ هذا الإيمانُ من حقائقِ التاريخ. يعرِفُ اللهُ لأيّةِ غايةٍ يتدخّلُ في العالَم، ويعرِفُ الإنسانُ معنَى المعجزةِ التي تحدثُ مرّةً بعد مرّة.

أمّا الذي لا أعرفه هو ما حدَث في تاريخِ النبوّةِ والقرآنِ من معجزات. فلا أستطيعُ اتّهام الله بمَكْرٍ أو بحيلة، رغم أنّه، بحسبِ القرآن، « خير الماكرين »[1]، ولا اتّهامَ الإنسانِ بالإيمانِ الأعمى على حسابِ وضوحِ معطياتِ التاريخ. فالقرآنُ يعترف بكتابٍ سابقٍ عليه، ومحمّدٌ بلّغَ من هذا الكتابِ ما يوافِقُ عقليّةَ العربيّ ومجتمعه؛ ولكنَّ المسلمين استحبّوا الدخولَ في عالمِ المعجزات : معجزةِ الوحي والتنزيل، ومعجزةِ جمعِ القرآن من صدور المؤمنين، ومعجزةِ تبريرِ كلِ معجزة آمنوا بها.

فلا الله يعجبه ذلك، ولا الإيمان يُسلّم بكل ذلك. فيما المذهولون برَبْطِ الأرضِ بعُمُدِ السماء يريدون لنفوسِهم الاطمئنانَ، فكان لهم كلُ الاطمئنان.

[1] سورة ٣ / ٥٤ ، ٨ / ٣٠، انظر ٢٧ / ٥٠، ١٠ / ٢١، ١٣ / ٤٢ ...

الفَصْلُ السَّادِس

مُعْجزَة ضَبْط القرآن واتلافَ المصَاحف

أَولاً ــ الوضع السياسي

ثَانياً ــ وضع المصاحف العثمانية

ثَالثاً ــ ضبط المصاحف العثمانية

رَابعاً ــ رخصة القراءات

مقدّمة الفصل

قام من المسلمين مَن قال : إنّ « أهلَ العصرِ الأوّل ... كانت كتابتُهم للمصحفِ الشريفِ سقيمةَ الوضعِ، غيرَ محكمةِ الصنع. فجاءتِ الكَتْبَةُ الأولى مزيجًا من أخطاءَ فاحشةٍ ومتناقضاتٍ متباينةٍ في الرَسْمِ والهجاء ... (لذلك) وقعَ في كتابةِ المصاحفِ اختلافٌ كبيرٌ في وضعَ الكلماتِ من حيثُ صناعة الكتابة ورسمها »[1].

هذا كلامُ الواقعِ والحقيقةِ، ولكنَّ النتيجةَ هي إنَّ اللهَ لا يُعجزُه حفظ كتابهِ العزيزِ سالمًا وسليماً من المتناقضاتِ والأخطاءِ والاختلافاتِ والعِوَج، وهو القائل : « إنّا له لحافظون » ، « لا اختلافَ فيه » و « لا عِوَج » . وظلَّ اللهُ يقاومُ الانحرافاتِ والتباياتِ التي أصابتْ مصحفَ عثمانِ حتى جاءَ بالحجّاجِ بن يوسف أشهر « دهاةِ التاريخِ العتاةِ الذين يستبيحون جميعَ المحرّماتِ في سبيل مآربهم »[2].

لقد قاوَمَ اللهُ حتى الآن ضعفَ النبيّ ووهَنَ ذاكرتِه، ومَنَعَ عنه حبائلَ الشيطانِ ودسائسَه، وحفظَ الصحابةَ من كلِ ميلٍ وهوى، وعصَمهم بقدرتهِ العاصمة، ودَفَعَ الخلفاءَ الراشدين لجمعِ شتاتِ المصاحفِ دفعاً، وأنار عقلَ عثمان بن عفّان ليختارَ من الحروفِ السبعةِ « أصحَّها » ، وألهَمَ زيداً بن ثابت اختيارَ مصحفِ حفصة من جملةِ مصاحفَ مختلفة، وجعلَ في قلوبِ أصحابِ المصاحفِ فضيلةَ القَبولِ والرضى، ووقفَ بوجهِ كلِ محاولةِ انشقاقٍ في الدين ... وظلَّ اللهُ يسيرُ بالقرآنِ بنجاحٍ حتى جاءَ بالحجّاج.

جاء الحجّاج بن يوسف فارتاحَ الله إليه. وارتاحَ المسلمون. وضُبِطَ القرآن. وأُعْجِمَتِ الحروف. وشُكِّلَتِ الكلمات. وأُثْبِتَتِ القواعدِ. واستَوتِ الكتابة. ورُكِّزَ الخطُّ والرسْمُ ... كلُ شيء مع الحجّاجِ أصبحَ مُسْتَوِيًا مُسْتَقِيمًا. وكلُ ما يمتُّ إلى القرآنِ بصلةٍ ضُبِطَتْ رسومُه وقوانينُه. فلن يعودَ بعدَ الآنِ مجالٌ لأيِّ اختلافٍ في كتابِ اللهِ العزيز. إنّ بعضَ الأمورِ، على ما يبدو، لن تستقيمَ بدونِ قوّةٍ وبطشٍ وسلطان. فكانَ الحَجّاج لها.

أمّا كيفَ وصلتْ حالُ القرآن إلى الحجّاجِ فهذا من أمورِ البحث. وكيف تدخّلَ الحجّاجُ ليضبطَ المخالفين ؟ فهذا أيضًا من عملِ رجالٍ عصاميِّين. واللهُ هو مسيِّر التاريخِ في كلِ حال. وهو لن تستعصيَ عليه حال، ولن يَتْرُكَ كتابَه لعبةً بأيدي العابثين.

---

[1] ابن الخطيب، الفرقان، ص ٥٧ ـ ٥٩.
[2] دائرة المعارف الإسلامية ٢ / ٢١٦.

إنّ معجزةَ اللهِ التي تمّتْ على يدِ الحجّاج لن تكونَ الأخيرةَ في عَالَمِ المعجزات. ولــن يسلمَ ما صحّحَه الحجّاجُ ببطشِه وسلطانِه من صعوباتٍ جديدةٍ وتصــحيفاتٍ كثيــرة. ولهــذا تعدّدتْ، بعدَ عصرِ الحجّاج، قراءاتُ القرآن، كما تعدّدتْ، من قَبْلُ، أحرُفُه، ومصاحِفُه. وأكثرُ هذه المفاسد حصلتْ في العراق، وذلك بسببِ وضعٍ سياسيٍّ خطير. فلننظر :

أولاً ــ الوضع السياسي

إنّ وصولَ عبدِ الملك بن مَروان على خلافةِ الأمويين سنة ٦٥ هــ / ٦٨٥ لهوَ حاسِمٌ في العالَم الإسلامي. ففكرةُ العصرِ الرئيسيةُ كانتْ آنذاك دَعْمَ السلطةِ المركزيةِ للحكم الأَمَوِي، وتوحيدَ قِوَى الإمبراطوريّةِ الإسلاميةِ الواسعة، وتحطيمَ كلِ مخالفٍ معاندٍ في الداخلِ. عندئــذٍ تكونُ ساعةُ الإصلاحِ مؤاتيةً حيثُ تُصبِحُ اللغةَ الرسميةَ للدولةِ الإسلامية، ويصــبحُ القــرآنُ مُوَحَّدًا مضبوطًا بحرفهِ ورَسْمِه وترتيبِه في جميعِ الأمصار.

وكانَ لعبدِ الملك شخصيّتانِ بارزتان : عُبيدُ اللهِ بنُ زياد (+ ٦٧ هــ) والحجّاجُ بنُ يوسفَ الثقفي (+ ٩٥). كان الأوّلُ حاكِمــاً على خَرَسَان وسَجِستَان وبلادِ مــا بين النهرين، و « يُنْسَبُ إليه أنّه أمَرَ رجلاً فارسيَ الأصلِ بإضافةِ الألف إلى أَلْفَي كلمة حذفتْ منها، فكــانَ هذا الكاتِبُ ينسخُ : (قَالَتْ) بدلاً من (قلَتْ)، و (كَانَتْ) بدلاً من (كنَتْ) »[١].

وكان الثاني، الحجّاجُ بن يوسف، وَالِيًا على الحجازِ بعدَ قضائِه على ثورةِ مصعب بنِ الزبير وأخيهِ عبد الله، ثمّ حاكِمًا على العراق المضطربِ بفتَنِ الخَوارِجِ والشيعةِ والساخطين، فأخمدَها وأرسلَ الجيوشَ التي فتحتْ بُخَارَى وبَلْخَ والسِــنْدَ وعُمَــانَ وســائرَ المقاطعــاتِ الإيرانية.[٢] و « كانَ يرى طاعةَ الخليفةِ فرضًا دينيًا، فأدّى به ذلكَ مع كثرةِ الفِتَنِ إلى القَســوةِ في سياستهِ، فَكَرِهَهُ الكثيرونَ وأَلصَقُوا باسمهِ القَصَصَ الكريهَة. وكان متعصِّبًا للعروبةِ، فَقَسَا على الموالي، وأحلَّ اللغةَ العربيةَ محلَّ غيرِها في الدواوين. ولمّا كثرَ الخطأُ في قِراءةِ القرآنِ عَهِدَ إلى نصرِ بن عاصم بضبطِهِ »[٣].

وخلالَ هذه الفِتَن، في الداخلِ والخارجِ، نشطَ كثيرٌ من القرّاءِ وانقسموا فيما بينهم، بين مناصِرٍ للثورة، ومناصرٍ للحجّاج، واختلفوا في نصوصِ القرآن وقراءاتِه وحروفهِ وإعرابهِ ... ومثالُ ذلك مالك بن أنس الذي انتصرَ لقرآنِ ابن مسعود وقــرآنِ أُبَــيّ بــن كعــب، وكــانَ الاضطهادُ عليه مِن قِبَلِ الحجّاج عنيفًا، وكذلك على الذين أحبَوا قرآنَي عليّ بن أبــي طالــب وأبي موسى الأشعري.

ومن همِّ الحجاجِ في اخمادِ الفِتَنِ ووحدَةِ المسلمين انتقلَ الحجّاجُ إلــى هــمِّ اصــلاحِ مِصحَفِ عثمان وتوحيدِ الكتاب؛ لأنَّ توحيدَ الكتابِ يجرُّ حتمًا إلى توحيدِ صفوفِ المســلمين،

---

[١] ابن أبي داوود، كتاب المصاحف، ص ١١٧، ونولدكه، ص ٢٥٥.
[٢] لامنس، الانسكلوبيديا الإسلامية، ٢ / ٢١٥.
[٣] الموسوعة العربية الميسّرة، بإشراف محمد شفيق الغربال، مادّة الحجّاج بن يوسف، ١ / ٦٩٠.

وهو الأمرُ الذي قامَ به القسُّ وَرَقَة بن نَوْفَل والنبيّ مُحمّد من قَبْل، ومن بعدِهِما عثمـــانُ بـــن عفّان، ثمّ الحجّاجُ بن يوسف، وهو على هذا المستوى، لوفرةِ ذكائِه وبطشِه وتعصّبِه.

ولئن كانتِ المهمّةُ صعبةً، وصعبةً جدّا، في تتبّع المصاحفِ العثمانيّةِ المنتشرةِ في كلِ مكانٍ بانتشارِ المنشقّينَ وأصحابِ البِدَعِ والفِرَقِ المتعدّدة، فانّ أهونَ الأمورِ كان، عندَ الحجّاج، ضبطَ مصحفِ عثمان واصلاحَه، فتزولُ، بذلك، سائرُ المصاحفِ، وتتوحّدُ الأمّةُ على قـــراءةً واحدة. وليسَ من وسيلةٍ أخرى[1].

[1] انظر الحيوان للجاحظ ٥ / ٦٥، نزهة ٢٠، القالي للأمالي ١ / ٨٦ .

ثَانياً ــ وضع المصاحف العثمانية

أمّا الحالة التي وصلَ إليها القرآنُ، حتى أيّامِ الحجّاج، فقد كانتْ تدعو إلى الفَشَل، فيها « كَثُرَتِ التصحيفاتُ وانتشرتْ في العراق »[1] « ووقَعَ في كتابةِ المصاحفِ اختلافٌ كبيرٌ في وضع الكلمات »[2]. وقد عبَّر عنها أحدُ المسلمين بـــ « تناقضاتٍ واضحةٍ فاضحة »[3]، وأعطى أمثلةً على ذلك « مِثْل تحريفِ صيغةِ التوكيدِ إلى صيغةِ النفي : لا أذبحنّه »[4]، ومثل نقــصِ الألف وزيادتِها بغيرِ مُوجب : « وعتو »[5] و « يدعوا حزبهِ »[6]، ومِثل زيادةِ أحرفٍ ونقصانِها في بعض الكلمات دونَ بعض : « من نباى المرسلين »[7]، وسبع سمــوات... سمـــوت »[8]، ومِثــل رسمِ التــاءِ مفتــوحة في بعضِ الكلمات دون بعض: « نعمت »[9] و « نعمة الله »[10]، »[10]، كذلك « سنّت الله »[11] و « سنّة الله »[12]، ومثل إبدالِ السين صاداً في بعض المواضع : « بسطة »[13] و « بصطة »[14]، ومثل حذفِ الألف من « قالَ » في بعض المواضع واثباتهــا في بعض[15].

« والناظر لهذا الاختلاف، الذي أوردنا بعضَه، يرى أن الرسْمَ القديمَ يقلــبُ معــاني الألفاظ، ويشوِّهُها تشويهًا شنيعاً، ويعكسُ معناها بدرجةٍ تُكَفِّرُ قارئيه وتحرّفُ معانيه. وفضــلاً عن هذا فانَّ فيه تناقضًا غريبًا، وتنافرًا مُعيباً، لا يمكنُ تعليلُه، ولا يُستطاع تأويله »[16].

« ولَحْنُ الكتّابِ في المصحفِ العثماني أدَّى إلى تحريفٍ في الكَلِمِ المنزّلِ : ذلك رأيُ عائشة في قولهِ : « إن هذان لساحران »[17]، « والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكوة »[18]، « إن

---

[1] وفيات الأعيان، ص ١٢٥.
[2] ابن الخطيب، الفرقان، ص ٥٧.
[3] نفس المرجع.
[4] سورة النمل ٢٧ / ٢١.
[5] سورة الفرقان ٢٥ / ٢١.
[6] سورة فاطر ٣٥ / ٦.
[7] سورة الانعام ٦ / ٣٤.
[8] سورة فصلت ٤١ / ١٢.
[9] سورة البقرة ٢ / ٢٣١.
[10] سورة المائدة ٥ / ٧.
[11] سورة فاطر ٣٥ / ٤٣.
[12] سورة الفتح ٤٨ / ٢٣.
[13] سورة النساء ٤ / ٨٢.
[14] سورة الأعراف ٧ / ٦٩.
[15] انظر : ٢٣ / ١١٢ و١١٤، ٢١ / ٥٢ و٥٤ و٥٦ و٦٣.
[16] ابن الخطيب، الفرقان ٧١ ـ ٨٢ الفصل كله، عن الحداد ١ / ٢٤٦.
[17] سورة طه ٢٠ / ٦٣.
[18] سورة النساء ٤ / ١٦٢.

الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون »[1] قالت : « هذا مِنْ عَمَلِ الكُتَّابِ أخطأوا في الكتاب » .

.

« ورأي سَعيد بن جُبير قال : « في القرآنِ أربعةُ أحرفِ لَحْنٍ ... وقد قرأَها مستقيمةً بعضُ القراء، مثلِ أبي عمرو ويعقوب. وسُئِلَ أبَّانُ بن عثمان عن « المقيمين » وما بين يديها وما خلفها رَفْعٌ وهي نصبٌ ؟ قال : « مِنْ قِبَلِ الكَاتِب » .

« وكان ابنُ عَباس يُبَدِّلُ القراءةَ المشهورةَ بقراءتِه : « حتّى تستأنسوا وتسلموا »[2] و « أفلم يتبيّنِ الذينَ آمنوا »[3] و « وصّى ربُّك »[4] بدلاً من « حتى تستأذنوا، أفلم ييأس، وقضَى وقضَى ربّك » ، ويقول : « انّمـــا هي مِنْ خَطَأِ الكاتبِ قد كَتَبَهـــا وهو نَاعِسٌ » . وكان يَقرأ « مثلُ نورِ المؤمن كمشكاةٍ » بدلاً من « مثل نورِه » ، ويقولُ هي خطأٌ مِنَ الكَاتِـــب، وهـــو تَعالى أعظم من أن يكون نورُه مثلَ نورِ المشكاة » . ختَم بقوله : « ومما لا شكّ فيهِ أن كتابَ المصاحفِ من البشر يجوزُ عليهم ما يجوزُ على سائِرهم مـــن السَـــهْو والغَفْلَـــةِ والنِســـيان، والعصمةُ للهِ وحدَه. وقد اختلفوا في عصمةِ الأنبياء. والقولُ الراجح إنهم معصـــومون فيمـــا يتعلّقُ برسالاتهم فقط، أمّا ما عداها فشأنُهم كشأنِ بقيّةِ البشر »[5].

هذه صورةٌ عمّا يمكِنُ تصوّره. ومَن أرادَ المزيدَ من هذه الصورة فليرجِع، مثلاً، إلى كتاب « حجّةِ القراءاتْ » للإمامِ أبي زرعة بن زنجلة، وفيه أكثر من ٧٠٠ صفحة في تعـــدّد القراءات والاختلافات فيها[6].

أمّا السيوطي فيحصرُ أخطاءَ مصحفِ عثمان في « ستةِ قواعد : الحذف، والزيـــادة، والهمز، والبدل، والفصْل، والوصلُ، ويعطينا أمثلةً ضافيةً عن كلِ قاعدة، يبيّنُ فيها مـــا فـــي المصحفِ العثماني من كلماتٍ كُتِبَتْ بأشكالٍ متعدّدة، خلافًا لما هو في اللغة العربيّة[7].

وكذلك الحجّاجُ بن يوسف رَفَعَ، في اثني عَشَر موضِعًا، كلماتٍ قرأَها الصحابةُ بَـــدَلَ كلمات، مثل : « إيمانِهما » بدل « أيديهما »[8]، و « لا تُجزَى نسمةٌ عن نســـمة » بـــدل « لا تُجزى نفسٌ عن نفس »[9]، و « صَفراء لذّة للشاربين » بدل « بيضاء لذة للشـــاربين »[1]، و «

---

[1] سورة المائدة ٥ / ٦٩.
[2] سورة النور ٢٤ / ٢٧.
[3] سورة الرعد ١٣ / ٣١.
[4] سورة الإسراء ١٧ / ٢٣.
[5] ابن الخطيب، الفرقان ٤١ ـ ٤٥ الفصل كلّه، عن الحدّاد ١ / ٢٤٦.
[6] حجة القراءات، للإمام أبي زرعة بن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣ ، سنة ١٩٧٩.
[7] السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ٢ / ١٦٦ ـ ١٧٣.
[8] سورة المائدة ٥ / ٣٨.
[9] سورة البقرة ٢ / ٤٨.

ادراس وادراسين » بدل « الياس والياسين »[٢]، و « جاءت سكرةُ الحق بـــالموتِ » بـــدل « وجاءتْ سكرةُ الموتِ بالحقّ »[٣]، و « صراط مَن أنعمتَ عليهم » بدل « صراط الذين أنعمتَ عليهم »[٤]، و « الحيُّ القيّام » بـــدل « الحيّ القيّوم »[٥]، و « للـــذين يقسمون » بـــدل « للذين يؤلون »[٦]، و « اركعي واسجدي مع الساجدين » بدل « واسجدي واركعي مع الراكعين »[٧]، و « مثقالُ نملة » بدل « مثقال ذرّة »[٨]، و « تزوّدَا وخيرُ الـــزادِ التقوى » بدل « وتـــزوّدوا فإنَ خيرَ الـــزاد التقوى »[٩]، وأخيرًا « وشاورِهم في بعضِ الأمر » بدل « وشـــاورهم فـــي الأمر »[١٠].

وهكذا ترى، بعد جمع عثمان للمصاحف وتوحيدها في مصحفٍ واحدٍ، كيفَ وقعـــتِ الأخطاءُ والمتناقِضاتُ أحيانًا، رغم حرصِ المسلمين على سلامةِ النصِّ والحرف. وأنتَ ترى أيضًا كيفَ كانتِ الحالُ قبلَ عثمان ولماذا قرّر عثمانُ توحيدَ المصاحف، ولماذا قال : « أَجِـــدُ فيهِ (في القرآن) ملاحِنَ وستُصلِحُها العرب »[١١]، ولماذا تدخّلَ الحجّاج بسلطانهِ فتجرّأ علـــى إتلافِ المصاحفِ العثمانية، حتى لم يبقَ منها إلى اليوم مصحف ...

---

[١] سورة الصافات ٣٧ / ٤٦.
[٢] سورة الصافات ٣٧ / ١٢٣.
[٣] سورة ق ٥٠ / ١٩.
[٤] الفاتحة ١ / ٧.
[٥] سورة آل عمران ٣ / ٢.
[٦] سورة البقرة ٢ / ٢٢٦.
[٧] سورة آل عمران ٣ / ٤٣.
[٨] سورة النساء ٤ / ٤٠.
[٩] سورة البقرة ٢ / ١٩٧.
[١٠] سورة آل عمران ٣ / ١٥٩.
[١١] ابن أبي داوود، كتاب المصاحف، ص ٣٢.

ثَالثاً ــ ضبط المصاحف العثمانية

بسبب هذا الوضعِ السيّئِ للمصاحفِ العثمانيّة وسوءِ تلاوتِها، تَدَخَّلَ الحَجّاجُ فأصلحَ ما أمكنه اصلاحُه، وأتلفَ ما أمكنه اتلافهُ، ولمسَ الجميعُ مع الحَجّاجِ فسادَ القراءات، فطلبَ زيادُ بن سميّة والي البصرة من أبي الأسود الدؤَلي النحويّ الشهير أن يضعَ طريقةً لإصلاحِ الألْسنة، وقالَ له : « إنّ هذه الحَمْرَاءَ قد كَثُرَتْ وأَفْسَدَتْ من ألسنةِ العرب، فلو وضعتَ شيئًا يُصلِحُ به الناسُ كلامَهم ويُعربُون بهِ كتابَ الله » .

« فأَبَى أبو الأسود أولاً لبعضِ أسبابٍ كان يراها. فأمَر زيادُ رجلاً أن يَقْعُدَ في طريقِ أبي الأسود، فلمّا قاربَه رفعَ صوتَه بالقراءةِ كأنّه يقصُدُ إسماعَ أبي الأسود، وقرأَ : « إنَّ اللهَ بريءٌ مِنَ المشركين ورسولِهِ » ، بِكَسْرِ اللام. فأعظمَ ذلك أبو الأسود وقال : « عزَّ وجهُ اللهِ أَنْ يبرأَ مِن رسولِهِ » . ثمّ رجَعَ من حينهِ إلى زياد، وقالَ له : « قد أَجَبْتُكَ إلى ما سألْتَ، ورأيتُ أن أَبْدَأَ بإعرابِ القرآن » . فكانَ ذلك[1].

ولكن، رغم هذه الرواية، يختلفُ الناسُ فيمنْ بدأَ بضبطِ المصحف،أَهوَ أبو الأسود الدؤلي أم الحسنُ البصرى أم يحيى بن يعمر، أم نصرُ بن عاصم الليثي[2]؟ اللهُ أعلم. وفي كلِ حال، جَرى الإصلاحُ، وقَام على وَضعِ النقَطِ فوقَ الحروفِ المتشابهة، والشكلِ فوقَ الحروفِ لتعيينِ مواقِع الكلمات، ووضعِ الهمزِ والتشديدِ والروم والاشمامِ، ورسْمِ الخطِ وحروفِ العلّة ... وغيرِ ذلك.

ومع هذا بقيَ في القرآنِ كلماتٌ لم يُجْرَ عليها الإصلاح، في حين أنَّ كلماتٍ أُصلِحَتْ في مكانٍ وَبقيتْ كما هي في مكانٍ آخر. فتجدُ مثلا كافرون وكفرون، وأنهار وأنهر، وأطيعونِ وأطيعوني، وسموات وسموت؛ ويُعَدُّ هذا الشذوذُ بالآلاف. لعلّ التصحيحَ توقّفَ في منتصفِ الطريق ؟ أو لعلّ في القرآنِ لغَتَين : حجازية ونجدية ؟ أو لعلّ قدسيّةَ الحرف أوقفتْ حماسةَ المصلحين! والمعروفُ عن ابنِ مسعود قولُه : « جرِّدوا القرآنَ ولا تَخلِطوه بشيء »[3].

وخشية المسلمين زيادة شيءٍ على القرآن، اعتمدَ المصلحون على استعمال الألوان : فكانَ « الحركاتُ والتنوينُ والتشديدُ والسكونُ والمدُّ بالحمرةِ، والهمزاتُ بالصفرة »[4]. وأمّا

---

[1] الزركشي، البرهان ١ / ٢٥٠ ـ ٢٥١، الزنجاني، تاريخ القرآن ٨٧ ..

[2] السيوطي ٢ / ١٧١. انظر في سيرة هؤلاء الرجال : وفيات الأعيان ٢ / ٢٢٦، وغاية النهاية ٣٨١، وسير النبلاء ٤ / ٢٥١ وغيرها ...

[3] انظر السيوطي، ٢ / ١٧١.

[4] نفس المرجع.

الشكلُ فكان نقَطــاً : فالفتحةُ نقطة على أوّلِ الحرف، والضمّةُ على آخِــرِهِ، والكسرةُ تحــت أوّلِه »[1]. وعندما جاء الخليل (+ ٧٨٦) جعلَ « الفتحَ شكلةً مستطيلةً فوق الحرف، والكســرَ كذلك تحتَه، والضمَّ واو صُغرى فوقَه، والتنوينُ زيادة مثلها »[2].

ومن ناحيةِ السُوَر، لم يكنْ يفصِل بين سورةٍ وســورةٍ إلا فســحةُ بيضــاء أو دائــرةٌ مزركشة، دونَ عنوانٍ لها[3]. ولكن، في المخطوطاتِ الكوفيّة، أصبحَ عنوانُ السورةِ في الدائرة. وهو، كما يبدو، مضافٌ إليها فيما بعد. وقد أخرجَ ابن أبي داوود عن النخعي إنّه كانَ يكرَهُ أن يَكتبَ في المصحفِ سورَة كذا وكذا. وكذلك الحليمي يكرهُ كتابَة أسماءِ السُوَرِ وعددِ الآيــاتِ وكتابةَ الأعشارِ والأخماسِ والفَواتِحِ والخواتِم[4] ...

ويبدو أيضًا أنّ المصاحفَ الحجازية لا تتضمّنُ أرقامَ الآيات، مثل مخطوطِ المكتبــةِ الوطنية بباريس رقم ٣٢٨، في حين تتضمّنها أرقام ٣٢٦ و ٣٢٤. وفي البدءِ كان يفصلُ بينَ الآيةِ والآيةِ خطٌّ منحرف، وفيما بعد فصلتْ بزخرفةٍ على شكلِ زهرة، وكانتْ غالبَ الأحيــانِ مذهّبةً. كما كان يوضَعُ بين أوراقِ المصحفِ أوراقٌ من زهرِ الورد، اذ « يُســتَحبّ تطبيــبُ المصحف »[5].

هذا التجديدُ في المصحفِ، بإضافةِ عناوين السورِ وعددِ الآياتِ ووضــعِ الحركــاتِ والنقطِ وتقسيمِ القرآنِ إلى أجزاء وأعشار وأخماس وأحزاب وغير ذلك، كان مدارَ جدالٍ طويلٍ في الإسلام حتى أواخرِ الجيلِ الثالث للهجرة / بدايةِ الجيلِ العاشر للميلاد. وكان الجدالُ يدور حولَ شرعيّتِها، وكانتِ السلطاتُ السياسية تحزمُ بالأمرِ وتجــزم. واختلــفَ المحــدّثون فــي شرعيّتها. وصوابيتِها، كما هم مختلفون حتى اليوم بشرعيّةِ طباعةِ المصاحفِ بخطِّ المطــابع دونِ الرسْم العثماني.

ففي نَظَرِ بعضِهم، كالزرقاني وابن المبارك وعبدِ العزيز الدباغ وغيرهم، أنّ الرســمَ العثماني أَمْرٌ الهيٌّ وسِرٌ ربّاني. « وما للصحابةِ، ولا لغيرهم في رســمِ القــرآنِ ولا شــعرةٌ واحدة، وانما هو توقيفٌ من النبيّ، وهو الذي أمَرَهم أن يكتبوه علــى الهيئــةِ المعروفــة ...

---

[1] نفس المرجع.
[2] نفس المرجع.
[3] ابن أبي داوود، كتاب المصاحف، ص ١٥٨.
[4] السيوطي، الاتقان ٢ / ١٧١، الأعشار والأخماس تقسيم الآيات ١٠ و ٥.
[5] نفس المرجع ٢ / ١٧٢، انظر المحكم، ص ١٥.

لأسرارٍ لا تهتدي إليها العقول؛ وهو سرٌّ من الأسرارِ خَصَّ اللهُ بهِ كتابَه العزيــز دونَ ســائرِ الكتب السماوية. فكمــا أنّ نَظْمَ القرآنِ مُعجَز فرسْمُه أيضًا معجز »[1].

وللرسمِ العثمــاني في نفسِ الإمام أحمد بن حنبل قدسية لا مجــالَ للشكِّ فيهــا، وهو « يحرِّم مخالفةَ خطِّ مصحفِ عثمان في واو أو ألف أو ياء أو غير ذلك »[2]. وعنــدما ســئِل الإمامُ تغيير الرسمِ العثماني أجاب « لا أرى ذلك. ولكن يُكتَبُ على الكَتْبَةِ الأولى »[3]، وقــال البيهقي : « مَنْ يَكتب مصحفًا فينبغي أن يحافِظَ على الهِجاءِ الذي كَتبوا به تلكَ المصــاحف، ولا يخالِفُهم فيه، ولا يُغيِّر مما كتبوه شيئًا، فانّهم كانوا أكثرَ عِلمًا وأصدَقَ قلبًا ولسانًا وأعظــمَ أمانةً منّا »[4].

أمّا القاضي أبي بكر الباقلاني فهو يجيز تغييرَ الرسمِ العثمــاني دون خــوفٍ علــى قدسيّته. ولكنّ الزرقاني ردَّ عليه واستشهدَ في دحضِ آرائه بجمهرة من العلماء[5].

وفي رأيِ المسلمين اليوم بعضُ الشَفَقَةِ على العامّةِ من الناسِ الذين « لا يستطيعون أن يقرؤوا القرآنَ في رَسْمِهِ القديم، فيحسن، بل يجب، أن يُكتب لهم بالاصطلاحاتِ الشائعةِ فــي عصرهم » . ولكنّهم، مع هذه الشفقة ألا يستطيعونَ التخلّصَ من قدسيةِ الرسم العثماني، لهــذا فَهُمْ لا يُبيحون إلغاءَه بهذهِ السهولة، لأنّ في إلغائِه تشويهًا لرمزٍ دينيٍّ عظيم، اجتمعتْ عليــه الكلمة، واعتصمتْ به الأمّة من الشقاق »[6].

---

[1] الزرقاني، مناهل العرفان ١ / ٣٧٠.
[2] السيوطي، الاتقان ٢ / ١٦٧.
[3] نفس المرجع، المقنع ١٠ .
[4] السيوطي، ٢ / ١٦٧.
[5] الزرقاني ١ / ٣٧٣ ـ ٨ ...
[6] الصالح، ص ٢٨٠.

رَابعاً ــ رخصة القراءات

قَضى الحَجّاج، وفي ظنِّه أنَّ كلَّ خلافٍ حولَ المصحف قد حُلَّ من جذوره. ولكنَّ الناسَ، بعد موتهِ، عادوا إلى ما كانوا عليه من خلافات. والخلافُ، الآن، يقوم على قراءةِ مصحفِ الحَجّاجِ نفسه، أي على كيفيّةِ قراءته. وكانَ كلُ قارئ يقرأُ القرآنَ بحسبِ ما نشأ عليه، لا بحسب ما جَرى الاصطلاح فيه أو الإصلاح عليه.

« وتدور هذه الخلافيات على الأغلب في النطاق التالي :

١ ــ مخارج الحروف، كالترقيق والتفخيمِ والمَيلِ إلى الخارج المجاورَةِ، كنطق الصراطِ بإمالَةِ الصَاد إلى الزاي.

٢ ــ والاداء، كالمدِّ والقصرِ والوقفِ والوصلِ والتسكينِ والإمالَة والأشْمَام.

٣ ــ والرسم، كالتشديدِ والتخفيفِ، مثل « يُغشَى يُغَشّى » ، و « فُتِحَت وفُتِّحَت » ، والإدغام والإظهار، مثل « تَذَكَّرون وتتذكرون » . والهمز ومدّ الألف، مثل « ملْكِ ومالك » ، و « مَسْجد ومساجد » ، لتحمّل الرسم النطقين.

٤ ــ والتنقيط والحركات النحوية، مثل « يفعلون وتفعلون » ، و« أرجَلكم وأرجلِكم » ، مثلا »[١].

أمّا الشروط التي حدّد بها المسلمون صحّة القراءة، منعًا لتفاقمِ الخلاف، فأربعةٌ : التواترُ، وموافقةُ قواعدِ اللغةِ العربية، ورسمُ المصحفَ العثماني، وصحّةُ سَنَدِ القراءةِ إلى أحدِ قرّاءِ الصحابة.

ورأى المسلمون تبريرًا من النبيّ نفسِه لهذه الاختلافات، فقال الإمامُ الطحاوي والقاضي الباقلاني وأبو عمر بن البر وغيرُهم من أئمّة الكلام : « إن القراءاتِ جميعَها كانتْ رُخْصَةً في أوّلِ الأمرِ، لتعسّرِ القراءةِ بلغةِ قريش على كثيرٍ من الناس ... »[٢].

وقال ابن قتيبة : « إن مِن تيسيرِ الله أَنْ أَمَرَ نبيَّه أن يُقرِئَ كلَ قومٍ بلغتهم »[٣]. وكذلك هو رأي الطبري الذي جوّز لعثمانِ بن عفّان جمعَ الناسِ على حرفٍ واحد من الأحرف السبعة، كما رأينا.

---

[١] محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ١٣٦.
[٢] دروزة، ص ١٣٩، عن ابن الخطيب، الفرقان، ص ١٦٧.
[٣] نفس المرجع.

ورأى المسلمون أيضا للنبيّ تبريرًا من عندهم فقال ابن قتيبة : « ولو أنّ كلّ فريقٍ من هؤلاء أمرَ أن يزولَ عن لغتهِ وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئًا وكهلاً لأشتدَّ ذلك عليه، وعظمتِ المحنةُ فيه، ولم يمكنْه، إلاّ بعد رياضةٍ النفسِ طويلة، وتذليلِ للسان، وقطعِ العادة »[1].

أمّا القراءات فهي تختلف من حيثُ انتماء أصحابِها إلى العواصمِ الإسلاميّة الكبرى، كما تختلفُ من حيثُ عددها، فمنهم من قال بسبعِ قراءات، ومنهم بعشرٍ، ومنهم بأربعَ عشرة.

وشيخ القرّاء في المدينة كان « نافع المدني » (+ ١٦٩ هـ)، وفي مكّة « ابن كثير » (+ ١٢٠ هـ)، وفي البصرة « زبان بن العلاء المازني » (+ ١٥٤ هـ)، وفي الشام « ابن عامر الدمشقي » (+ ١١٨ هـ)، وفي الكوفة « عاصم بن أبي النجود » (+ ١٢٧ هـ)، وهكذا إلى آخرهم، كما هو معروف في الكتب. ومن أرادَ معرفتهم بالتفصيلِ فليقرأ مثلاً كتابَ « حجّة القراءات » للإمام أبي زرعة بن زنجلة[2] ... ومن المعروف أيضًا أنّه كان لكلِ قارئ تلاميذ، أخذوا عنه طريقتَه في التلاوةِ والأداءِ والتجويد.

« هذا غير قراءات أخرى لا عدادَ لها سمّيت « شاذّة » ، لشذوذها عن اللغة، وعمّا أجمعَ عليه المسلمون، ولتغييرها للألفاظِ والمعاني في كثيرٍ من المواضعِ. وقد بلغَ من هذه القراءاتِ والاختلافاتِ انّ الآيةَ الواحدةَ، التي لا يَختلِفُ في النطقِ بها ولا في معناها اثنان، قد يَبلغُ الاختلافُ في روايتِها إلى عشرينَ أو ثلاثينَ أو أكثر من ذلك. وقد بلغتْ هذه الطرق تسعماية وثمانين طريقًا للقراءاتِ العشر فقط »[3].

[المتشابه]

ولم يقتصرِ الخلافُ في القراءاتِ وحسب، بل تعدّاها إلى معنى الآياتِ وكيفيّةِ فهمِها. ومن هذا القبيل قالوا بـ« المُحْكَم والمُتَشَابهِ » في القرآن. وهذا يعتمدُ على ما جاء في الكتاب:

---

[1] تأويل مشكل القرآن، ص ٢٧، النشر في القراءات العشر ١ / ٢١، ابراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ١٢٣.

[2] انظر : صفحة ٥١ ـ ٧٣ حيث تجد سيرة كل قارئ مع تلاميذه.

[3] انظر : الحداد، القرآن والكتاب ١ / ٢٥١، عن الفرقان لابن الخطيب.

« هــو الذي أنزلَ عليك الكتــاب، منه آياتٌ مُحْكَمــَات هُنَّ أمُّ الكتاب، وأُخَر مُتَشَابِهَات »[1]. وقامَ مِن بين المسلمين مَن قال : « إن القرآنَ كلُّه مُحكم، لقولهِ تعالى : كتابَ أحكمت آياته » . ومَن قال : « كلُّه متشابه، لقولهِ تعالى : كتاباً مُتَشَابهاً مثاني »[2].

وتحديدُ « المُحكَمِ » هو « ما عُرِفَ المُرادُ منه » ، أو « هو الذي يَدلُّ علــى معنــاه بوضوحٍ لا خفاء فيه » ، أو أيضــاً « ما لا يَحْتَمِل من التأويلِ الاّ وجهًــا واحداً » . وتحديدُ « المتشابِه » هو « ما استأثرَ اللهُ بعلمهِ، كقيامِ الساعة وخروجِ الدجّالِ والحروفِ المقطعة في أوائل السور » ، أو « هو الذي يخلو من الدلالةِ الراجحةِ على معناه » ، أو أيضًــا « مــا لا يُدْرَك الاّ بالتأويل »[3].

واختلفَ المسلمون فيمَنْ يعرفُ المتشابِه : أهوَ اللهُ وحدَه، من قولهِ تعالى : « لا يعلــمُ تأويلَه الاّ الله » ؛ أم يعلمُه أيضًا « الراسخون في العلم ؟ » والواقع إن أمورًا متشابِهةً يعرفُها اللهُ وحده، وأموراً يعرِفُها العلماءُ الذين يعتمدون على الاجتهادِ والتأويلِ. وما لا يعلمُه العلماءُ مثلاً، علمَ الساعةِ واليومِ الأخير وذاتِ الله وخروجِ الدابّة وعلمَ مــا فــي الأرحــامِ ومعرفــةِ المستقبل وساعةِ الموت[4] ... كلّها منوطٌ باللهِ وحدَه.

أمّا ما يمكن للعلماءِ معرفتُه فقد اختلفوا فيه : اختلفوا في صفاتِ الله التي تشبّه ذاتَ اللهِ بالبَشر، كقوله : « الرحمٰن على العرشِ استوى »[5]، و « يبقى وجهُ ربِّك »[6]، و « يدُ اللهِ فوقَ أيديهم »[7]، وغيرها. فمنهم مَن آمنَ بها كمــا هي وفَوَّضَ معرفتَهــا إلى اللهِ، كقولِ الإمــــام مالك عن الاســتواء في آية « الرحمن على العرش استوى » ، فقال : « الاســتواءُ معلــوم، والكيفُ مجهول، والسؤالُ عنه بدعة، وأظنَّك رجلَ سواءٍ. أَخرِجوه عنّي »[8].

ومنهم من ذهبَ في تأويلِها حتى يليقَ معناها بذاتِ الله، ففسّروا مــثلا « الاســتواء » بالعلوِ المعنوي بالتدبير من غير معاناة »[9]، و « الوجه » هو ذات الله[10]، و « اليد » قدرتَه[11].

---

[1] سورة آل عمران ٣ / ٧.
[2] انظر السيوطي، ٢ / ٢.
[3] نفس المرجع.
[4] انظر سورة لقمان ٣١ / ٣٤.
[5] سورة طه ٢٠ / ٥.
[6] سورة الرحمن ٥٥ / ٢٧.
[7] سورة الفتح ٤٨ / ١٠.
[8] السيوطي، الاتقان ٢ / ٦.
[9] نفس المرجع ٢ / ٧، البرهان ٢ / ٨٠ ـ ٨٢.
[10] نفس المرجع ٢ / ٧، البرهان ٢ / ٨٢.

قدرتَه[1]. واختلفَ هؤلاءِ في التأويل بعضُهم ببعض، ونشأَ عن خلافِهم الفِـرَقُ فـي الإسـلام، فكانتِ الجَهْمِيَّةُ والجَبرِيَّةُ والقدرِيةُ والمعتزلةُ والصفاتِية وعلماءُ الكلام وغيرُهم ...

إلاّ أنّ مسلمي اليوم يرون في وجودِ المتشابهِ حكمةً ما بعدها حكمة، فيقـولُ الشـيخ صبحي الصالح مثلا : « لعلَّ اشتمالَ القرآنِ على المتشابهِ وعدمِ اقتصارهِ على المُحْكَمِ وحدَه، أن يكونَ حافِزًا للمؤمنين على الاشتغالِ بالعلومِ الكثيرةِ التـي تُقَـدِّرهم علـى فَهْـمِ الآيـاتِ المتشابِهات، فيَتَخلَّصونَ من ظلمةِ التقليدِ، ويقرؤونَ القرآنَ متدبِرينَ خَاشِعين »[2].

[الاقحام]

وقامَ أيضاً من بين المسلمين من يتعرّضُ للقرآنِ، بعدَ إصـلاحه وجمعـهِ وضـبطهِ، ويعبّرون عن مواقِفِهم بتعابيرَ مثل : التحريفِ والتصـحيفِ والتبـديلِ والإقحـامِ والزيـادة والنقصان ... وغيرها. فكان منهم مَنْ قَبِلَ بالقرآن على وجوهه، ومنهم مَنْ رَفَضَ منه كثيرًا من السور والآياتِ.

فالمعتزلة، التي ترى في اللهِ الصلاحِ المطلق، ترفضُ أن يكونَ فـي القـرآنِ شـتائمَ ولعنات، كما هو الحال في عَدَاوة النبيّ محمّد وأبي لهب وامرأتِه حمّالةِ الحطب، والوليدِ، وأبي جهل، وغيرهم[3]. فهذه الشتائم لا تليقُ بالوحي بحالٍ من الأحوالِ، فرفضها المعتزلة، وقالوا بأنّ بأنّ إضافاتٍ بشريّةً حدثتْ في القرآن[4].

والعَجَارِدَةُ أنكرتْ أن تكونَ سورةُ يوسف من القرآن، وتقولُ بأنّها في حقيقتها قصّـةٌ غراميّةٌ لا تليقُ بالوحي، ولا يُعْقَلُ أن تكونَ من صلبِ القرآن[5]. فهي بالتالي إضـافةٌ بشـريّةٌ على كلامِ الله.

والعُبَادِية يشتكون من عثمانِ ويتّهمونَه بتصحيفِ القرآن وتحريفِه من أجـلِ غايـاتٍ سياسيّةٍ معروفة[6]. وكذلك بعضُ شيعةِ عليّ وقد كانوا أكثرَ تهجّماً على القرآن، واتّهموا عثمانَ

---

[1] الاتقان ٢ / ٧ و ٨.
[2] الشيخ صبحي الصالح، مباحث ... ص ٢٨٦، عن البرهان ٢ / ٧٥.
[3] Goldziher, Dogme, p. 163.
[4] Nöldeke, Geschichte des Qorans, II, 94.
[5] انظر الشهرستاني، الملل والنحل ٩٥، Goldz., Dogme, 162
[6] Massignon, Hallaj, 242 et n° 7.

عثمانَ بحذفِ كلِ ما يمتّ إلى عليٍّ بنِ أبي طالبِ بصلة، وأوجدوا لذلك لفظةَ « تبـديلٍ فـي القرآن »[1].

ربّما يكونُ انتقادُ الفِرَقِ لمصحفِ عثمان وإصلاحِ الحَجّاجُ مُغرِضًا، لمآربَ سياسـيةٍ ومصالحَ شخصيةٍ، ولكنَّ النَقْدَ الصحيحَ لا بدّ له أن ينظرَ في الأسسِ التاريخية التي، بالكشفِ عنها، قد تكونُ جارِحَةً في حق كلامِ الله، ولكن لا بدّ منها لأجلِ حقِّ الله :

من حقِّ اللهِ أن يسألَ عن تبديلِ الآياتِ الذي جرى في السُوَر : فلماذا وُضعتْ آية ٦١ في سورة ٢٤ في الموضع الذي هي فيه، فيما هي في السورة ٤٨ آية ١٧ في مكان آخـر ؟ ويبدو أن هذه الأخيرة هي الأصح! ولماذا آية ٤ في سورة ٧٠، وهي بدون نظم ولا قافية، بل لكأنّها تفسير للآية السابقة! وكذلك آية ٣٨ في سورة ٤٢ فهي اقحام على النصّ زادها عثمان لتبريرِ خلافته على حسابِ عليّ[2]. وكذلك ٣ / ١٤٤ فهي أيضًا مقحمة، لا محرّفة فقـط كمـا يدّعي « دى ساسي » و « ويل » .

ثمّ لئن كانتْ سورةُ « النـورَين » شيعيّةً لا يُعْتَدُّ بأَصَالَتِهـا، فإنّ سورتَي « الحَفْدِ » و « الخَلْعِ » ، الواردتين في مصحَفَي أُبَيّ بن كعـب وابـن مسـعود لا يُظَـنُّ بزيادتِهمـا، وأصحابُهما من خِيرةِ القرّاءِ من الصحابة! ثمّ إنَّ آيةَ الرجمِ، وقد أكَّدَها عمر وحدَه، هل يؤخَذُ بها، والشاهدُ عليها رجلٌ واحدٌ، فيما اتّفق المسلمون على إثباتِ الآيةِ من جملةِ شهود! الخ ...

الحقيقة إن مصحفَ الحَجّاج لم يَسْلَم من التِهَمِ والرَفض. فاختلافُ المسلمين فيه خيـرُ دليل. وما إيجادُ نظريّاتٍ، مثل « تعدّدِ القراءات » ، والتمييز بين « المُحْكَـمِ والمتشَـابِه » ، وبين « الناسِخ والمنسوخِ » ، ورفضِ بعض السُوَرِ والآيات ... إلاّ تبريرٌ لِمَا لم يُفْلِـحْ فيـه الحَجاج. ولئن بقي القرآنُ كتابَ إيمانٍ لا يَمَسُّهُ الاّ المطهَرون، فانّه سيظلّ عنـد المـؤرّخين موضوعَ بحثٍ يحقُّ لأيٍّ باحثٍ قَلِقِ التثبتَ من أساساتِه.

[1] Nöldeke, G. d. Q. II, 94 …
[2] Casanova, Mohammed et la fin du monde, p. 151.

خاتمة الفصل

لنا على إصلاحات الحجّاج بعضُ الملاحظات : لماذا أتلفَ مروان بنُ عبد الملك مصحفَ حفصة ؟ أَلِـ « خشيةِ أن يكونَ فيها ما ليسَ في المصحف العثماني ؟ »[1]. ولماذا لم يبقَ بين أيدينا اليومَ أيّةُ نُسخةٍ من مصحف عثمان ؟ وهذا ما يقوله المسلمون أنفسهم : « إن الباحثَ ليتساءل : أينَ أَصبحتِ المصاحفُ العثمانية الآن ؟ ولن يَظفِرَ بجوابٍ شافٍ على هذا السؤال »[2].

وهناك روايةٌ تقول « بأنَّ المصحفَ المتداول انّما هو مصحفُ الحَجاج وجمعُه وترتيبُه ... وأن الحَجاجَ قد جمعَ المصاحفَ المتداولةَ ومصاحفَ عثمان وأبادَها »[3]، وهي نظريةُ كازانوفا الذي « جعلَ الحَجّاج بن يوسف الثقفي أوّلَ جامعٍ للقرآن »[4]. وردَّ الشيخُ صبحي بقوله : « إن كازانوفا لا يتورّعُ عن المجازفةِ بإلقاءِ حكمٍ صبيانيٍ لا يوافقُه عليه عاقِل بين الناس »[5].

لا يعنينا هذا الخلاف كثيرًا بقدر ما يعنينا التساؤل: لماذا أتلفَ الحَجاجُ النسَخَ العثمانية ؟ لو كانَ مصحفُ الحَجاج موافِقًا لمصحفِ عثمان لَمَا تجرّأ الحَجاجُ على ذلك. وفي الاتلافِ صعوباتٌ جمّة، إنْ لجهةِ قدسيّةِ المصاحف، وإنْ لجهةِ ندرةِ الورَق و « الرِقاع » ، وإنْ لجهةِ انتشارِ المصاحف في البلادِ الإسلامية ... فلو لم يكنْ تَعَادُلٌ بين صعوباتِ الإتلافِ من جهة، وأهميّةِ الأسباب الداعيةِ إلى ذلك من جهةٍ ثانية، لَمَا أقدمَ الحَجَاجُ على مِثلِ هذا العملِ بحالٍ من الأحوال.

هل إتلافُ الحجاجِ كانَ بسببِ ضبطِ مصحفِ عثمان وحسب ؟ أي هل كانتْ عمليّةُ الإعرابِ والإعجامِ هي الداعيةُ لهذا الإصلاح فقط ؟ ليسَ الأمرُ كما يبدو! بل هناكَ سببٌ جوهريٌ، هو اختلافُ المصاحفِ بعضِها على بعض. والخلافُ كان واضِحًا جدّا، بل هو « تَناقضاتٌ واضِحةٌ فاضِحة »[6].

---

[1] انظر بلاشير، مقدمة القرآن (بالفرنسية)، ص ٧٠.
[2] الشيخ صبحي، مباحث ... ، ص ٨٧، دروزة القرآن المجيد، ٨٣.
[3] محمد عزّة دروزة، القرآن المجيد، ص ٨٣.
[4] كازانوفا، المرجع المذكور (بالفرنسية)، ص ١٢٧.
[5] الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٨٨.
[6] ابن الخطيب، الفرقان، ص ٧١.

وهناك أكثرُ من خلاف وتناقضات : هناك « آياتُ المائدة ويوسف والزخرف والحديد لم يقرأْ بها أحدٌ من القرّاء، بل القراءةُ المشهورة هي كما غيّرَها الحجّاج »[1]. ليس الخلافُ اذن وَقْفاً على بعضِ كلمات بل هو أبعدُ من ذلك، هو الآنَ في مجالِ صحّةِ وجودِ بعضِ الآيات وبعضِ السور.

وأخيرًا، كيف صحَّحَ الحَجَاجُ مصحفَ عثمان، واقتضى لتصحيحِه اتلافُه ؟ ثم استبقى فيه غوامضَ لا حَصْرَ لها ؟ هذه الغوامضُ رأى لها المسلمون حلاًّ في القراءاتِ السبع أو العشرِ أو الأربَعَ عَشَرة. وهكذا فالأمرُ عَوْدٌ على بَدء : لقد خَلُصَ عثمانُ من « الأحرفِ السبعة » إلى حرفٍ واحد، وخَلُصَ الحَجَاجُ من « الحرفِ الواحد » إلى إصلاحِهِ وتنقيحه، ثمّ هذا التنقيحُ والإصلاحُ أفضيا إلى غموضٍ كثير. وهذا الغموضُ الكثير أوجدَ « القراءاتِ » القرآنيةَ المتعددةَ، وأوجَبَها.

يبدو، بعد كل هذا الغموض، أن معجزةَ القرآنِ تكمن، لا في المصحفِ واعجازِه، بل في تقبّلِ هذا الغموض. إنّ التسليمَ بما فعلَه الحَجَّاج، ومن قَبْلِهِ الخليفةُ مَروانُ بنُ عبد الملك، ومن قَبْلِهِ عثمانُ وعُمَر وأبو بكر، هو أمرٌ يدخلُ في عالَم المعجزات من بابهِ الواسع.

قد لا يحتاجُ الله، لإعلانِ رسالتهِ وانزالِ وحيهِ، إلى مثل هذه المعجزة الكلاميّة، بقدرِ ما يحتاجُ إلى نفوسٍ تتقبّلُ هذه المعجزةَ الطريفة. وإذا ما كانَ الإنسانُ بحاجةٍ إلى تجسّدِ اللهِ وظهورهِ ليتمكّنَ من إيمانِه، فهو لا يقرّرُ الشكلَ الذي به يتجسّدُ الله. في الإسلام اقرارٌ بتجسّدِ اللهِ في كتاب، فكانَ على كثيرٍ من المسلمين أن لا يَقبلوا بهذا النوع من التجسّد. لقد عَظُمَ على الموحِّدين الدروز أن يَظهرَ اللهُ في كتابٍ ويتجسّدُ في حروفه، وعَظُمَ على العلويين النُصَيْريين أن يَرَوا اللهَ يَنْسَابُ ظلُّه بينَ حروفِ القرآنِ وكلماته، لهذا أجمعَ الدروزُ على إظهارِ اللهِ في إنسانٍ هو « الحاكم بأمر الله »، كما أجمعَ النُصَيريون على إظهارِ المعنويةِ الإلهيةِ في « عليٍّ بن أبي طالب » .

ويُخشى على المسلمين السنّيين السَلَفِيين أنفسِهم أن لا يكتفوا بمثلِ تجسّدِ اللهِ في كتابٍ من كلماتٍ وحروف، فَعَوَّضُوا عن هذا النقصِ الإلهيِّ في تجسّدِهِ القرآني بردِّ الاعتبارِ إلى حاملِ الرسالةِ والوحي، فرفعوا محمّدًا إلى مُقَامٍ يكادُ يكونُ إلهيّا، فاعتبروه فوقَ البَشَرِ، وأقاموا

[1] نفس المرجع، ص ٥٠ ـ ٥٢ في الحواشي.

له الذكرى والاحتفالاتِ والأعيادِ، في الوقتِ الذي قالَ النبيّ عن نفسِه بأنّه بشرٌ كسائرِ الناس، وبأنَّ الأعيادَ والاحتفالاتِ الطقسيةَ إِحياءٌ لمراسِمِ الوثنيين وعبّادِ الأصنامِ والمشركين.

الفصل السابع

مُعْجزَة الإعجَاز البَيانيّ في القرآن

أَولاً ــ إعجاز لغة القرآن العربية

ثَانياً ــ إعجاز أسلوب القرآن

ثَالثاً ــ الحكم للّغة أم للقرآن ؟

مقدّمة الفصل

في إيمانِ المسلمين أنّ « المعجزةَ أمرٌ خارِقٌ للعادة، مَقْرُونٌ بالتحـدِّي، سـالِمٌ عـن المعارَضة. وهي إمّا حِسّيّة، وأمّا عقلية. وأكثرُ معجزاتِ بني إسرائيل كانتْ حسّيّةً، لِبَلاَدَتِهم، وقِلّةِ بصيرتِهم. وأكثرُ معجزاتِ هذه الأمّةِ عقليةً، لِفَرْطِ ذَكائِهم، وكمالِ أَفهـامِهم؛ ولأنَّ هـذه الشريعةَ، لمّا كانتْ باقيةً على صفحاتِ الدهرِ إلى يومِ القيامة، خُصَّتْ بالمعجزةِ العقليةِ الباقيةِ، ليراها ذُووا البصائر ..

« إنّ معجزاتِ الأنبياءِ انقرضتْ بانقراضِ أَعصارِهم، فلم يشاهِدْها الاّ مَنْ حَضَـرَها. ومعجزةُ القرآنِ مستمرّةٌ إلى يومِ القيامة، وخَرْقُه العادةَ في أسلوبِهِ وبلاغتهِ وأخبارِهِ بالمغيباتِ؛ فلا يمرُّ عَصرٌ من الأعصارِ الاّ ويَظهرُ فيه شيءٌ ممّا أخبَر بهِ أنّه سيكونُ يدلّ علـى صـحةِ دعواه »[1].

لقد جاءَ القرآنُ معجزةً في كلِ شيء : في تحدِّيه الإنسَ والجنَّ على أن يأتوا بمثلِهِ، أو بمثلِ سورةٍ منه، وفي أسلوبهِ البليغِ، وفي أخبارهِ عن المستقبل، وعن قَصَصِ الأولين وسـائرِ المتقدمين، وعن الضمائرِ من غير أن يَظْهَرَ ذلك منهم بقولٍ أو فعل، وفي ما يحتويهِ من النَظْمِ والتأليفِ والترصيفِ، وفي التأليفِ الخاصّ بكلِ علمٍ بحيث نجدُ فيه كلَ فنٍّ في مرتبتهِ العُليا في اللفظِ والمعنى، وفي نَظْمِهِ وصحةِ معانيه وتوالِي فصاحةِ ألفاظهِ، وفي عالم البيان الذي يُحتَرزُ به عن الخطأ في تأديةِ المعنى وعن تعقيدِه، وفي فصاحتهِ وبلاغتهِ، وفي صَرْفِ الناس عـن معارَضَتِه، وفي حُسْنِ تأليفِه والتئامِ كَلِمِه وَوُجُوهِ إيجازِه وبلاغتِـه الخارقـةِ عـادةَ العـرب، وصورةِ نَظمهِ العجيب، والأسلوبِ الغريبِ المخالفِ لأساليبِ كلامِ العرب، ولم يوجده قَبْلَه ولا بَعْدَهُ نضيرٌ له، والإخبارُ بالمغيباتِ، وما أنبأَ به من أخبارِ القرونِ السـالفةِ والأمـمِ البائـدةِ والشرائعِ الدائرة[2].

نشأ علمُ الاعجازِ منذ القدم، ووضعَ فيه المسلِمون الكتبَ، منها ما وصَل إلينا، ومنهـا ما لم يصل. وقـد يكونُ الجاحِظُ (+ ٢٥٥ هـ) أوّلَ من وَضَعَ بحثًا فيه، في كتـابٍ أسماه « نَظْمُ القرآن » ، أشارَ إليه في كتابِه « الحيوان » ؛ ثمّ محمّد بن يزيد الواسـطي (+ ٣٠٦ هـ) وضعَ كتـابًا في « إعجازِ القرآن » ، لم يصلْ إلينـا؛ ثم الرمّاني (+ ٣٨٤ هـ) في

---

[1] السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ٢ / ١١٦ ـ ١١٧.

[2] السـيوطي، الاتقـان، ٢ / ١١٨ ـ ١٢٢، حيـث يسـرد آراء المحـدّثين ، أمثـال : ابـن عطيـة، والمراكشـي، والاصبهاني، والامام الرازي، وابي بكر الباقلاني، والزملكاني، والنظام، وغيرهم ...

« الإعجاز » ؛ والقاضي أبو بكر الباقلاني (+ ٤٠٣ هـ) في « إعجازِ القرآن » ، وعبد القاهر الجرجاني (+ ٤٧١ هـ) في « دلائلِ الإعجاز » .

وللمسلمين المعاصرين أيضًا أبحاثٌ لا عدَّ لها في هذا العلم، وأخصّهم السيّد رضى، والإمام الشيخ محمّد عبده، وسيّد قُطب في كتابه « التصوير الفني في القرآن » ، والدكتور مصطفى صادق الرافعي في « إعجاز القرآن » ... وغيرهم. وقد ركّز هؤلاء، بالإضافةِ إلى ما عُني به الأقدمون، على سحرِ أسلوبِ القرآن وجَرْسِه وإيقاعِه وموسيقاه وفنِّه التصويري النبيل. كما ركّز غيرُهم على إعجازِ القرآن في العلومِ الحديثة، كالطبِّ والفلكِ، الخ. وسنتوقّفُ على معجزةِ الإعجازِ القرآني في جميعِ نواحيها القديمةِ والحديثة.

أولاً ــ إعجاز لغة القرآن العربية

في معتقد المسلمين أنّ القرآنَ نزلَ بلفظهِ وحرفهِ ومعناه، أي بلغتِه وأسلوبِه وعلومِه. ولو كنّا نجدُ عندَهم بعضَ الخلافِ في ذلك، فهو من قبيل فَذْلَكَةٍ جَدَلية : فمنهم من يقولُ بأنّ اللهَ أنزلَ المعنى على جبريل، وجبريل لَقَنَّه محمّدًا بلغتهِ وأسلوبهِ المَلَكِيَين؛ ومنهم من يقولُ بأنَّ النبيَّ صاغَ معانيه بلغتِهِ وأسلوبهِ المَضَرِيَين؛ ومنهم، أخيراً، من يقولُ بأنّ اللهَ صاغَه بلغتهِ وأسلوبه الربّانِيِيَن.

وهذا الخلاف، على قِدَمِه، لا يُعْتَدُّ به، لأنّ جميعَ ما في القرآن كلّه من عندِ الله، « كلّ من عند ربّنا »[1]، لا اختلافَ فيه[2]، ولا عِوَجَ[3]؛ وليسَ لأحدٍ يستطيعُ أن يغيّرَ فيه حرفًا واحدًا، إذ « لا تبديل لكلماتِ الله »[4] و « لا مبدِّل لكلماته »[5] ... ولئنِ استمرَّ الخلافُ والجَدَلُ في ذلك، فليسَ هذا الاّ من قبيلِ زرعِ الشكوكِ لدحضِها.

والحقيقةُ هي، كما جاء في القرآنِ نفسه، إنّ اللهَ أنزلَه بلسانٍ عربيّ مبين[6]، أنزلَه على العربِ قرآنًا عربيًا لعلّهم يتّقون[7]، وأنزلَه حِكَمًا عربيًا[8]، ولسانًا عربيًا[9]. لقد أنزلَه اللهُ على محمّد بلسانِ قومه، لِيُنْذِرَ أمَّ القرى (مكّة) وما حَولها[10]، ويسّرَه بلسانهِ ليبشّرَ به المتّقين[11].

بسبب ذلك، أثبتَ الإمامُ الشافعي وابنُ جرير وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر الباقلاني وأبو فارس عدمَ وقوعِ شيءٍ في القرآنِ من غيرِ لغةِ العرب. وقد شدّدَ الشافعي النكيرَ على القائلِ بذلك. وقال أبو عبيدة إنّما أنزلَ القرآنُ بلسانٍ عربي مبين، فمَن زعمَ أنّ فيهِ غيرَ العربيةِ فقد أعظَمَ القول. وقال ابن أوس : لو كانَ فيه من لغةٍ غيرِ العَرَبِ شيءٌ لتوهَمَ متوهِّمٌ أنّ العربُ انّما عجزتْ عن الاتيانِ بمثلِهِ، لأنّه أتى بلغاتٍ لا يعرفونها[12].

---

[1] سورة آل عمران ٣ / ٧، انظر : القصص ٢٨ / ٥٣.
[2] سورة النساء ٤ / ٨٢.
[3] سورة طه ٢٠ / ١٠٧، انظر : ٢٠ / ١٠٨، ١٨ / ١.
[4] سورة يونس ١٠ / ٦٤، انظر : ٢٣ / ٦٢، ٣٥ / ٤٣، ٤٨ / ٢٣ ...
[5] سورة الانعام ٦ / ١١٥، الكهف ١٨ / ٢٧، انظر : ٦ / ٣٤ ...
[6] انظر : ١٦ / ١٠٣، ٢٦ / ١٩٥.
[7] ١٢ / ٢، ٣٩ / ٢٨، ٤٢ / ٧، ٤٣ / ٣، ٢٠ / ١١٣ ...
[8] سورة الرعد ١٣ / ٣٧.
[9] سورة الأحقاف ٤٦ / ١٢.
[10] سورة الانعام ٦ / ٩٢، ابراهيم ١٤ / ٤، انظر : ٤٢ / ٧.
[11] سورة مريم ١٩ / ٩٧، انظر : الدخان ٤٤ / ٥٨.
[12] السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ١ / ١٣٥ ـ ١٣٦.

ولئن وقعَ في القرآنِ ألفاظٌ من الفارسيةِ والحَبَشيةِ والنَبَطيةِ وغيرها، فانّ ذلك، بحسبِ ابن جرير، من « توارِدِ اللغاتِ، فتكلّمتْ بها العربُ والفرسُ والحبشة بلفظٍ واحد »[1]؛ وقالَ غيره : « كلُ هذه الألفاظ عربيّةٌ صرفَة، ولكن لغةُ العربِ متّسعةٌ جداً »[2]؛ وقالَ أبو المعالي عزيزي بن عبدِ الملك : « انّما وجدتْ هذه الألفاظُ في لغةِ العربِ لأنّها أوسعُ اللغاتِ وأكثرُها ألفاظاً، ويجوز أن يكونوا (العرب) سبقوا إلى هذه الألفاظ »[3]، وقال آخرون: « بأن الكلماتِ اليسيرةَ غير العربية لا تُخرِجه عن كونهِ عربيّاً »[4].

إلاّ أنّ بعضَ المسلمين رأى في القرآن مئاتِ الكلماتِ من غيرِ لغةِ العرب. وقد أخرجَ ابن جرير عن أبي ميسرة التابعي الجليل قال : « في القرآن من كلِ لسان »[5]، ومثله سَعيد بن بن جُبير، ووَهَب بن منّبه وغيرهم ... وفي رأيهم أنّ الحكمةَ من وقوعِ هذه الألفاظِ فيه، « إنّه حوى علومَ الأولين والآخرين، ونبأ كلِ شيء. فلا بدّ أن تقعَ فيه الإشارةُ إلى أنواعِ اللغاتِ والألسنِ لِيُتِمَّ إحاطتَه بكل شيء؛ فاختيرَ له من كلِ لغةٍ أعذبها وأخفّها وأكثرها استعمالاً للعرب »[6].

وقد صرّحَ ابنُ النقيب بجَوازِ وجودِ ألفاظِ أعجميةٍ في القرآن، فقال : « من خصائصِ القرآنِ على سائرِ كتبِ اللهِ المنزَلةِ التي نزلتْ بلغةِ القومِ الذين أُنزلتْ عليهم، لم ينزل فيها شيءٌ بلغةِ غيرهم، والقرآنُ احتوى على جميع لغاتِ العرب، وأُنزل فيه بلغاتِ غيرهم من الرومِ والفرسِ والحبشة شيءٌ كثير »[7] ... فالنبيُّ العربيُ مرسَلٌ إلى العربِ وإلى كلِّ أمّةٍ، وعقيدتُه يجب أن تُبلَّغ لجميع الناس، فلا بدّ أن يكونَ في كتابهِ المبعوثِ به من لسانِ كل أمّةٍ، وإن كان أصلُه بلغةِ قومهِ هو.

أمّا السيوطي فلا مانعَ عندَه من أن تكونَ بعضُ الألفاظِ أعجميةً، وقعتْ للعربِ فعرّبتها بألسنتِها وحوّلتْها عن ألفاظِ العَجَمِ إلى ألفاظِها، فصارتْ عربيّةً، ثم نزلَ القرآنُ وقد اختلطتْ هذه الحروفُ بكلامِ العرب. فمن قالَ إنها عربيةً فهو صادق، ومن قالَ عجميةً فصادقٌ أيضاً[8].

---

[1] نفس المرجع ١ / ١٣٦.
[2] نفس المرجع.
[3] نفس المرجع.
[4] نفس المرجع.
[5] السيوطي، الاتقان ١ / ١٣٦.
[6] نفس المرجع.
[7] نفس المرجع.

أيضاً[1]. ثمّ يسرد السيوطي حوالي مائة لفظة واردةً في القرآن هي من لغاتٍ متعددة، فارسيّة، وهنديّة، وحبشيّة، وقبطيّة، ونبطيّة، وسريانيّة، وعبرانيّة، وبربريّة، ويونانيّة، ورومية ...[2]

أمّا ما جاءَ في القرآن من غيرِ لغة الحجازِ المَضَريّة فكثير. وقد جاءَ في كلامِ أبي بكر الواسطي، في كتابِه « الارشادِ في القراءاتِ العشر » ما يلي : « في القرآن من اللغاتِ خمسون لغة : لغة قريش وهذيل وكنانة وخثعم والخزرج وأشعر ونمير وقيس عيلان وجرهم واليمن وأزد شنوءة وكندة وتميم وحمير ومدين ولخم وسعد العشيرة وحضرموت وسدوس والعمالقة وأنمار وغسان ومذحج وخزاعة وغطفان وسبأ وعمان وبنو حنيفة وثعلب وطيّ وعامر بن صعصعة وأوس ومزينة وثقيف وجذام وبلى وعذرة وهوازن والنمر واليمامة ».[3]

وفي السيوطي سيلٌ من الألفاظِ العربيةِ غيرِ الحجازية[4]، وكذلك عند ابنَ الجوزى في كتابه « فنونِ الأفنانِ في القرآن بلغة همدان ». وقال ابن عبد البرّ في « التمهيد »: « قول من قال نزلَ بلغةِ قريش معناه عندي الأغلب، لأن غيرَ لغةِ قريش موجودةٌ في جميعِ القراءات »[5]. وقال الشيخ جمالُ الدين بن مالك : « أنزلَ اللهُ القرآن بلغةٍ الحجازيين إلاّ قليلاً »[6].

وإذا ابتغينا المقارنةَ بين لغةِ قريش وسائرِ لغاتِ العرب لطالَ بنا الكلام، ولكن، اثباتاً لهذا الموضوع الخطير، لا بدّ من الإشارة إلى بعض الفروقات، إن من جهة الادغام والفكِّ، وإن من جهةِ اعتمادِ النصب في المنقَطِع، (أي النصب في الاستثناء بعد إلاّ)، وإن من جهةِ الفتح والأمَالَة، وإن من جهة الهمزِ وعدمه، أو الثقيلِ والتفخيم، أو الاخفاء والاقلاب، أو المدّ والقصر ... إلى غير ذلك[7].

وبالنتيجة، إن القولَ بأنّ القرآن نزلَ بلسانٍ عربيٍّ مُبين، وبلغةٍ عربيةٍ قرشيةٍ صافيةٍ خالصة، هو قولٌ جزاف، يحوم حولَه كثيرٌ من الشبهات. ولئن سلّمنا بما يقوله الواسطي بأنّ

---

[1] السيوطي، الاتقان، ١ / ١٣٧.
[2] انظر السيوطي، الاتقان، ١ / ١٣٧ ـ ١٤١.
[3] السيوطي نقلا عن الواسطي، الاتقان، ١ / ١٣٥.
[4] انظر السيوطي، الاتقان ١ / ١٣٣ ـ ١٣٥ حيث ينقل بعض الألفاظ.
[5] عن السيوطي، الاتقان، ١ / ١٣٥.
[6] نفس المرجع.
[7] السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، انظر الصفحات التالية : ١ / ٨٣ ـ ٨٩، ١ / ٨٩ / ٩٠، ١ / ٩١ ـ ٩٤، ١ / ٩٤ ـ ٩٦، ١ / ٩٦ ـ ٩٨، ١ / ٩٨ ـ ٩٩، ١ / ١٣٥ ...

« كلامَ قريش سهلٌ ليّنٌ واضحٌ، وكلامَ العرب وحشيٌّ غريب »[1]، فانّ ذلك يجعلنا نتساءل عن مدى فصاحةِ كلام القرآن وبلاغته اللغوية.

ولكثرةِ وجودِ لغاتٍ عربيةٍ عديدة في القرآن، راحَ بعضُ المسلمين والمستشرقين يقوّمون لغةَ القرآن بلغةِ الشعر الجاهلي؛ وعلى أساس هذا الشعر نستطيعُ فَهْمَ بعضِ ما في القرآنِ من غرائبِ اللغة. « ومن هنا نتساءل، مع الحداد : أَنَزَلَ القرآنُ بلغةِ نَجْد أم جُمِعَ بلغةِ نجد ؟ أم قُرِئ بلغةِ نجد على خلافِ المتواتر ؟

وإذا نَزَلَ بلغةٍ قريش فكيفَ نقرأُه بلغةِ نجد، أو بلغةٍ غير قرشيّة ؟ أَمِنَ الأمانَةِ كتابةُ القرآنِ بلغةٍ لم ينزِل بها ؟

أم آلف النبي، أو آلف الصحابة من بعدِه بين لغةِ القرآن ولغةِ الشعر الجاهلي التي كانتْ لغةَ الأدبِ والكلامَ الجميل ؟

كلّها أسئلةٌ وشبهاتٌ يحار فيها المؤرّخ الأديب. وقد استنتج بعضُهم من ذلك شبهةً على صحةِ لغةِ القرآن وعلى صحة اعجازها »[2].

في كل حال، إنّنا، مع المسلمين المؤمنين، أمام معجزةِ كلِ حرفٍ من حروفِ القرآن، وكلِ كلمةٍ منه، وكلِ لفظةٍ وتعبير. بل كلُ حرفٍ منقَطعٍ هو آيةٌ في ذاتِه ومعجزة. وما « فواتِحُ السُوَرِ » ، الواردةُ في سبعٍ وعشرين سورة الاّ دليلٌ قاطِعٌ جازِمٌ على معجزةِ اللغةِ القرآنية. وكلُ حرفٍ من هذه الحروفِ المتقطعة، كالـ « ن » في سورة « القلم » ، والـ « ق » في سورة « ق » ، والـ « حم » في « الأحقاف » و « الجاثية » و « الدخان » و « الزخرف و « الشورى » و « فصلت » و « غافر » ، والـ « ص » في سورة « ص » ، و « يس » في سورة « يس » ، و « ألم » في « السجدة » و « لقمان » و « الروم » و « العنكبوت » ، و « طسم » في « القصص » ، و « طس » في « النمل »، و « طسم » في « الشعراء » ، و « طه » في « طه » ، و « كهيعص » في « مريم » ، و « الر » في الحجر وابراهيم والرعد ويوسف وهود ويونس، و « ألمص » في الاعراف، كلُ حرفٍ من هذهِ الحروف فيه معجزةٌ، لا يعلَم مرادَه الاّ الله. فكيفَ بنا بسحرِ الحروفِ التي تؤدّي معنىً إلهيّا يعجزُ عن إدراكِه عقلُ كلِ إنسان!

---

[1] السيوطي، نقلا عن « الإرشاد » للواسطي، ١ / ١٣٥.
[2] الاستاذ الحداد، القرآن والكتاب، ٢ / ٣٢٣.

ثَانياً ــ إعجاز أسلوب القرآن

في إيمانِ المسلمين إن القرآنَ معجزٌ في بَيانِه وبديعِه، أي في نظمِه وتأليفهِ ورصفِهِ، وفصاحتِه وبلاغتِه، وصُوَرِه وتعابيرِه، وإيجازِه وأطنابِه، وتشابيهِه واستعاراتِه، وحقيقتِهِ ومجازِه، وكنايتِه وتعريضِه، وَخَبرِه وانشائِه، وشعرِه ونثرِهِ، ووزنِه وفَواصِله، وجُمَلِه ومفرداته، وسِحرِهِ وموسيقاه، واختيارِ حروفِه ووجوهِه وضمائرِه، ومقدّمِه ومؤخّرِه، وعامِّه وخاصِّه، ومُجْمَلِهِ ومبيّنِهِ، وقَصَصِه وأمثالِه، وأقسامه وأجزائه ...

بهذا الأسلوب المعجز في كل شيء « تحدّى القرآنُ فصحاءَ العرب بمعارضتِه، وطاولَهم في المعارضة، ولكنّهم انهزَموا أمامَ تحدِّيه، وأعلنوا عجزَهم عن تقليدِه، لأنّه يَعلو ولا يُعلى، وما هو بقولِ بَشَر »[1]، و « لا ريبَ إن العربَ المعاصرين للقرآنِ قد سُحِروا، قبلَ كلِ شيءٍ، بأسلوبه الذي حاولوا أن يعارضُوه فما استطاعوا، حتى إذا فهموه أدركوا جَمَالَه، ومَسَّ قلوبَهم بتأثيرِه »[2]. وهذا الجانبُ الفنيُ الخالصُ كان « كافيًا لإثباتِ فكرةِ الإعجازِ وخلودِ القرآنِ بأسلوبِه الذي يَعلو ولا يُعلى ... فما اعجازُ هذا الكتاب الكريم الاّ سحرُه. ولقد فعلَ سِحْرُه هذا فِعلَه في القلوبِ »[3].

١ ــ لقد سُحِرَ المسلمون في معرفةِ « الوجوهِ والنظائر »[4] لمّا وجدوا « الكلمةَ الواحدةَ تنصرفُ إلى عشرينَ وجهاً وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلامِ البشر »[5]، ومن أمثلةِ ذلك « الهُدَى » ، فهو يأتي على سبعةَ عَشَرَ وجهًا[6]، « والسوء » ، وهو يأتي على أوجهٍ عديدة[7] والصلاة والرحمة والفتنة والروح والقضاء والذكر والدعاء .. وغير ذلك[8].

٢ ــ وسُحِروا بالقرآن « يستعيرُ » ألفاظَه من عالَمِ الإنسان إلى عالَمِ الأشياء، فيَجعلُ الصبحَ يتنفّسُ في قوله « والصبحُ إذا تنفّس »[9]، ويجعلُ القذفَ والدمغَ للحق والباطلِ في قوله : « بل نَقذفُ بالحق على الباطِل، فيدمغُه فإذا هو زاهِق »[10]، ويَجعلُ لجهنّم شخصيّةً آدميّة،

---

[1] الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣١٣.
[2] نفس المرجع، ص ٣٢٠.
[3] نفس المرجع، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.
[4] الوجوه اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان؛ والنظائر هي الألفاظ المتواطئة المترادفة التي معناها واحد في مواضع كثيرة، انظر الاتقان، ١ / ١٤١.
[5] نفس المرجع.
[6] نفس المرجع، ١ / ١٤٢.
[7] نفس المرجع.
[8] انظر ذلك في نفس المرجع.
[9] سورة التكوير ٨١ / ١٨. انظر : الشيخ صبحي، مباحث ... ص ٣٢٤.
[10] سورة الأنبياء ٢١ / ١٨. نفس المرجع.

لها انفعالاتٌ وجدانيّة، وخَلَجاتٌ عاطفية، فهي تَشهَقُ شهيقَ الباكين، وهي تَغضبُ وتثور، وهي ذاتُ نَفْسٍ حادّةِ الشعور[1] في قوله : « إذا أُلْقُوا فيها (في جهنم) سَمعوا لها شهيقًا وهي تَفور، تَفور، تكادُ تَمَيَّزُ من الغيظ »[2].

٣ ــ وسُحِروا بالقرآنِ ينزع « التشابيهَ » من أمورٍ مختلفةٍ مجموعةٍ بعضها إلى بعض، فيقول مثلاً : « كَمَثَلِ الحمارِ يَحملُ أسفارًا »[3]. وسحر هذا الكلام في القرآن هو في حرمانِ الحمار من « الانتفاعِ بأبلغ نافعٍ مع تحمّل التعبِ في استصحابِه »[4]. ويقول أيضًا : « انّما مَثَلُ الحياةِ الدنيا كماء أنزلناه من السماء ... لم تغن بالأمس »[5]؛ يقول الشيخ صبحي في سحر هذا القول : « إن فيه عشر جُمَل وقعَ التركيبُ من مجموعها، بحيث لو سقطَ منها شيءٌ اختلّ التشبيه » فـ « تمّ لهذا المشهد القرآني من الاعجاز بالألفاظِ الجامدةِ ما لا يتمّ من الابداعِ بالريشة والألوان »[6].

٤ ــ وسُحِروا بالقرآن يستعملُ « المَجازَ اللغوي » الذي فيه يكونُ اللفظُ في غيرِ ما وُضِعَ له، مثل قوله : « يجعلونَ أصابعَهم في آذانِهم من الصواعق حَذَر الموت »[7]؛ ويستعملُ « المجازَ العقلي الذي يكون أحدُ طرَفيهِ حقيقيّاً دونَ الآخر، مثل قولهِ : « وأمّه هاوية »[8]. واعتبر المسلمون أنّه « لو سقَطَ المجازُ من القرآنِ لسقطَ منه شَطْرُ الحَسَن »[9].

٥ ــ وسُحِروا بالقرآن يستعملُ « الكنايةَ لأجل الرمزِ والإيماء، قصدَ تحاشي كلامٍ لا يجملُ فيه التصريح. فإذا أرادَ، مثلاً، التعبيرَ عن التناسلِ والمعاشرةِ الزوجية ومضاجعةِ الأزواج، استعملَ لفظة « الحَرْث » في قوله « نساؤكم حَرْثٌ لكم، فأتوا حَرْثَكم أنَّى

---

[1] الشيخ صبحي الصالح، مباحث ... ، ص ٣٢٥.
[2] سورة الملك ٦٧ / ٧ ـ ٨.
[3] سورة الجمعة ٦٢ / ٥.
[4] الشيخ صبحي الصالح، مباحث ... ، ص ٣٢٢، نقلا عن السيوطي، الاتقان ٢ / ٤٢ ـ ٤٣. ومن هذا القبيل الآيات : « فاصدع بما تؤمر » (الحج ٩٤)، « فوجد فيها جداراً يريد أن ينقضّ فأقامه » (الكهف ٧٧)، و « اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا » (٣ / ١٠٣). « وتركنا بعضهم يؤمئذ يموج في بعض » (الكهف ١٠٠) ... الخ.
[5] سورة يونس ١٠ / ٢٤.
[6] مباحث في علوم القرآن، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٥، نقلاً عن السيوطي في الاتقان ٢ / ٤٢ ـ ٤٣. وهو يستفيض في إظهار سحر هذه الآية وإعجازها البياني إلى درجة أنّه اعتبر السيوطي وبلغاء المسلمين مقصرين فيما يبيّنوه في القرآن وفصاحته.
[7] سورة البقرة ٢ / ١٩.
[8] سورة القارعة ١٠١ / ٩ : اسم الام « الهاوية » مجاز، أي كما أن الأم كافلة لولدها وملجأ له، كذلك النار للكافرين كافلة ومأوى ومرجع.
[9] انظر السيوطي، الاتقان ٢ / ٣٦ ـ ٤٦ ...

شِئتم »[1]. ومن هذا القبيل قال أيضًا : « هنَّ لِباسٌ لكم وأنتم لِباسٌ لهنّ »[2]. ويبدو أن « الكناية » ، في نظر المسلمين، هي « من أبلغِ الأساليب »[3] ...

ولكن، إذا كان اللهُ يَسْتَعْفِفُ في ذكرِ النساءِ والنِكاحِ والمضاجَعةِ في هذه الآيات، فلماذا هو يستعمل، في أمكنةٍ أخرى كثيرةٌ، لفظةَ « النِكاح » ، مثلا، وهي تعني، عند العرب، لا التزويجَ وحسب، بل « الوطء » غالبًا. وبهذا المعنى فسّر الأزهري آيةَ « الزاني لا ينكح الاّ زانية أو مُشركة، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مُشرِك »[4]، وقال : « أصلُ النكاح في كلامِ العرب الوطء، وقيل للتزوّجِ نكاح لأنه سبب الوطء المباح »[5]، وهو أيضًا تفسير الجوهري، وسيبعة، وغيرهم[6]..

ولماذا لم يتورّع اللهُ من ذكرِ « حبِّ الشهوات من النساء »[7]، واعتزالِ النساء في المَحيض[8]، ومراودةِ النساء للفتيان[9]، ومسّ النساء[10]، ونكاح ما طاب للرجالِ منهنّ[11]، وملامستهنّ قبل الصلاة خشية النجاسة، وإن لم يكن ماء للتطهير فلا بدّ منه ولو بالتراب[12]، وذكر « عورات النساء » وإظهارها للطفل[13]، وذكر الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء[14]، ووطء النساء[15]، والرفث إليهنّ[16]، والدخول بهنّ[17]، الخ ... فهل هذه التعابير هي من العفّة في شيء حتى لم يستعملِ اللهُ بعضَ « الكناية » ؟

٦ ــ وسُحِرَ المسلمون بما في أسلوبِ القرآن من « الإيجاز » ، وهو جمعُ المعاني الكثيرة بالألفاظِ القليلة. وقد شدّدَ الجاحظُ على هذه المعجزة القرآنية، ويستشهدُ، لأجل حجّتِهِ، بوصفِ خمرةِ أهلِ الجنّة : « لا يُصَدَّعُونَ عنها ولا يُنزِفُون »[18]، ويقول : « هاتان الكلمتان

---

[1] سورة البقرة ٢ / ٢٢٣.
[2] ٢ / ١٨٧، انظر : ٧ / ١٨٩، ٢٣ / ٥، ٣٣ / ٣٥، ٦٦ / ١٢ ...
[3] الشيخ صبحي، مباحث ... ص ٣٣٠.
[4] سورة النور ٢٤ / ٣.
[5] لسان العرب، ٢ / ٦٥٢ مادّة : « نكح » .
[6] انظر لسان العرب، ٢ / ٦٢٥ ـ ٦٢٦. ترد لفظة نكاح ٢٥ مرّة.
[7] سورة آل عمران ٣ / ١٤.
[8] سورة البقرة ٢ / ٢٢٢.
[9] سورة يوسف ١٢ / ٣٠.
[10] سورة البقرة ٢ / ٢٣٦.
[11] سورة النساء ٤ / ٣.
[12] سورة النساء ٤ / ٤٣.
[13] سورة النور ٢٤ / ٣١.
[14] سورة الأعراف ٧ / ٨١.
[15] سورة الفتح ٤٨ / ٢٥.
[16] سورة البقرة ٢ / ١٨٧.
[17] سورة النساء ٤ / ٢٣.
[18] سورة الواقعة ٥٦ / ١٩.

جَمَعَتَا جميعَ عيوبِ خمرِ أهلِ الدنيا » ، ويدلّ على الإيجاز في قول القرآن عن فاكهة الجنّة « لا مَقطوعَةٍ ولا مَمْنوعَةٍ »[١]، ويقول : « جَمَعَ بهاتينِ الكلمتين جميعَ تلك المعاني »[٢].

٧ ــ وسُحِر الجرجاني ببعضِ الصُوَر الجَمالية الفنيّةِ في القرآن، ويستشهدُ بقوله: « اشتعلَ الرأسُ شَيْبًا »[٣]، ويرى في هذا الكلام كلَ أنواعِ الاستعارةِ والشمولِ والاسناد، ومن هذا القبيل قوله : « فَجّرْنَا الأرض عيونا »[٤].

٨ ــ وسُحِرَ الرافعي بموسيقى القرآن في ترتيب حروفه « باعتبارٍ من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضِه مناسبةً طبيعية في الهمْس والجهر، والشدّة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشّي والتكرير »[٥]. ويعطينا من القرآن هذا المثل : « ولقد أنذَرَهُم بَطْشَتَنا فَتَمَارَوا بالنُذُر »[٦]، ويدعونا إلى التأمّل، ويقول : « تأمّل هذا التركيب، وأَنعِم ثم أَنعِم على تأمّلِه، وتذوّقْ مواقِعَ الحروفِ، وأَجرِ حركاتِها في حسِّ السَمْع، وتأمّلْ مواضِعَ القَلْقَلَةِ في دالِ « لَقَدْ » ، وفي الطاء من « بَطشَتَنَا » ، وهذه الفَتْحَاتِ المتوالية فيما وراءِ الطاء إلى واو « تمارَوا » مع الفصلِ بالمدِّ كأنَّها تثقيلٌ لخفةِ التتابع في الفَتحات إذا هي جَرَتْ على اللسان، ليكونَ ثقلُ الضمّةِ عليه مستخفاً بعد، ولتكون هذه الضمّةُ قد أصابتْ موضعَها، كما تكونُ الاحماضُ في الأطعمة »[٧].

هذه الموسيقى في ألفاظ القرآنِ وحروفِه « لم تُعْرَفْ قط في كلامٍ عربيٍ غير القرآن، وبها انفردَ نظمه وخرجَ ممّا يطيقُه الناس »[٨]. « هذا النظم الذي يشبه السحرَ، والذي ألّفَ العربَ على تعاديهم، وكوّن منهم أمةً واحدة، تطربُ لِلَحْنٍ واحد، تجتمعْ عليه قلوبُها في الأرضِ، بينما ترتفعُ به أرواحُها في السماء »[٩].

٩ ــ أمّا سيّدُ قطب فسُحِرَ بالتصويرِ الفنّي الذي « هو الأداةُ المفضّلَة في أسلوبِ القرآن » . هذا التصوير « يُعبّرُ بالصورةِ المحسّة المتخيّلة عن المعنى الذهني والحالةِ النفسية، وعن الحادثِ المحسوس والمشهَدِ المنظورِ، وعن النموذَجِ الإنساني والطبيعةِ البشرية. ثمّ يرتقي بالصورةِ التي يرسمُها فيمنحُها الحياةَ الشاخِصة، أو الحركةَ المتحدّدة. فإذا المعنى الذهني هيئةٌ أو حركةٌ، وإذا الحالةُ النفسيةُ لوحةٌ أو مشهَدٌ، وإذا النموذَجَ الإنساني شاخِصٌ

---

[١] سورة الواقعة ٥٦ / ٣٣.
[٢] عن الرافعي، في تاريخ آداب العرب ٢ / ١٥٢ حاشية.
[٣] سورة مريم ١٩ / ٤.
[٤] سورة القمر ٥٤ / ١٢، انظر : مباحث في علوم القرآن، ٣١٥.
[٥] الدكتور مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ٢ / ٢٢٥.
[٦] سورة القمر ٥٤ / ٣٦.
[٧] الرافعي، نفس المرجع، ٢ / ٢٣٩.
[٨] نفس المرجع، ٢ / ٢٦٠.
[٩] الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٣١٩.

حيٌّ، وإذا الطبيعةُ مجسَّمةٌ مرئيّةٌ » إلى درجة « يَنسى المستمعُ أنَ هذا كلامٌ يُتلى، ومَثَلٌ يُضرب ... وحادِثٌ يَقع ... إنّها الحياةُ هنا، وليستْ حكايةَ الحياة ... » بهذا ندركُ « موضِع الإعجازِ في تعبير القرآن »[1].

١٠ ــ ويتوقّف الشيخُ صبحي الصالح، للدلالة على معجزة إعجاز القرآن، على ما تعلّم في مقالةِ « الفنِّ والجمال » ، فيرى « هذه الموسيقى الداخليةَ لتتبعثُ في القرآن، حتى من اللفظة المفردة في كل آية من آياته، فتكاد تستقل ــ بجَرْسها ونَغَمها ــ بتصويرِ لوحةٍ كاملةِ اللونِ زاهياً أو شاحباً، وفيها الظلُّ شفيفاً أو كثيفاً »[2].

ويستدلُ الشيخ، من جملةِ آياتٍ، على جَمَال الحروفِ القرآنيّة في مواقِعها، فيستهويه « هَمْسُ السينِ المكرَّرَةِ » في قولِ القرآن : « فلا أُقْسِمُ بالخُنَّسِ، الجَوَاري الكُنَّسِ، والليلِ إذ عَسْعَسَ، والصُبحُ إلى تَنَفَّسَ »[3]، وتقع في نفسهِ الرهبةُ وهو يسمَعُ « صوتَ الدالِ المنذِرَةِ المتوعِدَةِ، مسبوقة بالياءِ المشبعةِ في لفظةِ « تَحِيدُ » في قوله: « وجاءتْ سَكرةُ الموتِ بالحقّ: ذلك ما كنت منه تَحِيد »[4]، ويُضْرَبُ بالذعرِ لدى سَماعه كلمةَ « زُحْزِحَ » تُصَوِّرُ مشهدَ الابعادِ والتنحية بكلِ ما يقعُ في هذا المشهدِ من أصوات « في قوله : « فَمَنْ زُحزِحَ عن النار وأُدخِلَ الجنّةَ فقد فَاز »[5]، ويستولي عليه القلقُ وهو يَقرأُ هَاءَ السَكْتِ في سورةِ الحَاقَةِ « ماأغنى عَنِي ماليَهْ، هَلَكَ عنِي سُلطانِيَهْ »[6]، ويَأخذُه من الغيظِ مثل ما يأخذُ جهنم حين يتسمَّعُ لفظَ « تَمَيَّزُ من الغَيْظِ »[7]، وتنقبضُ شفتاه استِقباحًا واستهجَانًا عندما يسمَعْ القرآن يقولُ « ويُسْقَى (الكافر) من ماءٍ صديدٍ يَتَجَرَّعُه »[8]، ويكاد يكبّ على وجههِ ومِنخارِه لسماعِه « فَكَبْكَبُوا فيها هُم والغاوون »[9] ... إلى ما هنالك من ألفاظِ وحروف وكلمات تعبّر عن لوحة كاملة[10].

وإذا كان هذا شأن الحروف فكيفَ بكَ بالآياتِ والسُوَرِ الكاملةِ التي، إذا ما قرأها المؤمن، « يوقظ نَسَقُها الرائعُ قلبَهُ، ويهزّ ايقاعُها العجيبُ مشاعِرَه »[11]. ولئن كان الجنُّ سُحِروا بما سمعوا من القرآنِ، فكيفَ بالعَرَب! الواقعُ، بنظرِ الشيخ صبحي، « أن القرآنَ نسيجٌ

---

[1] سيّد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ٣٣ ...
[2] مباحث في علوم القرآن، ص ٣٣٤.
[3] سورة التكوير ٨١ / ١٥ ـ ١٨.
[4] سورة ق ٥٠ / ١٩.
[5] سورة آل عمران ٣ / ١٨٥.
[6] سورة الحاقة ٦٩ / ٢٩.
[7] سورة الملك ٦٧ / ٨.
[8] سورة ابراهيم ١٤ / ١٧.
[9] سورة الشعراء ٢٦ / ٩٤.
[10] الشيخ صبحي، مباحث ...، ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦.
[11] نفس المرجع، ص ٣٣٦.

واحِدٌ في بلاغتِه وسحرِ بيانه، إلاّ أنّه متنوِّعٌ تنوّعَ موسيقى الوجودِ في أنغامِه والحانه »[1]. و « « إن هو إلاّ أسلوبٌ يؤدّي غرضَه كاملاً غيرَ منقوص، يلينُ أو يشتدّ، ويهدأ أو يهيج! ينسابُ انسياباً كالمـــاء إذ يسقي الغراس، أو يعصفُ عَصفاً كأنّه صَرْصَرٌ عـــاتية تبهرُ الأنفاس »[2].

[1] نفس المرجع، ص ٣٣٤.
[2] نفس المرجع، ص ٣٤٠.

ثَالثاً ــ الحكم للّغة أم للقرآن ؟

إذا كان الأمر كما يقولُ الشيخ صبحي الصالح « انّنا نجعلُ القرآنَ حَكَمًا على قواعدِ اللغة والنَحْوِ، ولا نجعلُ القواعِدَ حَكَمًا على القرآن »[1]، فانّنا نعجزُ، ونحنُ بهذا العَجْزِ راضون، عن ابداءِ أيِ رأيٍ في موضوعِ اعجازِ القرآن. وإذا كانتِ الأمّةُ العربيةُ بعيدةً بعضها عن بعض، لأسبابٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ وعنصريةٍ وحَضاريةٍ، فإنّها، كما يقولُ الابياري، « قريبةٌ بهذا الكتابِ وحدَه إلى لُغَتِها »[2]، ونحن لا نبغي لهذه الأمّة غيرَ هذا.

ولكن رضانا بهذا العجز لا يجعلّنا نرضى كثيرًا بمعجزةِ إعجاز القرآن. ولقد ميّز الأقدمون فيه بين « الفصيحِ والأفصحِ » ، وتساءَل الشيخُ عزُّ الدينِ بن عبد السلام : « لِمَ لَمْ يأتِ القرآنُ جميعُه بالأفصح ؟ »[3]، وأجابَه الصدرُ موهوبُ الجزرى : « إنّه لو جاءَ القرآنُ على ذلك لكانَ على غيرِ النمطِ المُعتادِ في كلامِ العرب »[4]. وفي رأيه أن القرآنَ تحدّى العربَ، لا في أفصحِه وحسب، بل في فَصيحه أيضاً ... ولكن هل هو جوابٌ مقنِع، في الوقتِ الذي نرى فيه القرآنَ يَعرِجُ بين المعنى والمبنى ؟!

وإذا كنّا لا نستطيع الحكْمَ على القرآن من قواعدِ اللغة، أفلا نستطيعُ الحكمُ على القرآن بالقرآن نفسه ؟! الواقعُ إنَّ القرآن لا يستوي كلُّه في درجةٍ واحدةٍ من الفصاحةِ والبلاغةِ. فنحن نجد فيه تراكيبَ غيرَ صحيحة، فبعضُه يضحّي بالمعنى مُرَاعاةً للفاصلة[5]، وبعضُه يتقدَّمُ على بعض، وبعضُه يختلف في مرجع الضمائر إلى ما تضمر عنه، وبعضه يقيّد بالتخصيصِ ما قد جرى تعميمُه ... وعلى كل ذلك أدلّة :

١ ــ ففي ما تقدّم وتأخر في القرآن من كلماتٍ وآيات، نسأل :أيّ إعجازِ نجدُه في مثل قوله: « أنزلَ على عبدِه الكتابَ ، ولم يَجعلُ له عِوَجًا قَيّماً »[6] ؟ والتركيبُ الصحيح: « أنزلَ على عبدِه الكتاب قَيّماً، ولم يجعلْ له عِوَجًا » .

وأيّ إعجاز في قوله : « فقالوا : أَرِنَا اللهَ جَهرةً »[1]، والصحيح، كما قال ابنُ عباس وابنُ جرير : « قالوا جهرةً : أرِنَا الله » ، أي : « إنّ سؤالَهم كانَ جهرة » .

---

[1] الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٥٨.
[2] ابراهيم الابياري، تاريخ القرآن، ص ٤٥.
[3] السيوطي، الاتقان، ٢ / ١٢٣.
[4] نفس المرجع.
[5] الفاصلة في القرآن هي قافية الآيات المسجّعة، وهي توازي قافية الشعر. ولكنّ المسلمين ابتغوا لها هذه التسمية إبعاداً عن الشعر.
[6] سورة الكهف ١٨ / ١.

ومن ذلك قوله : « أفرأيتَ مَنِ اتّخذَ إلهَه هواه »[٢]، والمعنى: « من اتّخذَ هواهُ إلهَه »، لأنّ من اتّخذ إلهَه هواه فهو غيرُ مذموم.

وقوله : « فضحكتْ فبشّرناها »[٣]، والصحيح : « فبشّرنَاها فضحكتْ » .

ومنه قوله : « ولــولا كلمةٌ من ربّكَ لكانَ لزامــاً وأَجَلٌ مسمّى »[٤]، والصــحيح: « ولولا كلمةَ وأَجَلٌ مسمّى لكان لزاماً ... » .

ومنه: « يسألونك كأنّك حفيّ عنها »[٥]، والصحيح: « يسألونك عنها كأنّك حفيّ ».

ومنه قوله : « فلا تعجبُكَ أموالُهم ولا أولادُهم إنما يُريد اللهُ ليعذِّبَهم بها فــي الحيــاةِ الدنيا »[٦]، والصحيح : « لا تعجبُك أموالُهم ولا أولادهم في الحياةِ الدنيا، إنما يريدُ الله ليعذَبهم بها في الآخرة » .

ومنه قلبُ المنقول في « طور سينين » ، والأصلُ : سيناء، وفــي « ال ياســين » ، والأصل : الياس[٧].

إلى ما هنالك من أمثلة عديدة في القرآن، على هذا النمط، وقد رأى لها المسلمون ألفَ تفسير وتفسير، اثباتاً لمعجزة الاعجاز في الكتاب العزيز[٨].

٢ ــ وفي القرآن أيضًا شبهةٌ في مرجعِ الضمائرِ إلى أصحابها، ويحتارُ القارئ فــي المعنى المقصود في قوله : « إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَيِّبُ، والعملُ الصالح يَرْفَعُهُ »[٩]. فالضــمير في « يرفعه » إمّا يعود إلى ما عــاد إليه ضمير « إليه » وهو الله، وإمّا يعود إلى « العمل » . والمعنى في كلتا الحالتين : إن العملَ الصالح هو الذي يرفعُه الكَلِــمُ الطيّــب؛ أو أنّ الكَلِــمَ الطيب، وهو التوحيد، يرفعُ العملَ الصالح، لأنه لا يصح العمل إلاّ مع الإيمان[١٠].

وفي قــوله أيضًا : « أنْ أقذفيهِ في التــابوتِ، فاقذفيه في اليــمّ »[١١]. إنّ الضمير في « اقذفيه » الثانية يرجِعْ إلى التابوت، وفي الأولى يرجع إلــى موســى. وفــي ذلــك يقــول

---

[١] سورة النساء ٤ / ١٥٣.
[٢] سورة الفرقان ٢٥ / ٤٣.
[٣] سورة هود ١١ / ٧١.
[٤] سورة طه ٢٠ / ١٢٩.
[٥] سورة الاعراف ٧ / ١٨٧.
[٦] سورة التوبة ٩ / ٥٥.
[٧] سورة التين ٩٥ / ٢، الصافات ٣٧ / ١٣٠.
[٨] انظر السيوطي، الاتقان ٢ / ١٣ ـ ١٦.
[٩] سورة فاطر ٣٥ / ١٠.
[١٠] انظر السيوطي، الاتقان ٢ / ١٩.
[١١] سورة طه ٢٠ / ٣٩.

الزمخشري : « رجوعُ بعضِها (الضمائر) إليه (إلى موسى) وبعضِها إلى التابوت فيه هجنة »[1].

وفي قوله : « ولا تستفتِ فيهم منهم أحدًا »[2]، إنّ ضميرَ « فيهم » لأصحابِ الكهف، وضميرَ « منهم » لليهود.

فهل هذا الخلط من الإعجاز في شيء ؟ وهل هو جائز في اللغة والمنطق ؟ لئن كان الله أنزلَ القرآنَ بلغةٍ عربيّةٍ خالصة، أفيجوّزُ لنفسِه ما لا يجوز في قوانينِ الكونِ ونظمه، وهو واضعها!

٣ ــ وفي القرآن تبيينٌ لما جاء في مكانٍ آخر، أي إنّ فيه كلاماً يبيّنه كلامٌ آخر في زمنٍ آخر وآياتٍ أخرى لاحقة. مثل قوله : « وجوهٌ يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة »[3]، وهو دالّ على جواز الرؤية. ثمّ قال : « لا تدركه الأبصار »[4]. وغير ذلك كثير[5].

٤ ــ وفي قراءة القرآن تستوقفنا غراباتٌ كثيرةٌ، منها : لماذا جاءت لفظةُ أَحَدْ « في صيغةِ النكرة، « والصَمَدْ » في صيغة التعريف، في قوله : « هو الله أحد، الله الصمد »[6] ؟

ولماذا جاءت لفظةُ « خالِصَة » مؤنّثة، و « محرَّم » مذكّرة، في قوله : « ما في بطونِ هذه الأنعام خالِصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا »[7]، ورأى لها المفسّرون حجّة، وهي أنّ « محرّم » ترجع إلى « ما » ، و « خالصة » ترجع إلى « الانعام » . فهل هذا معقول ؟

ولماذا أجاز القرآنُ التأنيثَ في مكانٍ، ولم يجزه في مكان آخر، في مثل قوله: « اعجازُ نَخْلٍ خَاوية »[8] و « اعجاز نخل مُنْقَعِر »[9]، وفي « انّ البقَر تشَابَه علينا »[10] وحجّة وحجّة التذكير عند المفسرين مقصود « جنسُه تشابَه علينا »[11]، وفي قوله « السماءُ منفطِر »[12] وفي مكان « إذا انفطرتِ السماء »[1]، وفي قوله « جاءتها ريحٌ عاصف »[2]، وفي مكانٍ « ولسليمانَ الريحُ عاصفة » [3]. إلى غير ذلك.

---

[1] انظر السيوطي، الاتقان ١ / ١٧٨ ...
[2] سورة الكهف ١٨ / ٢٢.
[3] سورة القيامة ٧٥ / ٢٢.
[4] سورة الانعام ٦ / ١٠٣.
[5] انظر السيوطي، الاتقان ٢ / ١٨ ـ ٢٠.
[6] سورة الاخلاص ١١٢ / ٢.
[7] سورة الانعام ٦ / ١٣٩.
[8] سورة الحاقة ٦٩ / ٧.
[9] سورة القمر ٥٤ / ٢٠.
[10] سورة البقرة ٢ / ٧٠.
[11] تفسير الجلالين على ٢ / ٧٠.
[12] سورة المزمل ٧٣ / ١٨.

٥ ــ ثمّ أيّهما أصحّ في الاعجاز ؟ قوله: « ادخلوا البابَ سُجَّدًا وقولوا : حِطَّةً »[٤]، أم قوله : « قولوا حطّة، وادخلوا الباب سُجَّدا »[٥] ؟ وقوله : « ما أُهِلَّ بهِ لغير الله »[٦] ؟ أم قوله: « ما أُهِلَّ لغيرِ اللهِ به »[٧] ؟ وقوله: « يكون الدينُ لله »[٨] ؟ أم قوله : « يكونُ الدينُ كلّه لله »[٩] ؟ وقوله : « ولن تمسَّنا النارُ إلاّ أيامًا معدودة »[١٠] ؟ أم قوله : « أيّاما معدودات »[١١] ؟ وقوله : « إن هدى الله هو هدى »[١٢] ؟ أم قوله : « إن الهدى هدى الله »[١٣] ؟ وقوله : « قولوا : آمنا بالله وما أنزِلَ إلينا »[١٤] ؟ أم قوله : « ... وما أنزل علينا »[١٥] ؟ وقوله: « ولا تقتلوا أولادَكم من املاق »[١٦] ؟ أم قوله: « خشيةَ املاق »[١٧] ؟

ولئن كان هذا التفاوت جائزاً في القرآن، فأيّهما في اللغة أفصح من الآخر ؟ ولئن كان في القرآن أفصح من الآخر ؟ ولئن كان في القرآن أفصح وفصيح، فـ « لِمَ لَمْ يأتِ القرآنُ جميعُه بالأفصح ؟ »[١٨].

٦ ــ وإذا أردنا العودةَ إلى نظريّةِ « المحكم والمتشابِه » في القرآن، فلا بدّ لنا من التساؤل : ما هي الحكمةُ في وجود المتشابِه ؟ « فإن كان ممّا يُمكِنُ علمُه، فله فوائد، منها الحثّ للعلماء على النظر؛ وإن كان ممّا لا يُمْكِنُ علمُه، فله فوائد، منها ابتلاء العباد بالوقوف عنده »[١٩].

ولكن كيف ينسجم « ابتلاءُ العباد » مع عقيدة الاعجاز ؟ وإذا كان المتشابه ــ ومعظم القرآن عليه ــ للخاصّة دون العامّة، فكيف يخاطب الله العامّة ؟ وكيف تعمل العامّة لتستفيد

---

[١] سورة الانفطار ٨٢ / ١.
[٢] سورة يونس ١٠ / ٢٢ .
[٣] سورة الأنبياء ٢١ / ٨١.
[٤] سورة البقرة ٢ / ٥٨.
[٥] سورة الأعراف ٧ / ١٦١.
[٦] سورة البقرة ٢ / ١٧٣.
[٧] ٥ / ٣، ٦ / ١٤٥، ١٦ / ١١٥.
[٨] سورة البقرة ٢ / ١٩٣.
[٩] سورة الانفال ٨ / ٣٩.
[١٠] سورة البقرة ٢ / ٨٠.
[١١] ٣ / ٢٤، ٢ / ١٨٤، ٢٠٣.
[١٢] سورة البقرة ٢ / ١٢٠.
[١٣] سورة آل عمران ٣ / ٧٣.
[١٤] سورة البقرة ٢ / ١٣٦.
[١٥] سورة آل عمران ٣ / ٨٤.
[١٦] سورة الانعام ٦ / ١٥١.
[١٧] سورة الاسراء ١٧ / ٣١.
[١٨] السيوطي، ٢ / ١٢٣.
[١٩] السيوطي، ٢ / ١٢.

من كلام الله العزيز ؟ إنّها شبهة أخرى تطعن بأهداف الوحي والنبوّة. وقد لا يكــون القــرآن كذلك، بل كذلك أراده المسلمون.

٧ ــ وإذا أردنا العودةَ إلى « الناسخ والمنسوخ » في القرآن، فلا بدّ لنا من القول بأنّ القرآنَ انفرد، دون سائرِ الكتب المنزلة، بهذه النظرية الخطيرة. ولم يكن النســخ ــ بحســب معناه ــ ابدالَ آية بآية فحسب، بل هناك نَسْخٌ بطريقةِ النسيان بدون ابدال. ولهذا كان النبــيّ يصلّي : « اللهم ارحمني بالقرآن، اللهم ذكّرني منه ما نسيت، وعلّمني ما جهلت »[١].

وأخرج الطبراني عن ابن عمر أنّ النبيّ اقرأ رجلين سورة، فكانا يقرآن بهــا، فقامــا ذاتَ ليلة يصلّيان، فلم يقدرا منها على حرفٍ، فأصبحا غادِيَين على رسولِ الله، فذكرا له ذلك، فقال: « انّهما مِمّا نُسِخَ ــ أي رُفِعَ ــ فأَلْهُوَا عنها » . وكذلك روى عن أبي موسى الأشعري: « نزلتْ سورةٌ نحو براءة، ثم رُفِعَتْ » . وروى البخاري عن أنس أنّه أنزل في قصة أصحاب بئر معونة قرآن قرأناه، ثم رُفِعَ »[٢].

ويسجّلُ هذا النسخ في القرآنِ أقوالُ كثيرةٌ من المحدِّثين، نذكر بعضــها : روى عــن عمر قوله : « لا يقولن أحدكــم أخذتُ القرآنَ كلَّه. وما يدريه ما كلّه! فقد ذَهَبَ منــه قــرآنٌ كثير »[٣]، وعن عبد الرحمن بن عوف قال عن آية في الجهاد : « أسقِطَتْ في ما أُسقِطَ مــن القرآن »[٤]؛ وعن عائشة قالت عن آية « إنّها كانت قبل أن يغيَّر عثمانُ المصاحف »[٥].

ونحن نسأل : هل من الاعجازِ في شيء أن يَذهبَ « كثيرٌ من القرآن » ؟ وأن يُرْفَعَ منه الكثير ؟ وأن يُنْسَخَ أو يُنْسَى منه الكثير ؟ هل يصحُّ النسخُ في كتابِ الله المنزَل ؟ وهــل يَبقى القرآن، مع هذا النسخ، معجزةً في اعجازه ؟ أين هو الاعجاز في كل ذلك ؟ وأي اعجاز هو أن نجدَ الناسخَ، في بعضِ السور، يتقدّمُ على المنسوخ ؟ كما هو الحالُ في آيةِ البقــرة ٢/ ٢٣٤ التي تَنسَخُ ما بعدها ٢/ ٢٤٠، وآية الأحزاب ٣٣/ ٥٠ التي تنسخُ ما بعدها ٣٣/ ٥٣ ؟

٨ ــ ومنْ غريبِ القرآن في اعجازِه أن تَرى المَعاني تختلِطُ علينا لأجلِ « مراعــاةِ الفاصلة » ، أي القافية، وأن ترى اللغةَ تُحَرَّفُ مُخالِفةً للأصول لأجــلِ « مراعــاة الــرَوِيّ والإيقاع » . والأمثالُ على ذلك عديدة :

---

[١] عن دروزة، القرآن، ص ٧١.
[٢] الاتقان، ٢ / ٢٥.
[٣] السيوطي، الاتقان ٢ / ٢٥.
[٤] نفس المرجع.
[٥] الاتقان، ٢ / ٢٥.

لماذا يقدِّم القرآنُ ما هو متأخِّرٌ في الزمانِ، نحو « فللهِ الآخِرةِ والأولى »[1] ؟ ولــولا مراعاة الفاصلة لقدّم « الأُولى » كقوله في مكانٍ آخر: « له الحمدُ في الأولى والآخــرة »[2]؛ ونحو تقديمِ هارون على موسى في قوله : « بربّ هارون وموسى »[3]؛ ونحو تقديمِ الضــمير على ما يفسّره في قوله : « فأوجسَ في نفسِه خِيفَة موسى »[4]، والأصلُ تقديمُ الفاعلِ موسى؛ ونحو حذف ياءِ الفعل غيرِ المجزوم في قوله : « والليلِ إذا يَسْر »[5]؛ ونحو حذف ياءِ الإضافة الإضافة في قوله : « فكيفَ كان عذابي ونُذرِ ... (٥٤/ ١٦) فكيف كان عقاب » (٤٠/ ٥)[6]؛ ونحو صرفِ الممنوعِ من الصرْفِ في قولهِ : « قَواريرًا قواريرًا »[7].

ولماذا يستغني القرآنُ بالمفردِ عن الجمع في قولهِ : « واجعلنا للمتّقــينَ إِمَامًــا »[8] ؟ والأصل « أئمّة » ، كما في قوله : « وجعلناهم أئمّةً يهدون »[9]؛ وفي قوله : « إنّ المتّقين في في جنّاتٍ ونَهْرٍ »[10]، والأصل « وأنهَار » ، وقد جعلها مفردة مراعاة للفاصلة.

ولماذا يستغني بالمثنّى عن المفرد في مثل قوله: « ولمن خافَ مُقامَ ربّه جنّتــان »[11]، والأصل، كما قال الفرّاء، « جنّة » . ولماذا أيضًا يستغني بالمثنى عن الجمع في قوله: « ومن دونهما جنّتان »[12]، والأصل جنّات؟ الظاهر أن القرآن استعمل المثنّى مكان المفرد « مراعاة للفاصلة » ، ومكان الجمع « مراعاة للفظ » .

ثمّ أيضًا لماذا الاستغناء بالجمع عن المفرد في قوله : « لا بَيْع فيــهِ ولا خــلال »[13]، والأصل : خلّة، كما في قوله في مكان آخر : « لا بيع فيه ولا خلّة »[14] ؟

ومن غرائبِ القرآن أيضــاً : وقوعُ مفعولٍ موقعَ فــاعلٍ في قــــوله : « حجابــــاً مستوراً »[15]، والأصل : ساتِرًا؛ وفي قوله : « وكان وعدُه مَأْتِيًّا »[16]، والأصل : آتيًا. ووقوعُ

---

[1] سورة النجم ٥٣ / ٢٥.
[2] سورة القصص ٢٨ / ٧٠.
[3] سورة طه ٢٠ / ٧٠.
[4] سورة طه ٢٠ / ٦٧.
[5] سورة الفجر ٨٩ / ٤.
[6] سورة غافر ٤٠ / ٥.
[7] سورة الإنسان ٧٦ / ١٥.
[8] سورة الفرقان ٢٥ / ٧٤.
[9] سورة الأنبياء ٢١ / ٧٣.
[10] سورة القمر ٥٤ / ٥٤.
[11] سورة الرحمن ٥٥ / ٤٦.
[12] سورة الرحمن ٥٥ / ٦٢.
[13] سورة ابراهيم ١٤ / ٣١.
[14] سورة البقرة ٢ / ٢٥٤.
[15] سورة الاسراء ١٧ / ٤٥.
[16] سورة مريم ١٩ / ٦١.

فاعلٍ موقعَ مفعولٍ في قــوله: « عِيشةً راضية »[١]، والأصل: مرضِية؛ وفي قــوله: « مــاءٌ دافق »[٢]، والأصل : « مدفوق » !

ومن غرائبه أيضاً : ايقاعُ حرفٍ مكان غيره في قوله : « بأنَّ ربَّك أوحَى لها »[٣] بدل بدل « إليها » ؛ وحذف الفاعل ونائِبه في قوله : « وما لأحدٍ عنده مــن نعمـــة تُجــزَى »[٤] والأصل: « يُجزَى عليها » ؛ واستعمالُ صيغة المستقبل بدل صيغة الماضي في قوله: « فريقًا كَذَّبتُم وفريقًا تَقتلون »[٥] والأصل: « قَتلتم » ؛ وتغييرُ بنيةِ الكلمة في قوله: « طور سينين » و و « ال ياسين » ، بدل طور سيناء، والياس، كما مرّ معنا.

كل هذه الغرائب البيانية في القرآن كانت من أجل مراعاة الفواصل، واحتراماً للرويّ والإيقاع، وتقديراً لرهافة حسّ السامعين الفصحاء، وتحدّياً للشعراء والكهّان، وتخطّياً لأصول المنطق وصحّة المعاني ... أهذه من عجائب القرآن، كما يقولون : « إن القــرآنَ العظــيم لا تنقضي عجائبه »[٦] ؟ أم هي تعجيز لعقولنا التي ابتليت بالقرآن، كما يقولون : انّها « ابــتلاء للعباد »[٧] ؟

ولئن سلّمنا، مع الدكتور الشيخ صبحي الصالح، بأنّ القرآن هو الحكَــمُ علــى اللغــة وقواعدها لا العكس، فهل نسلّم أيضا بنظرية الفصيح والأفصح في القرآن ؟ وإن كان الأمــر كذلك فأين أصبحَ اللسانُ العربيّ المبين ؟ وكيف نفهم قــولَ الله : « قرآناً عربيــاً غيــر ذي عِوَجٍ »[٨] ؟ وهل نقول مع النبيّ : « الحمدُ لله الــذي أنزلَ على عبده الكتابَ ولم يجعــلْ لــه عِوَجًا »[٩] ؟

[١] سورة الحاقة ٦٩ / ٢١.
[٢] سورة الطارق ٨٦ / ٦.
[٣] سورة الزلزلة ٩٩ / ٥.
[٤] سورة الليل ٩٢ / ١٩.
[٥] سورة البقرة ٢ / ٨٧.
[٦] الاتقان ٢ / ١٠٣.
[٧] الاتقان ٢ / ١٢.
[٨] الزمر ٣٩ / ٢٨.
[٩] الكهف ١٨ / ١.

الخَاتمَة

في يقيني إن كرامةَ الله تَسلم بكرامةِ الإنسان، ومجدَ الله العظيم يكبر عندما يُصانُ الإنسان في حرّيتِه وشأنه. وبـ« الجهادِ » لأجلِ الإنسان يَحظى اللهُ بـ« الجهادِ في سبيله » . وبتعبيرٍ إنسانيٍ نبيل أقول : هو الإنسانُ الذي يحتاجُ إلى عَطفِ المسلمين ومحبتهم قبلَ الاهتمامِ بالله وأنبيائه. إن السعيَ إلى الله ينالُ قدسيّتَه بعدَ السعي نحوَ الإنسان. وإن محبّةَ الإنسان تسمو، بما لا يحدّ، على محبّةِ القرابين والكتاب المنزل والقوانين الصارمة ...

ومن كرامةِ الإنسانِ أن يتناولَ الباحثونَ عن الحقيقةِ بشيءٍ من التواضعِ أمامَ رحابةِ العلمِ وغموضِ وثائقِ التاريخ، فلا يقولنّ أحدّهم، كما يقولُ الشيخ الدكتور : « إنّي أدعو العلماءَ في مختلفِ العالَمِ الإسلامي إلى قراءةِ هذا البحثِ خاصّةً بإمعانٍ شديد »[١]. وكما يحكُم بنفسِه على قيمةِ بحثِه بقولِه : « وأجدَى ما في هذا الكتاب أنّه قد يُغني، في كلِ بحثٍ طَرَقَه، عن عشراتِ الكتبِ في بابهِ، ولكنّها مجتمعةً لن تُغني عنه أبداً »[٢].

فأيَّ علمٍ نستطيعُ أن نأخذَه من شيخٍ ملآنٍ من ذاته! وأيّ بحثٍ علميٍّ يصدرُ عن مثلِ شيخٍ يقول : « لذلك كَرَّرنَا على شُبُهَاتِهم (أي شبهات العلماء) جميعاً، نَنْقُضَها نَقْضًا، ونردُّها إلى صدورِهم سِهَامًا قاتلات »[٣]. أهوَ علمٌ أم مهاترة بحق كرامةِ الإنسان! أهوَ بحثٌ تاريخيٌ أم أم « العقلُ في تابوت. يحملُ سبحةً. في مِنخَارَيه قطن »[٤] ؟ الحقيقةُ، إنّ « القطنَ الذي في منخارَيّ العقل » صورةٌ مزعجةٌ، نَتِنةٌ، قَبيحة، ولن أخشى أن يكونَ مصوّرُها على حقٍّ، بل أخشَى، بعد قِراءةِ الدكتور، أن يكونَ الحقُّ والعقلُ في الصورةِ إيّاها!

ومن كرامةِ الإسلامِ والقرآنِ نفسَيهما ألاّ يقالَ فيهما إنّ « لدينا النظامَ الكاملَ الصالحَ لعمارةِ الكونِ وتنظيم الحياةِ البشريّةِ »[٥]، وألاَّ يقال بمثلِ هذا الهَوَس : « يُوجَد فيهِ (في الإسلام) نظامٌ حياتيٌّ كامل، لا يَتركُ مجالاً لأيِّ نظامٍ آخر، ولا يَدَعُ منفذًا للشعورِ بالحاجةِ إلى تنظيمٍ جانبٍ من جوانبِ الحياة، لأنّ الشريعةَ الإسلاميةَ بقواعِدها الكلّيّةِ العامّةِ، وبالفقهِ الذي بُني على أصلَيهما الكبيرَين (الكتاب والسنّة)، شاملةٌ مستوعِبةٌ لكلِ ما تقضي به سنّةُ الحياةِ من نُظُمٍ وأحكام »[٦].

---

[١] الدكتور الشيخ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٧.
[٢] المرجع نفسه، في صفحة الغلاف الأخير للكتاب.
[٣] المرجع نفسه، ص ٣٤٤.
[٤] مصطفى جحا، محنة العقل في الإسلام، ص ٢٧١.
[٥] الشيخ حسن خالد، « آراء ومواقف » ، ص ١٤٥، جريدة الأنوار ٣ / ٦ / ١٩٧٣.
[٦] الشيخ محمد مهدي شمس الدين، العلمانية، بيروت ١٩٨٠، ص ٨٦.

أيّ حظٍّ سعيدٍ يَنعَمُ به المسلمون وهم واجدون في كتابِ الله كمالَ العِلم وتمامَ المعرفة! حتى « إن نجاحَ الإنسانِ في الوصولِ إلى القمر لا يَنبغي أن يُدْهِشَ مُسلمًا اطّلع على ما في القرآن من آياتٍ محكمات »[1]. أخشى أن يَكثرَ، بعدَ خاتمِ النبيين، الأنبياءُ المعصومون، فتكونُ قضيّتُنا مع المسلمين لا مع الإسلام، ومصيبتُنا بالقرآنيين لا بالقرآن. إنّ حزنَنا على العقلِ « يمشي على الخزفِ، جذورُه في مكانٍ، وهو في مكانٍ آخر »[2]، لا على القرآنِ الذي رتّبَ لزمانِه شرائعَ وقوانينَ أصلَحَتْ ما كان فاسِدًا في مجتمعٍ هي له.

وقبلَ أن يضعَ مصطفى جحا القرآنَ « في المتحفِ مع المعلّقاتِ الجاهليةِ والشعرِ الذي لا يَتعدّى النظمَ والقافية »[3]، ألمْ يرَ لحكمِه رادِعًا عند الشيخِ الدكتور وهو يردّد « إنّ مفهومَ « التقدّمِ » قرآنيٌّ قديمٌ وليسَ بالمستحدَثِ الجديد »[4]، وقد رأى ذلك بأحسن تعبير في سورةِ المدثّر : « كلاّ والقَمرِ. والليل إذْ أدبَر. والصُبحِ إذا أسفَر. إنّها لإحدَى الكُبَرِ. نَذيرًا للبَشَرِ. لِمَنْ شاءَ منكم أنْ يَتَقَدَّمَ أو يَتَأَخَّر »[5] .. فهل بعد ذلك من خيارٍ بين باحثٍ قَلِقٍ على مصيرِ الإنسانِ وبينَ مَن يُضفي على نبوّةِ الكتابِ نبوّةً أخرى!؟

وما يَضيرُ الشيخ أن تشوّقَ إلى النبوّة! وفي الكتبِ المقدسةِ المنزلةِ دعوةً إليها: « تشوّقوا إذاً، يا أخوتي، إلى النبوّة »[6]. وعلى الجميعِ أن يـ « تشوّقوا إلى المواهب، ولا سيّما موهبة النبوّة »[7]. وقد « قال الله : سيكون في الأيامِ الأخيرةِ فَيضٌ من روحي، أفيضُه على الناسِ أجمعين، فيتنبّأ بنوهم وبَناتهم »[8] ... فلماذا مُنِعَتِ النبوّةُ عن كافّة الآدميين، في حين أنني سمعتُ « أَتَانَ بلعام » تتكلّمُ بعد ما رأتْ ملاكَ الله، وقد عرفتْ مقاصدَه وعملتْ على خلاصِ صاحبِها من غضبِ الملاك وسيفهِ المسعورِ إلى الدماء[9] !

وما يُضيرُ الناس إن اكتفَوا من عالَمِ النبوّةِ والمعجزاتِ بمعجزةِ المحبّة وحسب! فهل يغضبُ اللهُ إن جَاهَدَ الناسُ في سبيلِ المحبّة، ولو كان ذلك على حسابه، وحسابِ جبريل والكتابِ والأنبياءِ أجمعين! فَمَا شأنُ « المجاهِدين » لأجل الدفاعِ عن الله، و « المرابِطين » على حدودِه ليَمنَعوا الناسَ عنه وعن ديارِه المقدّسة! أصحيحٌ ما قالهُ سَمَاحَتُهُ: « لقد أصبحَ

---

[1] الشيخ حسن خالد، آراء ومواقف، ص ٢٩١، نقلا عن جريدة الجريدة، في موضوع الإسلام وغزو الفضاء ٧ / ٨ / ١٩٦٩، بمناسبةِ وصول الإنسان إلى القمر.
[2] مصطفى جحا، المرجع السابق، ص ١٠.
[3] المرجع نفسه، ص ٢٠٠.
[4] الشيخ صبحي الصالح، الإسلام والمجتمع العصري، ٢٦٦ ـ ٢٦٧.
[5] سورة المدّثر ٧٤ / ٣٢ ـ ٣٧.
[6] الرسالة الأولى إلى أهل قورنتس ١٤ / ٣٩.
[7] الرسالة الأولى إلى أهل قورنتس ١٤ / ١.
[8] أشعيا ٢ / ٢، أعمال الرسل ٢ / ١٧.
[9] سفر العدد، ٢٢ / ٢٢ ـ ٣٥.

(الجهادُ) في الإسلامِ دفاعًا عن العقيدةِ، وذبّا عن شريعتِها، وحمايـــةً لحياضِـــها وأوطانِهـــا، وصيانةً لمقوّماتِها وطاقاتِها وقدراتِها »[1] !!!؟؟؟ أيحتاجُ الله العليُ القديرُ إلى مَن يـــدفعُ عنـــه وعن شريعتِه ودينِه الظلمَ والكفرَ والعدوان!

إنّ المعجزةَ الكبرى هي في أن تصعدَ إلى اللهِ عَبْرَ التاريخِ والكونِ والإنســـانِ، لا أن تنزلَ إلى الأرضِ من فوق من « الأفق الأعلى » ومن « اللوحِ المحفوظِ » . قـــد ينيـــرُ اللهُ سبيلَكَ لتصلَ إليهِ. ولكنّكَ لم تقدِرِ الإحاطةَ به، ومعرفةَ أسرارِه، وعلمَ مشيئتِه. بَدءًا بالإنســـانِ تسيرُ على صراطِ اللهِ القويم، ونزولاً من اللهِ تتعثّرُ خطاك نحوَ الإنسان. ولكي تقوِّمَ خطواتِك نحوه، بهذا النزولِ الغريب، لا بدّ من « الجهاد » ؛ ويدعمُ الجهادُ عَالَمٌ منَ المعجزاتِ يصونُه الادّعاء ويعانقُه الجنون ...

[1] الشيخ حسن خالد، الشهيد في الإسلام، دار العلم للملايين بيروت ط ٢ سنة ١٩٧٨، ص ٤١ ...

المصَادر والمراجع

لم أثبت في هذا الباب الاّ الكتب التي لها علاقة مباشرة بـــالقرآن، بتاريخـــه ونشـــأته وحفظه وتدوينه ... أمّا ما له علاقة بالتفسير والعقيدة والأحكام والعلوم والقوانين فلـــم أذكـــر منها إلاّ ما كان له صلة بموضوع البحث ... وخشية التكرار لم أعد إلى ذكر بعـــض الكتـــب الواردة في المقدّمة والكاملة التعريف ... ثمّ عمدت إلى سرد المراجع بحسب حروف الأبجدية لاسم الكاتب المشتهر به؛ ولم أحسب لكلمتي : ابن وأبو، وأل التعريف حساباً في الترتيب. أهمّ المراجع هي :

١) الابياري، ابراهيم، تاريخ القرآن، دار الشروق بيروت سنة ١٩٦٤ م.
٢) الاشيقر، محمّد علي، لمحات من تاريخ القرآن، مطبعة النعمان، كربلاء، بدون تاريخ.
٣) ابن أبي الاصبيع، محمد، بديع القرآن، مكتبة النهضة بمصر، القاهرة، سنة ١٩٥٧.
٤) الاصفهاني، الراغب، المفردات في غريب القرآن، اعداد محمّد أحمـــد خلـــف الله، مكتبـــة الانجلـــو المصرية، القاهرة سنة ١٩٧٠ م.
٥) الآصفي، علي محمّد، دراسات في القرآن الكريم، مكتبة النجاح، النجف، سنة ١٣٨٠ هـــ.
٦) الألوسي، محمود، روح المعاني، المطابع المنيرية القاهرة ١٣٤٥ هـــ.
٧) ابن الانباري، البيان في غريب القرآن، دار الكاتب العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٩ م.
٨) الباقلاني، القاضي أبو بكر، اعجاز القرآن، جزءان، بهامش كتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي، المكتبة الثقافية بيروت ١٩٧٣ م.
٩) البيلاوى، محمد علي، التعريف بالنبي والقرآن الشريف، دار الكتب المصرية، القاهرة، ســـنة ١٩٢٧ م.
١٠) البخاري، محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، ٩ أجزاء في ثلاثة مجلّدات، مطابع الشعب (بـــدون تاريخ).
١١) بدوى، أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٠ م.
١٢) البغدادي، الحسين، معالم التنزيل، مطبعة المنار، القاهرة ١٣٤٥ هـــ .
١٣) بلاشير، القرآن، نزوله، تدوينه، ترجمته، وتأثيره، عرّبه رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيـــروت ١٩٧٤ م.
١٤) البنا، أحمد الدمياطي، اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر، القاهرة، سنة ١٣٥٩ هـــ.
١٥) بن نبي، مالك، الظاهرة القرآنية، مكتبة دار العروبة، القاهرة، سنة ١٩٥٨ م.
١٦) البهي، الدكتور محمد، من مفاهيم القرآن في العقيدة والسلوك، دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٧٣ م.
١٧) البوطي، محمد سعيد، من روائع القرآن، ط ٢، مكتبة الفارابي، دمشق، سنة ١٩٧٠ م.

١٨) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، في مجموعة من التفاسير، ٦ مجلّدات، دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٣١٧ هـ.
١٩) الترمذي، الجامع الصحيح، أو « سنن الترمذي » ، مطبعة البابي، القاهرة، سنة ١٩٣٧ م.
٢٠) التسترى، سهل، تفسير القرآن العظيم، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٩٠٨ م.
٢١) ابن تيمية، أحمد، الاكليل في المتشابه والتنزيل، المطبعة العامة الشرقية، القاهرة، سنة ١٣٢٣ هـ.
٢٢) ابن تيمية، أحمد، مقدمة في أصول التفسير، دار القرآن الكريم، الكويت (بدون تاريخ).
٢٣) الثعالبي، عبد الرحمن، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الجزائر، سنة ١٣٢٣ هـ.
٢٤) الجديلي، محمد، نظرات حديثة في التفسير، المكتب التجاري، بيروت، سنة ١٩٦٣ م.
٢٥) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الاعجاز، ط ٢، مطبعة المنار، القاهرة، سنة ١٣٣١ هـ. (نشر السيد محمد رشيد رضا).
٢٦) جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، قرآن كريم، تفسير الجلالين، مكتبة الملاح، دمشق، (بدون تاريخ).
٢٧) جملة مؤلّفين، القرآن، نظرة عصرية جديدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة ١٩٧٢ م.
٢٨) جمال، أحمد محمد، مع المفسرين والكتاب، دار الكتاب العربي، القاهرة، سنة ١٩٥٤ م.
٢٩) ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، سنة ١٣٨٦ هـ.
٣٠) الحداد، الأستاذ، القرآن والكتاب، جزءان، لا دار نشر، ولا تاريخ، في سلسلة « دروس قرآنية » .
٣١) الحداد، الاستاذ، نظم القرآن والكتاب، الكتاب الأوّل : اعجاز القرآن، لا دار نشر، ولا تاريخ.
٣٢) حسين، محمد الخضر، بلاغة القرآن، المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٧١ م.
٣٣) أبو حيان الأندلسي، التفسير الكبير، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٨ هـ.
٣٤) ابن الخازن الشيخي، لباب التأويل في معاني التنزيل، في مجموعة من التفاسير، ٦ مجلّدات، دار احياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٣١٧ هـ.
٣٥) الخطيب، عبد الكريم، اعجاز القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٤ م.
٣٦) الخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة. بدون تاريخ.
٣٧) ابن الخطيب، محمد، أوضح التفاسير، ط ٦، المطبعة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٦٤ م.
٣٨) خلف الله، محمد وسلام، ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، دار المعارف بمصر، القاهرة، سنة ١٩٥٥ م.
٣٩) الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، ط ٢، مطبعة الآداب، النجف، سنة ١٩٦٦ م.
٤٠) الداني، أبو عمرو، المحكم في نقط المصاحف، مديرية احياء التراث القديم، دمشق، سنة١٩٦٠ م.
٤١) الداني، المقنع في رسم القرآن الكريم (مخطوط) في الجامعة الأميركية ببيروت.
٤٢) الداني، التيسير في القراءات السبع، نشر وتحقيق « برتزل » ، الاستانة، سنة ١٩٣٠ م، سلسلة المكتبة الإسلاميّة، ٢.
٤٣) ابن أبي داود، أبو بكر، كتاب المصاحف، المطبعة الرحمانيّة، القاهرة، سنة ١٩٣٦ م.

٤٤) دراز، الدكتور محمد عبد الله، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ط ٢، دار القلم، الكويت، سنة ١٩٧٠ م.
٤٥) دروزة، محمّد عزّة، القرآن المجيد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، بدون تاريخ.
٤٦) الدومي، أحمد عبد الجواد، مبعوث الأزهر الشريف بلبنان، الإسلام منهاج وسلوك، المكتبة العصرية صيدا بيروت، بدون تاريخ.
٤٧) الديب، محمد السباعي، البيان في اعجاز القرآن، مطبعة صبيح، القاهرة، سنة ١٩٦٠ م.
٤٨) الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، دار الكتب الحديثة، القاهرة، سنة ١٩٦١ م.
٤٩) الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، أو مفاتيح الغيب، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، سنة ١٩٣٨ م.
٥٠) الرافعي، الدكتور مصطفى صادق، اعجاز القرآن، والبلاغة النبويّة، ط ٩، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٩٧٣ م.
٥١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ط ٨، مطبعة المنار، القاهرة، سنة ١٣٤٦ هـ.
٥٢) الزجاج، اعراب القرآن، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة، سنة ١٩٦٣ م.
٥٣) أبي زرعة، الامام عبد الرحمن بن زنجلة، حجة القراءات، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط ٢، بيروت، ١٩٧٩ م.
٥٤) الزرقاني، عبد العظيم، مناهل العرفان، مطبعة شبرا، القاهرة، سنة ١٣٥٩ هـ.
٥٥) الزركشي، محمد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، ٤ أجزاء، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، سنة ١٩٥٧ م القاهرة.
٥٦) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مطبعة محمد مصطفى، القاهرة، ١٣٥٤ هـ (٤ جزء).
٥٧) الزنجاني، أبو عبد الله ، تاريخ القرآن، ط ٣، مؤسسة الأعلمي، بيرو سنة ١٩٦٩ م.
٥٨) السجستاني، غريب القرآن، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٣٤٢ هـ.
٥٩) أبو السعود، ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، جزءان، مطبعة بولاق القاهرة سنة ١٢٧٥ هـ.
٦٠) السيوري، مقداد، كنز العرفان في فقه القرآن، تبريز، ١٣١٤ هـ.
٦١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الاتقان في علوم القرآن، جزءان في مجلّد واحد، المكتبة الثقافية، بيروت، سنة ١٩٧٣ م.
٦٢) السيوطي، المتوكلي فيما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والتركية والزنجية والنبطية والقبطية والسريانية والعبرانية والبربرية، مكتبة القدسي والبدير، دمشق، سنة ١٣٤٨ هـ.
٦٣) السيوطي، معترك الأقران في اعجاز القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٩ م.
٦٤) شاهين، عبد الصبور، تاريخ القرآن، دار الكاتب العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٦ م.
٦٥) شحاتة، دكتور عبد الله محمود، تاريخ القرآن والتفسير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٧٢ م.
٦٦) الشرباصي، أحمد، قصة التفسير، دار القلم القاهرة ١٩٦٢ م. ودار الجيل بيروت، ط ٢، سنة ١٩٧٨ م.

٦٧) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٥ م.
٦٨) شيخ أمين، الدكتور بكري، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت سنة ١٩٧٣ م.
٦٩) الصابوني، محمد علي، التبيان في علوم القرآن، دار الارشاد، بيروت سنة ١٩٧٠ م.
٧٠) الصالح، الدكتور الشيخ صبحي، مباحث في علوم القرآن، ط ١١، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٩٧٩ م.
٧١) صبيح، محمد، بحث جديد عن القرآن، ط ٦، دار الثقافة العامّة القاهرة، بدون تاريخ.
٧٢) الصعيدي، عبد المتعال، النظم الفني في القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة، سنة ١٩٥٠ م.
٧٣) الطبرسي، مجمع البيان، طهران، سنة ١٣١٤ هـ.
٧٤) الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، المطبعة الأميرية القاهرة، سنة ١٣٢٣ هـ.
٧٥) الطوسي، أبو جعفر، التبيان في تفسير القرآن، المطبعة العلمية النجف، سنة ١٩٥٧م.
٧٦) الظافر، نصير الدين، حسن الايجاز في ابطال الإعجاز، المطبعة الإنجليزية الأميركانية، القاهرة، بدون تاريخ.
٧٧) عبد الجبار، القاضي، تنزيه القرآن عن المطاعن، المطبعة الجمالية، القاهرة، سنة ١٣٢٩ هـ.
٧٨) عبد الرحمن، عائشة، التفسير البياني للقرآن، دار المعارف بمصر، القاهرة، سنة ١٩٦٢ م.
٧٩) عبد الرحمن، عائشة، القرآن والتفسير العصري، دار المعارف بمصر، القاهرة، سنة ١٩٧٠ م.
٨٠) عبدو، محمد، تفسير جزء عم، مطبعة مصر، القاهرة، ١٣٤١ هـ.
٨١) أبو عبيدة، معمر بن المثنى، مجاز القرآن، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٩٥٤ م.
٨٢) العدوى، محمد مخلوف، عنوان البيان في علوم التبيان، مطبعة المعاهد، القاهرة، سنة ١٣٤٤ هـ.
٨٣) ابن العربي، أحكام القرآن، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٣١ هـ.
٨٤) العزوزى، محمد العربي، دليل مباحث علوم القرآن المجيد، دار الانصاف بيروت ١٩٥٦ م.
٨٥) العسكري، الحسن، تفسير العسكري، تبريز، سنة ١٣١٤ هـ.
٨٦) عطاء، عبد القادر، التفسير الصوفي للقرآن، دار الكتب الحديثة القاهرة سنة ١٩٦٩ م.
٨٧) العطار، الدكتور داود، موجز علوم القرآن، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت، ط ٢، سنة ١٩٧٩ م.
٨٨) العكبرى، املاء ما منّ به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القرآن، المطبعة الميمنيّة، القاهرة، سنة ١٣٢١ هـ.
٨٩) العلوي، عبد الله، تفسير القرآن، طهران، سنة ١٣٥٢ هـ.
٩٠) الغزالي، جواهر القرآن، مطبعة الدين الكردي القاهرة، سنة ١٣٢٩ هـ.
٩١) الغزالي، محمد، نظرات في القرآن، ط ٣، دار الكتب الحديثة القاهرة، سنة ١٩٦٢ م.
٩٢) جفرى، آرثر، مقدمتان في علوم القرآن، مكتبة الخانجي القاهرة، سنة ١٩٧٢ م.
٩٣) الفراء، معاني القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٥ م.
٩٤) الفيض الكاشاني، الصافي في تفسير القرآن، المطبعة الإسلاميّة، طهران، سنة ١٣٧٤ هـ.
٩٥) قبيسي، الدكتور محمد، تدوين القرآن الكريم، الوثيقة الأولى في الإسلام، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١ م.

٩٦) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، دار احياء الكتب العربية القاهرة سنة ١٣٧٣ هـ.
٩٧) ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق السيد أحمد صقر، سنة ١٩٧٨ م.
٩٨) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٥ م.
٩٩) القطان، مناع، مباحث في علوم القرآن، الدار السعودية للنشر، الرياض، بدون تاريخ.
١٠٠) قطب، سيّد، التصوير الفنّي في القرآن، دار الشروق، بيروت، بدون تاريخ.
١٠١) قطب، سيّد، في ظلال القرآن، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، سنة ١٩٥٣ م.
١٠٢) القيسي، قاسم محمد، تاريخ التفسير، المجمع العلمي العراقي، بغداد، سنة ١٩٦٦ م.
١٠٣) ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣٣ م.
١٠٤) ابن قيم الجوزية، كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٢٧ هـ.
١٠٥) ابن كثير، اسماعيل، تفسير الحافظ ابن كثير، مطبعة المنار، القاهرة، ١٣٤٣ هـ.
١٠٦) لاشين، دكتور عبد الفتاح، البديع في ضوء أساليب القرآن، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٩ م.
١٠٧) لاشين، المعاني في ضوء أساليب القرآن، ط ٣، سنة ١٩٧٨ م.
١٠٨) لاشين، البيان في ضوء أساليب القرآن، سنة ١٩٧٧ م.
١٠٩) المبرد، ما اتّفق لفظه واختلف معناه في القرآن المجيد، المطبعة السلفية القاهرة، سنة ١٣٥٠ هـ.
١١٠) مخلوف، دكتور عبد الرؤوف، الباقلاني وكتابه اعجاز القرآن، دراسة تحليلية نقدية، دار مكتبة الحياة، بيروت، سنة ١٩٧٨ م.
١١١) مكّي، أبو محمد بن أبي طالب القبسي، العمدة في غريب القرآن، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨١ م.
١١٢) النحاس، أبو جعفر، الناسخ والمنسوخ في القرآن، مطبعة السعادة القاهرة سنة ١٣٧٢ هـ.
١١٣) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، في مجموعة من التفاسير، ٦ مجلدات، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٣١٧ هـ.
١١٤) النمر، الدكتور عبد المنعم، علوم القرآن الكريم، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٩ م.
١١٥) النيسابوري، غرائب القرآن وغرائب الفرقان، المطبعة الأميرية، القاهرة، سنة ١٣٢٣ هـ.
١١٦) الواحدي، علي، أسباب النزول، مؤسسة الحلبي، القاهرة ١٩٦٨ م.
١١٧) BLACÈERE, Régis, Introduction au Coran; Ed. Besson et Chantemerle; Paris 1959.
١١٨) BLACHERE, Régis, Le Coran; Coll. "Que sais-Je?"; P.U.F.; Paris 1977.
١١٩) CASANOVA, P., Mohammed et la fin du monde; Paris, 1911- 1913; 2 fasc.
١٢٠) ENCYLOPEDIE DE L'ISLAM, Leyde, Plusieurs articles: Arab, Arabya, Kur'an, Madina, Mekka, Muhammad, Djazirat al-'Arab…
١٢١) NÖLDEKE, SCHWALLY, BERGSTRASSER et PRETZL, Geschichte des Qorans, Leipzig, 1919- 1938; 3 vol; I, Uber den Urspung des Qorans; II, Die Sammlung des Qorans; III, Die Geschichte des Qorantexts.